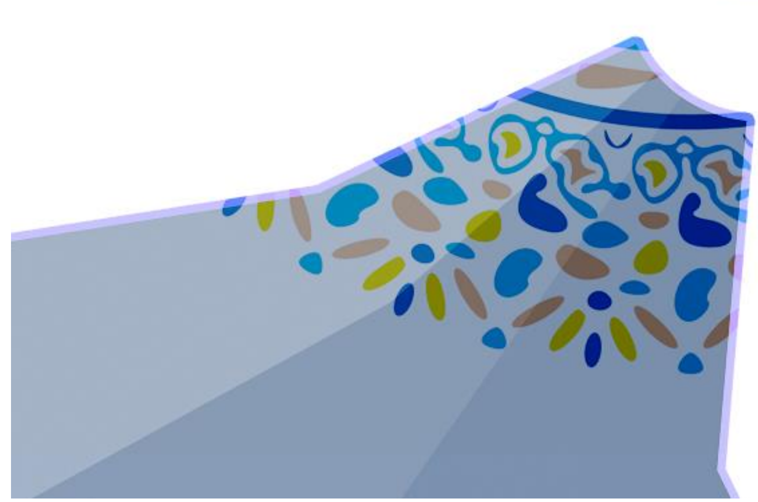


مجموع مقالات ودراسات

محمد خير رمضان يوسف

الجزء الثالث



مجموع مقالات ودراسات

محمد خير رمضان يوسف

الجزء الثالث

(متفرقات في الإسلام، علوم القرآن)

النشرة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ

النشرة الثانية

شوال ١٤٤١ هـ

الباب الثاني
العلوم الإسلامية

أولًا: متفرقات في الإسلام

(١)
الآداب الإسلامية

(أ)
إلى حملة إعلامية

صار الغالب على الشباب وغيرهم السهر إلى منتصف الليل وما بعده، ولم تكن هذه عادة سلفنا، إلا في طلب العلم والتفرغ له، ثم التحرك في الجهاد والحراسة في الثغور.

إن في سواد الليل، وضياء النهار، لحكمة من الخالق عز وجل. فقد جعل النوم سُباتاً، أي سكوناً وراحة للأبدان، ومأوى للناس والدواب، يلجأ كل إلى مأواه، وخاصة إذا سكن الليل فأظلم. وجعل النهار مضيئاً ليتكسَّب فيه الناس ويقضوا حوائجهم.

يقول ربنا سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [سورة يونس: ٦٧].

فواضح أن الليل خلق للراحة والنوم، حيث يناسب الهدوء والظلام، والنهار للعمل والحركة، حيث يناسب الضياء والانتشار، وهو معنى تسخيرهما للإنسان: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ} [سورة النحل: ١٢].

فإذا انقلب الأمر إلى عكس، بأن جعل الإنسان من النهار نوماً وراحة، ومن الليل سهراً وعملاً، فإنه يكون مناقضًا ومخالفًا للأصل، ومضادًا لما سُخِّر له الليل والنهار.

وقد أثبت العلم الحديث ضرر القمر على جسم الإنسان بالليل، وضرر النوم الكثير بالنهار، الذي لا يجلب للجسم الراحة أصلاً مثلما يجلبها له بالليل... وكل شيء إذا انقلب إلى ضد الطبيعة والفطرة يكون له ضرر.

وهذا لا يعني أن المرء لا ينام بالنهار لتعب أصابه أو لقيلولة يقيلها، وأنه لا يعمل بالليل قط، ولكن القصد العموم، وهو قلب الأمر وعكس التسخير، وإضاءة الليل بحيث يكون مثل النهار، وكم يكلِّف هذا الدول من ملايين الملايين من الدنانير؟ والناس إذا لم يجدوا هذه الإضاءات المغرية لم يخرجوا من البيوت، وفضَّلوا النوم.

والأمر الطبيعي هو المطلوب، وهو ما عليه المسلم خاصة، متابعة لنظام الكون الذي هيأه الله تعالى للبشر، ومتابعة للشريعة واقتداء برسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، فقد ورد في صحيحي ابن خزيمة وابن حبّان من حديث عائشة رضي الله عنها: "**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلَّى العشاء تجوَّز بركعتين ثم ينام**".

وإن النوم المبكر له فوائد كثيرة، لعمل الدنيا والآخرة، ففرق بين من يفيق ناشطاً قد أخذ راحته من النوم، ويقبل على العمل بنشاط وقوة، وبين آخر يقوم كسولاً متضجراً لا يكاد يرى أمامه من النعاس وثقل النفس، نتيجة السهر والنوم متأخراً، ومثل هذا لن يكون مقبلاً على عمله بنفس طيبة وروح مثابرة، ولا منتجًا كما هو مطلوب منه.

كما أن مثله غالباً لا يكون من أهل قيام الليل، وقد تفوته صلاة الفجر...

وهذه دراسة علمية طبية أسوقها للعبرة، ليزداد المسلم قناعة، وليعتبر غيره.

فقد كشفت دراسة طبية ألمانية عن وجود علاقة مؤكدة بين ارتفاع خطر إصابة النساء والرجال بمرضي سرطان الثدي والبروستاتا وعملهم ليلاً، أو تغييرهم نوبات دوامهم لمدة طويلة.

وذكرت الدراسة الصادرة عن مركز الطب البيئي وبحوث الوقاية الصحية بجامعة كولونيا أن العمل الليلي وتغيير نوبات الدوام لمدة طويلة يربك الوضع الحياتي الطبيعي للإنسان ويخرب ساعته البيولوجية وجهاز المناعة عنده لمدة طويلة؛ نتيجة تعطل إنتاج الجسم لهرمون الميلاتونين المقاوم لنمو الأورام السرطانية.

وأوضح المشرف على إعداد الدراسة أن هرمون الميلاتونين لا يعمل إلا أثناء النوم في الظلام فقط، وله وظيفة طبيعية واحدة، هي الاستفادة من الليل المظلم في تقوية الجهاز المناعي، ووقاية الجسم من الأورام الخبيثة، ومن بعض الأمراض.

واعتمدت دراسة جامعة كولونيا على دراسة سابقة صدرت عام ٢٠٠٧م، وساوت فيها الوكالة الدولية لأبحاث السرطان التابعة لمنظمة الصحة العالمية بين خطر الإصابة بالسرطان نتيجة التعرض للأشعة فيما يعرف باستديوهات حمامات الشمس الاصطناعية، وخطر الإصابة بالمرض الخبيث بسبب العمل ليلاً وتغيير نوبات الدوام.

وحللت الدراسة الألمانية نتائج ثلاثين دراسة عالمية مشابهة في الموضوع، وذكر معدوها في مستهلها أنه بات معروفًا على نطاق واسع أن السفر أو الحركة المؤقتة ليلاً يؤديان لفقدان الشهية والإرهاق الشديد وتعكير المزاج.

وفحصت الدراسة على مدار سنوات الحالة الصحية لـ٢٤٠ ألف شخص يواظبون على أعمال ليلية أو يعملون في شركات للطيران، وخلص معدوها إلى أن العمل الليلي يزيد مخاطر نمو الأورام الخبيثة.

وحذرت الدراسة الراغبين في العمل الليلي من المخاطر المترتبة على هذا، ونبهت إلى أن "العمل الليلي يحرم الجسم من حقه في النوم الطبيعي الذي لا يمكن تعويض كميته أو فائدته بالنعاس بضع ساعات في ضوء النهار".

ودعت الدراسة أصحاب الأعمال –في حال الضرورة– إلى عدم تعيين عمال بالخدمة الليلية إلا من يتشابه طابعهم اليومي مع البوم، المتعود على الاستيقاظ والحركة ليلاً والخمود مع إشراق الشمس.

وتفاءل معدو الدراسة الطبية من نجاح النتائج التي توصلوا لها في إقناع وزارة العمل الألمانية بمساواة المخاطر الناجمة عن العمل الليلي بنظيراتها التي يسببها التعرض للإشعاعات الضارة أو تدخين السجائر، وذكروا أن الدراسة تعد مسوغاً قانونيًا لمنح تعويض مادي للنساء أو الرجال الذين يصابون خلال العمل الليلي بسرطان الثدي أو البروستاتا. (الجزيرة نت ١٧ شوال ١٤٣١هـ باختصار).

إننا نحتاج إلى حملة إعلامية مكثفة من الدعاة والعلماء بالدعوة إلى النوم مبكراً، وتبصير الشباب والناس عامة في هذا العصر بفوائد الليل والحكمة منه، الذي خلق لأجل النوم والراحة، وفوائد النهار الذي خلق للكدِّ والمعاش.

وهذا على الأقل يفيد الملتزمين من أهل الإسلام، الذين يستجيبون إذا ذكِّروا، ويحاولون ويتمرَّنون، ويوصون أهلهم بذلك ويتابعون.

(ب)
السجع المباح والمذموم

السجع هو موالاة الكلام على رويٍّ واحد.

وقال الأزهري: هو الكلام المقفَّى من غير مراعاة وزن.

وقد أخرجَ الإمام البخاري لابن عباس رضي الله عنهما قوله: "وانظر السجعَ من الدعاء فاجتنبه".

أي لا تقصدْ إليه، ولا تشغل فكرك به، لما فيه من التكلف المانع للخشوع المطلوب في الدعاء.

والمراد بالنهي: المستكره منه، أو الاستكثار منه.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يردُّ على ذلك ما وقع في الأحاديث الصحيحة؛ لأن ذلك كان يصدر من غير قصد إليه، ولأجل هذا يجيء في غاية الانسجام، كقوله صلى الله عليه وسلم في الجهاد: "**اللهم مُنزِلَ الكتاب، سريعَ الحساب، هازمَ الأحزاب**".

وكقوله صلى الله عليه وسلم: "**صدقَ وعدَه، وأعزَّ جندَه**". الحديث.

وكقوله: "**أعوذُ بكَ من عينٍ لا تَدمع، ونفسٍ لا تَشبع، وقلبٍ لا يَخشع**".

وكلها صحيحة.

قال الغزالي: المكروهُ من السجع هو المتكلَّف؛ لأنه لا يلائم الضراعة والذلَّة، والا ففي الأدعية المأثورة كلماتٌ متوازية، لكنها غير متكلَّفة.

قال الأزهري: وانما كرهه صلى الله عليه وسلم لمشاكلتهِ كلامَ الكهنة، كما في قصة المرأة من هذيل.

(مستفاد من كلام الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" ١٣٩/١١ عند شرحه: باب ما يكره من السجع في الدعاء).

(ج)
الإشارة بطرف العين

الإشارةُ من طرفِ العينِ إلى أمرٍ سوءٍ أدبٌ منكرٌ لا يليقُ بخُلقِ المسلم.

ولكنه – مع الأسف – معمولٌ به وإن لم يكن في محيطٍ واسع، في مجتمعات، وفي مجالس خاصة، وبين الأصدقاء والندماء، في حركاتِ تهكمٍ واستهزاءٍ بالضحية دون أن يراهم، أو في أمورٍ أخرى أخطر من ذلك.

وتسمَّى هذ الإشارةُ (خائنة الأعين).

وقد جاءَ في حادثٍ من أحداثِ السيرةِ النبوية الشريفة، يومَ فتحِ مكة، حول عدمِ مبايعةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلمَ عبدالله بن سعد بن أبي السرح أولاً، وكان ممن أهدرَ دمه ولو وُجدَ متعلقًا بأستارِ الكعبة، فلما عَرف ذلك اختبأ عندَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الناسَ للبيعة، جاء به عثمان حتى أوقفهُ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال: يا رسولَ اللهِ، بايعْ عبدَالله.

فرفعَ رأسَه عليه الصلاةُ والسلام، فنظرَ إليه ثلاثًا، كلُّ ذلك يأبى. فبايعَهُ بعدَ الثلاث.

ثم أقبَل على أصحابِه عليه الصلاة والسلام فقال: "**ما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآني كفَفتُ يدي عن بيعتهِ فيقتله**"؟

قالوا: وما يُدرينا يا رسولَ اللهِ ما في نفسِك، ألا أومأتَ إلينا بعينِكَ؟

قال "**إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكونَ له خائنةُ أعين**".

(سنن النسائي (٤٠٦٧) وصحيح سننه (٤٠٧٨)، المستدرك للحاكم (٤٣٦٠) وصححه على شرط مسلم، مسند أبي يعلى (٧٥٧) وذكر محققه الشيخ حسين أسد أن رجاله رجال الصحيح).

وأوردَ السندي في حاشيته على النسائي قول الخطابي في معنى هذا المصطلح: "هو أن يضمرَ في قلبهِ غيرَ ما يُظهرهُ للناس، فإذا كفَّ لسانَهُ وأومأ بعينه إلى ذلك فقد خان، وقد كان ظهورُ تلك الخيانة من قبيل عينه، فسميت خائنة الاعين". اهـ.

ويقول ابن تيمية رحمه الله في مجموع فتاويه (٢٤٩/١٣): "وهذا مبالغة في استواء ظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، وأنه لا يبطن خلاف ما يظهر على عادة المكارين المنافقين".

والخيانة لا تليق في عينٍ أو غيرها، فشأن المسلم الاستقامة، وله أن يستخدم وسائل أخرى لتحقيق ما يريد إذا اضطر إلى ذلك، كالتعريض، والتأجيل، والسكوت إلى حين، والإسناد إلى الغير ...

وقد كان عدم مبايعته صلى الله عليه وسلم ابنَ أبي السرح أولًا إشارةً إلى صحابته رضوان الله عليهم، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك، أعني لم يدركوا مغزى تصرفه عليه الصلاة والسلام.

ويدرك المرء أن الإشارة من طرف العين قد تُنبِئ عن إضمار مكيدة أو غدر وإيقاع.. وهي مخيفة على كل حال، إذا كانت الأجواءُ ملبَّدة، وغيرُ مقبولة عند أهل الحِلم والعلم والأدب..

ويذكر هنا ما يستثنى منه، وهو أن يكونَ الأمرُ مباحًا، أو يومَأُ إلى خير، في أحوالٍ لأهل الإحسان والكرم، فيشير أحدهم إلى خادمه أو محبه لإحضار الأمانة أو الوديعة المتفق بينهم سابقًا.. لإعطائه الضيف أو المحتفَى به..

أو يكون هناك إجراءات صلح في ظروف وأحوال متفاوتة..

وكذلك ما كان منه مزاحًا مقبولًا.

ويقال عمومًا: إن هذه الإشارة مباحة إذا كان الأمر المؤشر إليه مباحًا، وحرامٌ إذا كان المؤشر إليه حرامًا.

وقرأتُ في فقهٍ شيعي أنه يجوز للمصلي النظر بطرف عينه..

والإشارة بطرف العين غير جائز للرسول صلى الله عليه وسلم كما مرّ، ولو كان الأمر حلالًا! وهذا من (خصائصه) عليه الصلاة والسلام.

وقد عدَّه القرطبي أحد الأمور العشرة المحرمة عليه صلى الله عليه وسلم، كما في تفسيره ٥٩٨/٣.

ويقول الشيخ عليش في كتابه "منح الجليل شرح مختصر خليل" ٢٤٩/٣، وهو في الفقه المالكي:

"وخُصَّ بحرمة (خائنة الأعين)، أي: إظهار خلاف ما في ضميره، فشبه بالخيانة في الإخفاء أو الانخداع عما وجب. والأول محرم عليه صلى الله عليه وسلم في غير الحروب. وحديث "**إنا لنبَشُّ في وجوهِ قومٍ وقلوبُنا تلعنهم**"، من قبيل الحرب معنى. و"نبَشُّ" بفتح الموحدة من باب علم. وقد أُبيح له إذا أراد سفر الغزو التوريةُ بغيره حذرًا من إفساد المنافقين، فكان يَسأل عن

حال جهة غير التي أراد غزوها، ليخفي عنهم التي أرادها، حتى لا يتمكنوا من إفساد ما نواه صلى الله عليه وسلم". اهـ.

وملخص الأمر في الحظر والإباحة ما ذكره البهوتي رحمه الله في كشاف القناع، بقوله: "ومُنع صلى الله عليه وسلم من الرمز بالعين والإشارة بها لحديث **"ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين"**. رواه أبو داود وصححه الحاكم على شرط مسلم. وهي الإيماء إلى مباح، من نحو ضرب وقتل، على خلاف ما هو الظاهر. وسمي (خائنة الأعين) لشبهه بالخيانة بإخفائه. ولا يحرم ذلك على غيره إلا في محظور". اهـ.

وتوسع السبكي رحمه الله في فتاويه (١/١١٣)، وفيه ردّ على الزمخشري وغيره، فكان مما قال: فانظر، ابنُ أبي سرح كان قتله حلالًا، ولو أومأ إليه أومأ إلى ما يحلّ لا إلى ما لا يحلّ، ولكن الأنبياء لعلوّ منزلتهم لا يبطنون خلاف ما يظهرون، فكان من خصائصهم تحريمُ ذلك، وهو حلال في حق غيرهم، ولو كانت خائنة الأعين هي النظرة إلى ما لا يحلّ كانت حرامًا في حق كل أحد، ولم تكن من الخصائص، فلما كانت من الخصائص عُلم أن الأمر ليس كما قال الزمخشري، وإنما هي الإيماء إلى ما لا يتفطن له المومأ في حقه. ولعل تسميتها (خائنة) لأن مقتضى المجالسة والمكالمة المصافاةُ ظاهرًا وباطنًا، فاستواء الظاهر والباطن في حق المتجالسين والمتخاطبين أمر يقتضيه أدبُ الصحبة والمجالسة والمخاطبة وكأنه أمانة، ومخالفةُ الأمانة خيانة".

ثم إن النظرَ من طرفِ العين إلى حرام لئلا يراه أحد أمر لا يخفى على المسلم حرمته. يقول ربنا سبحانه محذرًا من ذلك، ومبيّنًا أنه يعلم ما تشير إليه عينه وما يسرُّه في صدره: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [سورة غافر: ١٩].

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله في خواطره التفسيرية: "يعني: اعلموا أن عِلْمَ الله شامل ولا يخفى عليه شيء مهما دقَّ، فإنْ عمَّيتم على خلق الله في الدنيا واختلستم النظرات فيما لا يحل لكم، فاعلموا أنكم لا تخفَون على الله. ولو أيقن المؤمن بشمول علم الله وبنظره إليه ما كانت له خائنة أعين".

ويطولُ الحديثُ في هذا الأخير، والمقصودُ منه أوله.

(د)

رحم الله عمر... كيف قالها؟!

هناك أقوال وآثار خالدة تجد لها مكاناً عميقاً في القلوب والنفوس، ويبقى فيها أثرها ولا تزول، وينشأ عليها الأطفال، ويرددها الشباب، ويصدح بها أهل العلم، ولا يزال يلقيها الخطباء والمعلِّمون على المنابر وفي الدروس على أسماع الناس...

هي كلمات مركَّزة، لكنها تحمل معاني عظيمة... ولذلك يفتخر بها أفراد هذه الأمة. إنها أشبه بأدب الوصايا والحِكم، ولكنها آثار وأقوال وأخبار تروى لتتربى عليها الأجيال، وقواعد تكرَّس لتطبَّق في واقع الأمة...

وما زالت مجتمعاتنا بحاجة إليها، في جوانب العلم والإيمان، والفكر والسياسة، والبيئة والمجتمع.

ومنذ أمد وأنا أرى واقعاً يومياً أعيشه ويعيشه الناس، ويلقون من جرّائه العنت، والأثر السيء والمؤلم، ولكنه لا يتغير، وكأنه صار واقعاً لا بدَّ من التعايش معه!!

وهو ما نراه في شوارعنا وأزقَّتنا، كلها أو كثير منها. وهي هذه الآثار المعدنية والخشبية، والأحجار والحصى، وأشياء مكسورة من الزجاج والمواد المصنَّعة حديثاً من اللكِّ والخزف والجص وما إليها..

وخاصة فيما حول العمائر والبنايات التي تهدم لتبنى من جديد، أو ترمم، أو مشاريع بناء جديدة، وهي كثيرة، ولا تنتهي، وقد تمتدُّ الآثار التي حواليها سنوات، وتتساهل معها البلديات لأسباب.. ولكن الناس يتأذون منها، وتسبِّبُ خسائر مالية للمئات والآلاف من البشر، هذا عدا الجروح والأمراض التي تسببها إذا كانت حادّة أو ملوثة..

وقد لا أبالغُ إذا قلتُ إن أكثر أسباب انفجار عجلات السيارات هي المسامير والآلات الحادة المنتشرة في الشوارع، وليتذكر كل صاحب سيارة كم مرة انفجرت إطارات سيارته، وكم مرة رأى صاحبَ "البنشر" وهو ينزع المسامير منها بالكُلاّب، وإذا جمع عددها فيكون هائلاً، وإذا جمع إليها الخسائر المالية من جرّاءِ ذلك كانت كثيرة، وخاصة أن العجلة إذا أصابها عطب فقد لا تصلح إلا للتجوال في المدينة، وفي السفر تغيَّر لطلب السلامة..

وعلى جوانب ومسافات من الأرصفة ترى قواعد لإشارات المرور وما إليها وقد قطعت، أو وضع عليها صفيحة حديدية لتركَّب عليها إشارة من بعد، وتبقى هذه الآثار سنوات وسنوات، فلا هي تقتلع من أصلها، ولا يركَّب عليها إشارة مرور. والأرصفة هُيِّأت للمشي عليها، والعادة أن تكون سليمة مستوية، فلا ينظر المرء أمامه من هذا المنطلق، ولذلك تجد كثيراً ما يُصطدم بهذه القواعد الحديدية القوية، وقد سببت آلاماً وجروحاً لناس كثيرين.

وقد أحببت أن أتلمس أرصفة ينبغي أن تكون أبعدها عن هذه الآثار، وهي التي تكون حول المستشفيات، حيث المرضى والعجلات والأسرَّة الطبية المتنقلة، فذرعت أمتاراً حول أرصفة أكبر مستشفى بالعاصمة، فرأيت العشرات من قواعد إشارات المرور مغروزة فيها، وهي كذلك منذ سنوات! وفي مكة المكرمة لاحظتُ أنها مسوَّاة بالأرض، وهو ما لا بدَّ منه، لكثرة المسير عليها من قِبلِ ضيوف الرحمن، فجزَى الله القائمين عليها خير الجزاء.

وقد كان من نصيبي مرة أن أصاب في الإصبع الكبرى من رجلي، فكنت في شارع شعبي مكتظ، أبحث عن حاجة للبيت في المحلات، فاصطدمت بأثر معدني كان مثبتًا في وسط الرصيف، وسال من الإصبع دمٌ كثير، حتى كاد أن يمنعني من المشي، حيث كانت الرجل تنزلق على الحذاء لاجتماع الدم عليه، ولم ينفع ما وضعته عليه من مناديل أو أوراق!

لقد ذكَّرني هذا كله بما قاله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أثر حفظته وأنا طفل وما زال يتردد في جنبات نفسي، وهو قوله: "**لو أن دابة عثرت في العراق لسألني الله عنها لِمَ لمْ تسوِّ لها الطريق يا عمر**"؟

نعم، سيُسأل لأنه لم يمهِّد الطريق لهذه الدابة، ولم يقم بحقها، فإن من حقها أن تمشي في طريق سوي، أو شارع خال من الأحجار وما إليها..

إذاً فكيف بالبشر؟ أليست المسؤولية أكبر؟ وأين هم المسؤولون الذين يرون بأم أعينهم هذه المسامير والدبابيس والزجاج وآثار الخزف الحادة وما إليها وهي متناثرة في الشوارع، عدا الأرصفة التي ذكرت ما بها، ألا يشعرون بأنهم مسؤولون أمام الله؟ ولكن أين قلوب المسؤولين من قلب عمر الخاشع المتبتل، الذي ما زال يبكي خوفاً من الحساب، وهو يستشعر عظم المسؤولية الملقاة عليه؟

فكيف لو أنه كان في عصرنا ورأى ما رأى؟

إن مسؤولية نظافة الشوارع والأرصفة مشتركة بين: أصحاب الأعمال من الذين ينفذون المشاريع البنائية وما إليها، وبين الدولة المسؤولة عن نظافتها أولاً، وبين الأفراد، الذين يشاركون في إزالة الأذى عن طريق الناس، لأنهم يعلمون أن "إماطة الأذى" شعبة من شعب الإيمان، كما ورد في الحديث الصحيح. فالمسلم إذا رأى بنفسه هذه الآلات الحادة والمؤذية في الطرق، فإنه يشارك بما يقدر عليه في إبعادها، أو إخبار المسؤولين عنها، حتى يخفف الآلام والخسائر عن أهل دينه ووطنهم. أما الذين يكونون سبباً فيها، مثل أصحاب الأعمال والمشاريع البنائية، فإنهم يأثمون، ويعرِّضون أنفسهم لعقوبة ربانية قبل عقوبة مدنية.

وكان الله في عون الجميع... ورحم الله عُمر... كيف قالها؟

(٢)
إرشاد وتذكير

(أ)
القلوب الطيبة

الذين لهم صحبةٌ مع الشيوخِ الطيبين،
من العلماءِ العاملين،
والعارفين من السالكين طريقَ ربِّ العالمين،
يعرفون كم تكونُ قلوبهم مطمئنةً إذا كانوا بصحبتهم،
وكم يشعرون براحةٍ نفسيةٍ وتوادٍّ ومحبَّةٍ في مجالسهم.
وأعظمُ من هذا ما كان من أمرِ الصحابةِ رضي الله عنهم مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم،
وما كانوا يشعرون به من جلالِ الموقفِ في مجلسهِ الكريم،
واطمئنان قلوبهم إذا دعا لهم واستغفر،
وسعادتهم إذا زارهم في بيوتهم أو مجالسهم،
أو لاطفهم وداعبهم،
وقد قال الله تعالى في كتابهِ العزيز:
{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ} [سورة التوبة: ١٠٣]،
أي: ادعُ لهم واستغفر،
إنَّ دعاءكَ يَبعثُ في نفوسِهم الأمنَ والرحمةَ والطمأنينة.
ولهذا تغيَّرت قلوب الصحابة بعد وفاتهِ صلى الله عليه وسلم،
وحدثتْ حوادثُ بينهم رضوانُ الله عليهم،
وأفصحَ عن هذا الصحابيُّ الجليلُ أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه بقوله:

"لما كانَ اليومُ الذي دخلَ فيهِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ المدينةَ أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كانَ اليومُ الَّذي ماتَ فيهِ أظلمَ منها كلُّ شيءٍ، ولما نفَضنا عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ الأيدي وإنَّا لفي دفنِهِ حتَّى أنْكَرنا قلوبَنا"!

رواه ابن حبان في صحيحه (٦٦٣٤)، وأحمد في المسند (١٣٣٣٦)، والترمذي في السنن (٣٦١٨) وقال: حديث غريب صحيح. وصححه في صحيح سنن الترمذي.

قال في فتح الباري (١٤٩/٨): "يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقة؛ لفقدان ما كان يمدُّهم به من التعليم والتأديب".

ولعله أخذه من قول التوربشتي رحمه الله، الذي قال: "يريد أنهم لم يجدوا قلوبهم على ما كانت عليه من الصفاء والألفة؛ لانقطاع مادة الوحي، وفقدان ما كان يمدُّهم من الرسول صلى الله عليه وسلم من التأييد والتعليم، ولم يرد أنهم لم يجدوها على ما كانت عليه من التصديق". (تحفة الأحوذي ٦٢/١٠).

كما استفاد ابن عبدالبرِّ القرطبي من الحديث "أن أحوال الناس تغيَّرت بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نساءً ورجالًا". (التمهيد ٣٩٤/٢٣).

ما أطيب الطيبين،

وما أطيب قلوبهم،

وما أطيب مجالسهم،

وما أصعب فراقهم!

(ب)
الاستسلام الحق

الاستسلام الحق هو الإذعان لحكم الله ورسوله.

بإيمان تام، ويقين أكيد، ورضا نفس، ودون تردد.

الإيمان بأن حكم الله فوق كل أمر، فلا يعلو عليه شيء، وكذلك ما ثبت من حكم رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

واليقين بأن هذا الأمر وحده هو الحق والعدل، دون كلام أي من الإنس والجن.

والرضا به لأنه هو المترتب على الإيمان الصادق والأكيد، عملاً لا قولاً وحده.

ودون تردُّد في تنفيذه أو التفكر بغيره، فهو الملائم للقلب المؤمن المفعم بحب اتباع أمر الله ورسوله، بل لا يجد فيه مكاناً لغيره، ولا يفرح إلا به، ولا ينفذ غيره بقدر المستطاع.

وهو الملائم لما يفهم من آي الذكر الحكيم: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} [سورة النساء: ٦٥]

أي: لا يجدونَ في أنفسِهم وقلوبِهم شكًّا أو ضِيقاً ممّا حكمتَ به، فانقادوا إلى حكمِكَ وأذعنوا له ظاهراً وباطناً، وسلَّموا بذلك تسليماً كلّيّاً من غيرِ مُمانعةٍ ولا منازعة. وكما جاءَ في الحديث الشريف الذي وثَّقَ رجالَهُ ابنُ حجر في الفتح: "لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يَكونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئتُ به".

وقد أثنى الله على عبده وخليله إبراهيم لأنه استسلم لحكمه دون اعتراض أو تلكؤ، فقال عزَّ من قائل: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة البقرة: ١٣١]

فقد أمرهُ اللهُ بالإخلاصِ والاستسلامِ له، والانقيادِ لأوامرِه، فأجابَ إلى ذلك، وأطاعَ وأخلصَ على أحسنِ ما يَكون، مُفَوِّضاً أمرَهُ كلَّهُ إلى الله.

وعندما عاتب الله نبيَّه نوحًا عليه الصلاة والسلام لأنه قال عن ابنه الكافر إنه من أهله، استجاب لربه واستغفر، واستكان واستسلم ولم يتكبر، وطلب منه المغفرة على هذا التصرف.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة هود: ٤٧].

وقد كانَ الأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم، يسارِعونَ في عملِ الطَّاعاتِ وأنواعِ القرُبات، حبًّا في اللهِ وما عندهُ من الثواب، وخوفًا ورهبةً من نقمتهِ وعذابه، وكانوا مُتضرّعين إلى ربِّهم، مؤمنين مُخبِتين، كما في قوله سبحانه: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [سورة الأنبياء: ٩٠]

فمن استجاب لربه وأسلم لحكمه وحكم رسوله، فهم المفلحون والفائزون، ومن أبى فلهم عاقبة السوء، يقول ربنا سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة النور: ٥١].

أي: إنَّما المؤمنونَ الصَّادقون في إيمانِهم، إذا دُعُوا إلى حُكمِ اللهِ وقضاءِ الرسولِ بينهم، استجابوا لنداءِ الحقِّ وقالوا: سمعنا كلامَ الله وأطعنا حُكمَه. فأولئك هم السُّعداءُ الفائزون.

وهكذا يكون الاستسلام الحق... الذي به يحوز المرء مكانة سامية عند ربِّ العباد، ولا يؤتاها إلى الأنبياء والأولياء وأصحاب القلوب العامرة بالإيمان، الذين يعيشون بالله ولله، ولا يفكرون بغير عزَّة دين الله، ولهذا كان من تعليم رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أمته أن يدعوا بدعوات تلائم هذا الإيمان الكامل، والاستسلام الحق.

من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في أحد أدعية النوم، قبل أن يغمض المرء عينيه وينام، كما في الصحيحين وغيرهما: "اللهم أسلمتُ نفسي إليك، وفوضتُ أمري إليك، ووجهتُ وجهي إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك...".

ومن أدعية الاستفتاح التي كان يقولها عليه الصلاة والسلام في تهجده: "... اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت...". أخرجه الشيخان وغيرهما.

ومن أدعية السجود: "اللهم لك سجدت، وبكَ آمنت، ولك أسلمت". رواه مسلم وغيره. وغير ذلك مما يناسبه.

(ج)
ضوابط الحق عند من؟

أين من يبحث عن الحق في هذا العالم المتلاطم بالأفكار والنظريات المتباينة والنظم ووجهات النظر المختلفة، وكيف يعرف المرء أنه أصاب الحق، فما الموازين التي سار عليها، وما هي الضوابط والقواعد التي يُعرَف أنها تؤدي إلى الحق؟

من المؤكد أن الباحث عن ذلك سيصطدم بعقبات لا يعرف كيفية فكها أو التغلب عليها، لأنه لا ميزان بشريٌّ متفق عليه بين المفكرين والعلماء يرسم لهم منهجًا يؤدي إلى لحق، في المشكلات والمسائل والأمور الاجتماعية والإنسانية عامة، ولذلك تختلف كثير من القوانين والأنظمة واللوائح بين بلد وآخر في الأمور نفسها، فكل يقنِّن ما يظن أنه الحق، أو ما يغلب على ظنه في ذلك، وهو لا يعرف أسرار كل الأمور والموضوعات، أو ما يليها وما يحيط بها، فيتجاوز شيئًا، ويتأول أشياء، ويقول: هذا هو الحل.. وهذا هو الحق. وبعد تجارب وتعقيبات تعدَّل أو تغيَّر أو تلغى.. وهكذا.

لكن الحلَّ في كتاب الله تعالى {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [سورة الأنعام: ٣٨]، الميزان العدل الذي لا باطل فيه {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت: ٤٢]، {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} [سورة النساء: ٨٢]، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في الحديث الحسن أو الصحيح: "**تركتُ فيكم أمرين، لن تضلُّوا ما تمسَّكتُمْ بهما: كتابَ اللَّهِ وسنةَ رسوله**"، ثم في إجماع العلماء المسلمين، والقياس على ما هو مثله أو شبيه به.

ولا يُبتغى بهذا مصلحة خاصة، ولا قانون دولة ومقصود جماعة، فلا أهواء ولا مصادر بشرية تقف عائقًا أمام النظر في الحق..

فالطرق التي تؤدي إلى الحق وضوابطه موجودة كاملة في الإسلام، دين الله الحق، فهو الميزان الذي يُستخلص منه الحكم الحقُّ في كلِّ ظرف، ولكلِّ مسألة ومشكلة. فلا خوف على

الوسائل والضوابط التي يوصل بها إلى الحق، فالقرآن موجود، والسنة موجودة، وموازينهما مفتوحة لكل أحد.

وهذه الأمة شاهدة على جميع الأمم، لأنها أمة التوحيد، وقد اختارها الله لأجل ذلك، ونسخ ما سبق من شرائع وأديان؛ فعندها يكون الحق.

يقول الحقُّ سبحانه: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ...} [سورة آل عمران: ١١٠].

فخيرية هذه الأمة مرتبطة بالأمر بالحق، والنهي عن الباطل..

ويقول سبحانه: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [سورة الحج: ٧٨].

هو اجتباكم.. فقد اختاركم لدينه من بين سائرِ الأمَم، وشرَّفكم بأكملِ شرع، وخصَّكم بأفضلِ رسول، وما جعلَ عليكم في الدِّينِ من ضِيقٍ ومشَقَّة، فلم يُكلِّفْكم بما لا تُطيقون، وإذا شقَّ عليكم أمرٌ منه في ظروفٍ تَطرأُ عليكم، فقد جعلَ لكم في ذلك فرَجًا ومَخرَجًا، ووسَّعَ عليكم كما وسَّعَ مِلَّةَ أبيكم إبراهيم..

ويقول أيضًا جلَّت حكمته: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [سورة البقرة: ١٤٣].

وكذلكَ جعلناكمْ – يا أمَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم- خيارَ الأُمم، لتَكونوا شهداءَ عليهم يومَ القيامة، بأنَّ الله أرسلَ الرسلَ إليهم فبلَّغوا ونصَحوا، ولأنَّ دينَكم هو الحقُّ من بينِ أديانِ الأممِ ومذاهبِها؛ فقد وجَّهكمُ اللهُ إلى قِبلةِ إبراهيمَ أبي الأنبياء، وخصَّكم بأكملِ الشرائع، وأقومِ المناهج، وأوضحِ المذاهب. ثمَّ يكونُ الرسولُ صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم يومَ القيامة، بأنه بلَّغكم رسالةَ ربِّه.

(د)
أمل الحياة.. أم أمل الخير فيها؟

يقولُ علماءُ النفسِ والاجتماعِ وغيرهم من الحكماءِ والفلاسفة الذين قرأتُ لهم:

إن الأملَ هو الذي يبعثُ الإنسان على حبِّ البقاءِ في الدنيا،

ويعنون الأملَ في الحياة،

وتبعَهم في ذلك مَن تبعَهم من الكتّابِ والمفكرين المسلمين.

والحقُّ أن نظرَ المسلمِ إلى ذلك هو تفويضُ الأمرِ إلى الله،

وليس الأملَ وحدَهُ كما وصفوه،

فهو يدعو بالدعاءِ الذي ندبَهُ إليه رسولُ الله عليه الصلاةُ والسلامُ بقوله،

كما في الصحيحينِ وغيرهما:

"اللهمَّ أحيِني ما كانتِ الحياةُ خيرًا لي،

وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيرًا لي".

ويدلُّ عليه حديثٌ يصبُّ في معناه،

وهو عند مسلمٍ وغيره:

"واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خير،

والموتَ راحةً لي من كلِّ شرّ".

فالذي يحدِّدُ نظرةَ المؤمنِ إلى الحياةِ هو **أملُ إصابةِ الخير**،

أما إذا لم يكنْ هناك خيرٌ فلا حبَّ في الحياة،

بل أملُ الموتِ عند ذلك هو الأحبُّ إلى المسلم،

لأنه راحةٌ من الشرِّ وأهله.

والذي يعرفُ مستقبلَهُ أهو في الخيرِ أم في الشرّ،

هو الله وحده،

ولذلك فوَّضَ أمرَهُ إليه.

وقد ذكرَ الإمامُ النوويُّ في شرحهِ على صحيحِ مسلم (٧/١٧)،

أنه لا كراهةَ في تمني الموتِ إذا خافَ المسلمُ ضررًا أو فتنةً في دينه. اهـ.

أما خيريةُ البقاءِ فهو في العملِ الصالح،

كما حدَّدَهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم،

في الحديثِ الذي صححهُ الترمذي،

الذي جاءَ فيه:

"أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، أيُّ الناسِ خيرٌ؟

قال: من طالَ عمُرهُ وحسُنَ عملُه".

وهذا كلُّهُ بالنسبةِ للمسلم،

أما الكافرُ فصحيحٌ ما قيلَ فيه من أملهِ في الحياةِ الدنيا،

وهو كما قالَ الله تعالَى في كتابهِ العزيز:

{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحِجر: ٣].

أي: "يشغلهم أملُهم في الدنيا والتزيدُ منها".. كما أفادهُ ابن عطية في تفسيره (المحرر الوجيز) ص ١٠٦٤.

وهذا مدخلُ مقالٍ يطولُ شرحه.

(هـ)

بين العادة والتدبر

الألفةُ والعادةُ تجعلُ من الأمورِ العجيبةِ شيئًا عاديًّا،
فما رأيتَهُ اليومَ لأولِ مرةٍ وعجبتَ منه،
إذا استمرتْ رؤيتُكَ له أيامًا،
صارَ مألوفًا عندكَ ولم تنظرْ فيه إلا لحاجة،
وهذا خَلقُ الله حولكَ وفي نفسِكَ أيها الإنسان،
أوجدَهُ الله سبحانهُ من العدم،
وأبدعَهُ على غيرِ مثالٍ سابق،
ولا طاقةَ للبشرِ أن يأتوا بمثله،
ولو اجتمعوا عليه،
ولكن الإنسانَ ينسَى هذا الإبداعَ والخلقَ العظيم؛
لِمَا أَلِفَهُ وصارَ عندهُ عادة.
وحتى لا يكونَ المسلمُ على مثلِ هذا الطرازِ من الناس،
فقد أمرَهُ الله سبحانه أن يتفكرَ في نفسهِ وفيما حولَهُ من آيات،
وفي خلقِ السماواتِ والأرضِ خاصة،
فهما أكبرُ من خلقِ الإنسان،
ليعرفَ عظمةَ الخالقِ العظيم،
وأنه المدبِّرُ والمصرِّفُ لما في الكون،
وليعلَمَ أنه الإلهُ الحق،
والربُّ المعبودُ بحق.
اقرأ هذه الآياتِ الكريمةَ من سورةِ الجاثية،
لتعلمَ كم حثَّ القرآنُ الكريمُ على تنبيهِ الناسِ وحثِّهم على التفكرِ حتى لا ينسَوا ربَّهم،
خالقَهم وخالقَ الكون:

{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} (٣)

{وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (٤)

{وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (٥)

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} (٦)

{وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} (٧)

{يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (٨)

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} (٩)

{مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (١٠)

{هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} (١١)

{اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (١٢)

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (١٣).

(و)
طريقان.. ومنفذان

الذي يشعر بفراغ روحي، وهو غافل، يبحث عمّا يملأ هذا الفراغ، فلا بدَّ أن يفعل شيئًا، فيردد أغاني تعلمها ويهتزُّ لها قليلاً، ثم يتلهَّى بمأكولات وأشربة، ويتصل بالأصدقاء فيهرّج ويضحك عاليًا.. وقد يخرج إلى نواد قريبة.. لينسى هذه الروح التي تناديه، وليقتل أيَّ صوت يصعد من داخله يريد جدًّا، وبحثًا عن الحق.. وعملاً مفيدًا.

وآخر يذكر الله خاشعًا موحِّدًا، معترفًا بالإله القادر، الذي يهدي ويسدِّد ويوفِّق للأمر الحسن، ويطَمئن القلوبَ ويثبتها على الحق، فيتفكر بهدوء، ويطلب الهداية والسداد منه سبحانه لأحسن الأعمال، وأحسن الأفعال، وأحسن الأقوال... فتتفاعل الروح مع النفس الطيبة، فينشط المرء للخير والعمل الصالح، في جوّ مليء بالقلق والتشكيك وارتفاع صوت الباطل والمنكر..

فهذا الذي يحصِّن نفسه من الشرور والأكدار ليكون نظيف النفس، قائمًا بالحق، ينتظر منه أن يكون عنصرًا فاعلاً ومفيدًا في مجتمعه، يبني الوطن بإخلاص، وعلى بصيرة من الأمر، لا يبغي غشًّا ومكرًا وأذى.

والآخر الذي ابتغى الدنيا لهوًا ولعبًا، ومصلحة وأنانية، ولذَّة وهوى، ينتظر منه المزيد من العبث والفساد ونتائجه السيئة.

وإنهما لطريقان: طريق الحق، وطريق الباطل.

وإنهما لمنفذان: إلى خير، وإلى شرّ.

وإن مآلهما: إلى ما يسرّ، وإلى ما يحزن.

فعاقبة اختيارهما تعود عليهما.

يقول ربُّنا جلَّ جلاله: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [سورة يونس: ١٠٨].

قُلْ يا نبيَّ الله: أيُّها الناس، لقد جاءكمُ الحقُّ مِن ربِّكم، وهو القرآنُ العظيم، ودينُ اللهِ القويم، فمنِ اختارَ الهداية، والإيمانَ والطَّاعة، فإنَّ مَنفعةَ هدايتِهِ تعودُ على نفسِه، ومنِ اختارَ الضَّلالَ والكفرَ والعصيان، فوبالُ اختياره يعودُ على نفسه كذلك.

(ز)
بين حياة وحياة

الفرقُ بين المؤمن والكافر كالمفاضلة بين الدنيا والآخرة!

فالأصلُ عند الكافر (الدنيا)، والأصلُ عند المؤمن (الآخرة).

ويشير إلى هذا قوله سبحانه وتعالى: {فَأَمَّا مَن طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات: ٣٧ – ٣٩].

أي: فأمَّا من تجاوزَ الحدّ، فكفرَ وعصَى، وتجبَّرَ وعتا، واختارَ الحياةَ الدُّنيا ولذائذَها وشهواتِها وقدَّمها على دينِ الله، ولم يستعدَّ للدَّارِ الآخرة، فإنَّ مصيرَهُ جهنَّم، يُعذَّبُ فيها ولا يموت.

ويقو ربُّنا سبحانه وتعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة الأعلى: ١٦ – ١٧].

والكافرُ يُعرِضُ عن الآخرة كفرًا بها، والمسلمُ إذا فعلَ فلإيثارِ معصيةٍ وغلَبة نفس، وقبل ذلك لضَعفٍ في الإيمان.

فالمؤمن الحقُّ لا يفضِّل الدنيا على الآخرة، لأنه إن فضَّلها كان من أهلها، والآخرة عند المؤمن هي الأصل ومحلُّ الإيثار، لأنها خيرٌ وأبقى، فهي الدائمة التي لا تنقطع، والدنيا مرحلة مؤقتة للامتحان، تنقطع بعد أداء الامتحان والاختبار، والجزاءُ والبقاءُ في الآخرة.

والغاية عند المؤمن هي إرضاء الربِّ سبحانه، ولا يتحقَّق هذا إلا بطلب الآخرة ونبذ الدنيا من قلبه.

والمؤمن لا يهمل الدنيا إهمالاً كلياً، بل لا يقدر على ذلك: لأنه كائنٌ فيها، وعائشٌ منها، فلابدَّ أن يأكل ويشرب، ولابدَّ أن يعمل ليأكل ويعيش. وفي كتاب ربّنا سبحانه: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [سورة القصص: ٧٧].

أي: ...ولا تتركْ حظَّكَ من الدُّنيا، ممَّا أحلَّ اللهُ لكَ منها من المأكلِ والمشربِ والملبَس، والمسكنِ والمنكح..

والفرق بين المؤمن والكافر فيها أن المؤمن يلتزم أحكاماً شرعية للعيش فيها، فلا يأكل حراماً، ولا يظلم فيها أحداً، ولا يعتدي على حقوق الآخرين ولا يأكل حقوقهم، وإن قدر على ذلك، وإن غابت عنه سلطة الحاكم.

ويكون معنى القسم الأول من الآية الكريمة: واطلبْ بهذه الأموالِ التي أعطاكها اللهُ طاعتَهُ وشكرَهُ والإنفاقَ منها فيما يُرضيه، ليَجلُبَ لكَ ذلك الرِّضَى والثوابَ في الدارِ الآخرة.

والكافرُ يتخذ الدنيا غاية في ذاتها، فلا حياة عنده إلا هذه الحياة، فلا يرى غيرها، ولا يتحول عنها، فيتخذها وسيلة وغاية! ويجمع لها قلبه وعقله وجميع قدراته، ولا يفكر بجزاء أو حساب أخروي.

والمؤمن حياته متعلقة بالله، ويعلم أن دقّات قلبه معدودة، وأنها بيد الله، يوقفها متى ما أراد، فيزداد من الخيرات قبل أن يموت، ويتقرَّب من ربِّ العباد ليوفِّقه ويسدِّده ويهديه، ليكون عوناً له في تحقيق ما يصبو إليه من حياة كريمة في الآخرة.

ولا يتصور المؤمن حياةً بدون الإيمان والإسلام، ويعلمُ أنه سيُعاقب إذا لم يلتزم بفرائض الله، في الآخرة، وربما في الدنيا أيضاً.

ويكون دائم التفكير بهذا والذكرِ لله ربِّ العالمين، يظنُّ أنه سيُبتلى أو يُصاب حتى إذا فاتته أدعية الصباح والمساء وأذكارهما، ومنها آية الكرسي والمعوِّذات، فإن هذا جزء من حياته.

والكافر لا شأن له بهذا كله، بل كلُّ تفكيره ينصبُّ على "الحياة" في الدنيا ومشاريعه للتشبث بها والبقاء فيها، وجمع المال، والسعي للشهرة، والتلذذ بالنساء والمطاعم والمشارب...

وكلٌّ يعمل على شاكلته..

والموعد الجنة أو النار.

(ح)
الدولة .. والعلماء .. والكولا .. وما إليها

هناك خمسة أضلاع رئيسية تؤثر في سلوك الفرد، ومن ثم فهي المسؤولة الرئيسية عنه، وهي: نفسه، والداه، أصدقاؤه، العلماء، الدولة، بمؤسساتها التعليمية والتثقيفية.

وتتسع دائرة المسؤولية من ضلع إلى آخر حسب الأمور الجارية، ومدى قربها من المذكورين، وكثيراً ما تشترك جميعها في هذه المسؤولية.

فالخمر حرام، وهذا ما يجب أن ينتهي عنه الفرد بمجرَّد ما ذُكر، وعلى العلماء أن يبينوا حكمها، وما يترتب على شاربها من عقوبة دنيوية وأخروية، وعلى الدولة أن تمنعها حتى لا تصل إلى يد أحد، وعلى الوالدين أن يتابعا تربية الأولاد ولا يمكِّناهم من تعاطي ما يضرهم ويحرم عليهم، وعلى الأصدقاء – من باب التعاون والنصيحة الواجبة على المسلم تجاه أخيه المسلم– أن ينبهوا أخاهم إذا وقع في إثم، وينقذوه بقدر ما يستطيعون.

وقد شغلني، كما شغل المربّين من غيري، أمرٌ يشتركُ في مسؤوليته اثنان من الفئات السابقة من المسؤولين، هما: الدولة، والعلماء، وبناء على جهودهما يتصرَّف المسؤولون الباقون.

وهو هذه المشروبات الغازية، وسكاكر الأطفال، المنتشرة في جميع البقالات، لا تكاد تجد أسرة لا تتعاطاها، وهي لا تقدر أن تمنع الأولاد منها، وكثير من الكبار لا يستغنون عن تلك المشروبات، وخاصة في الدول التي ترتفع فيها درجة الحرارة... مع أن وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة تطالعنا بين كل آونة وأخرى بمضراتها، في بحوث وتجارب علمية وعملية، بعضها من جامعاتنا، سواء ما وجد فيها من نسبة معينة من الكحول، أو ما ذُكر فيها من مواد أخرى مضرَّة، ومع ذلك فالإقبال عليها لا ينقطع!

إن الذي يقرأ عن مضارِّ هذه المشروبات –إذا صدقت– يكاد أن يسلِّم أنها أكثر مضرَّة من الدخان، الذي حرَّمه معظم العلماء، والسبب لا لأنه مُسكِر، فإن الدخان ليس مُسكراً، بل لأنه مضر ومضعف للجسم. وإن الكتب والرسائل والنشرات التي كتبت في حكم الدخان وذكر مضاره تبلغ آلاف الصفحات، أما عن الحكم الشرعي للكولا وأمثاله، فلا يكاد يوجد،

ولا أدري لماذا؟ فالعلماء ولأطباء والمختبرات والأجهزة كلها موجودة، وبالإمكان إصدار حكم شرعي بشأنه بعد التأكد من النتائج فقط، وهو ما لا يأخذ وقتاً طويلاً.

ولعل الذي يبطِّئ البحث في ذلك هو عدم الشعور بمرض مفاجئ بعد تناول هذه المشروبات، التي يتناولها الأطباء، والعلماء، ورجال الدولة، بل يشعرون بانتعاش إثرها. وقد ذكرَ لي أحدهم أنه سأل الشيخ عبدالعزيز بن باز – مفتي السعودية– عن البيبسي، وما ذكر عن مكوِّناته وآثاره، فقال له: اسكت، كلنا نشربه! والذي سأله هذا وقاله لي هو آخر رئيس لتحرير صحيفة "المسلمون" رحمها الله!

ولو أني أوردت نتائج المختبرات والبحوث العلمية وأنواع الأمراض التي يسببها الكولا لطال الأمر وترك القارئ قراءة المقال، فلا صبر عنده لسماع ذلك ولا قراءته، ويكفي أنه يرى الناس جميعاً يشربون، وهو مثلهم، وليصبه ما أصابهم!

هذا هو منطق القارئ العادي، لأنه يظن أن الأمر إذا كان حقاً وخطيراً إلى هذه الدرجة فستمنعه الدولة، وسيبين حكمه العلماء، فإذا لم يوجد هذان الأمران، فلا حرج عليه فيما يأكل وفيما يشرب!

والحقُّ أن الدول الغربية إذا منعته في أسواقها لمضارِّها، فسنمنعه نحن أيضاً في أسواقنا! وبعد ذلك سيكثر الكلام، وستُملأ الصفحات، وستكثر الندوات والمؤتمرات في مؤسسات الدولة، وسيجتمع الأطباء، وسيحكم العلماء! أما أن ننطلق من مسؤولياتنا التي أوجبها الله علينا في ديننا، ونعلم أن الفرد والمجتمع المسلم أمانة في أعناقنا، وأن نبادر إلى بيان الأحكام قبل تفشِّي آثارها، فيبدو أنه غير وارد في وقت ضعفنا وإهمالنا. فالأمر كله يتعلق بضعفنا وتواكلنا ولامبالاتنا، أما التقليد وانتظار ما يقوله الغرب، فنحن جاهزون للُّهاثِ وراءه، وإن لم نلحقه.

ويجب ألا يخلو هذا المقال من بيان شيء من مضار ما نحن بشأنه، ليتسم بشيء من العلمية والتذكير معاً، عسى أن يجذب ذلك رحمة الدولة بمواطنيها، فهي المسؤولة الأولى عن ذلك، ثم العلماء الذين عليهم وجوب بيان الحكم.

فقد نشرت وكالة الأنباء السعودية في موقعها في شهر ربيع الآخر (١٤٢٩هـ) أن الأبحاث العلمية والطبية أكدت أن شرب البيبسي والكولا يؤدي للإصابة بالسرطان، لأن

العنصر الأساسي فيهما مأخوذ من أمعاء الخنزير، الذي يأكل القاذورات والروث والبراز، الأمر الذي يجعل لحمه ملوَّثاً بالجراثيم والميكروبات المميتة والقاتلة، وقد أصدر رئيس جامعة نيودلهي للعلوم والتكنولوجيا بحثاً علمياً أثبت بموجبه أن العنصر الرئيسي للبيبسي والكولا مأخوذة من أمعاء ودم الخنزير، وأن مادة البيبسي تسبب السرطان للمعدة والقولون والبروستات والمرارة والبنكرياس والفم والبلعوم والمثانة، وهذا هو التفسير العلمي لارتفاع أعداد الوفيات بأمراض السرطان في العالم... الخ اهـ.

أما المواد الحافظة المضافة إلى المواد الغذائية، وخاصة الحلويات والشيكولاته وسكاكر الأطفال عامة، المصبوغة باللونين الأحمر القاشع، والأصفر الفاقع، بقصد جذبهم إليها، فقد ثبت أيضاً أنها تسبب السرطان وغيره من الأمراض المخيفة، ولذلك فإن المؤسسات العلمية في الدول الغربية تكثف من الأبحاث العلمية وتصدر توصيات بعدم استخدامها، بعد أن ثبت لديها أنها بمثابة سموم يتعاطاها الجسم يومياً. وهذه المأكولات موجودة وتباع في كل مكان بدون أي امتناع من الرقيب، ولا تحذير مصحوب بالمنع من هيئة المواصفات والمقاييس.

وهذه المواد متنوعة ومتشعبة في أصناف ما يحتاج إليه ويستعمله المستهلك، مثل العصائر، البودرة وغيرها، والحلاوة الطحينية (تحتوي على حمض الستريك)، والعلكة (وما أدراك ما العلكة)، والبسكويت، والآيس كريم، ورقائق البطاطس... كل هذه المستوردة من الدول الأجنبية فيها السموم والمواد التي تسبب السرطان، وقد تأكد لدى باحثين مسلمين في الغرب، أن هناك شركات أغذية غربية تضيف مواد إلى أغذيتها المصدَّرة إلى الدول العربية والإسلامية فقط، دون الدول الأوربية وغيرها، ليس إمعاناً في الإضرار بها وبشعوبها فقط، بل إظهاراً للعداوة والتهكم بها، وكأن لسان حالها يقول: نبيعهم السموم ونأخذ منهم الفلوس!

وأشير إلى أن هناك بدائل وطنية وإسلامية لهذه البضائع لا تحتوي على المواد الخطرة المذكورة، ولكن الإقبال عليها ضعيف، لأسباب دعائية وغيرها.

وقد حذرت "جمعية الشراكة بين الأطباء والمرضى" البريطانية في تقرير لها صدر أوائل عام ٢٠٠٤م، بعد تجارب أجرتها على مئات الأطفال، حذرت فيه من تناول الأطفال لأمثال

تلك المأكولات، لأنها أحد أهم أسباب ارتفاع معدلات الإصابة بأمراض السرطان والقلب والشرايين.

وعلى الجميع ألا يغترُّوا بما يُكتب على المعلبات من أنها غنية بمادة الكالسيوم أو فيتامين سي أو غير ذلك.

ومن الأضرار التي ذُكرت للمشروبات الغازية، أن العبوة الواحدة منها تحتوي على نحو (١٠) ملاعق سكر، تدمر الفيتامين (ب) الذي يؤدي نقصه إلى سوء الهضم والاضطرابات العصبية والأرق...

وأن هذه المشروبات تحتوي على غاز ثاني أكسيد الكربون، الذي يضعف الأنزيمات الهاضمة التي تفرزها المعدة.

وأنها تحتوي على مادة الكافيين التي تزيد من معدل ضربات القلب وارتفاع ضغط الدم والسكر وغير ذلك.

كما تؤدي إلى ضعف وهشاشة العظام لوجود أحماض فوسفورية فيها.

وفيها من المواد ما يؤثر على المخ والذاكرة والكبد...

والمعلومات والتحذيرات كثيرة، ولكن كأننا مخدَّرون، أو أموات لا يشعرون!

اقرأ -عزيزي القارئ- هذا الخبر الذي نشر أخيراً، وهو مما عُلِم، فكيف بهذا وبغيره مما عُلم وما لم يُعلم!

"كشفت مصادر أمريكية أن شركات منتجة لمواد التجميل ومنتجات الأطفال قد شحنت كميات كبيرة منها إلى دول الخليج، وأُعلِن فيما بعد أن جميعها تحوي موادَّ "مسرطنة"؛ مثل مادة الـ"دايوكسان ١,٤" شديدة الخطورة.

واعترفت منظمات أهلية أمريكية أن قائمة طويلة من مواد التجميل ومنتجات الأطفال التي يتمُّ تصديرها إلى أسواق الخليج وبعض الدول العربية الأخرى، تتضمن موادَّ مسرطنة محظورة، ومن بينها منتجات تحمل علامات تجارية عالمية تلقى إقبالاً كبيراً في الدول الخليجية. وقالت المصادر: إن المستحضرات ومنتجات الشامبو ومواد التجميل التي يتم تصديرها إلى الخليج ومصر والأردن ودول أخرى (لم تسمِّها) تحتوي على مادة الـ"دايوكسان ١,٤" المسرطن.

وأكّدت المنظمات المشتركة في الحملة المعنية بالحفاظ على صحة مستهلكي مواد التجميل أن "دايوكسان ١,٤" منتج مشتق من البترول تعتبره وكالة حماية البيئة الأمريكية مسرطناً محتملاً للإنسان ومسبباً للسرطان ثابتاً للحيوان، وفق برنامج المواد السامة القومي.

وأشارت إلى أنه على عكس الاعتقاد السائد، فإن "هيئة الأغذية والأدوية الأمريكية" الحكومية لا تراجع تلك المنتجات أو تقوم بتحليلها قبل أن تُباع، وإنما تطلب فقط أن تقوم الشركات المنتجة بذلك بنفسها.

وأثبتت التحاليل المعملية المستقلة عن وجود مادة "دايوكسان ١,٤" في شامبو الاستحمام "هالو كيتي"، وفي منتج "هاجيز" لغسيل جسم الأطفال، وفي شامبو "جونسون" للأطفال، وفي شامبوهات تُباع تحت أسماء تجارية جذابة؛ مثل شامبو "سيسمي ستريت" وشامبو "سكوبي دو" أو شامبو "تيجر" بغرض جذب الأطفال إليها". (المجتمع ع ١٧٩٥ (٢٠٠٨/٤/٥ م).

ونختم المقال بصيحة أخيرة حول ما سُمِّي بشراب القوَّة أو الطاقة، الذي يُقبل عليه الشباب خاصة، ليُعلم إلى أي درجة نعيش مأساة ما نأكل وما نشرب، وندمر حياة أولادنا بأنفسنا، بلا مبالاة المسؤولين لذلك، وسكوت العلماء الغريب عنه!!

تحت عنوان "مشروبات الطاقة تدمر الطاقة" نشرت صحيفة الأهرام في عددها (٤٤٢٨٢) وتاريخ ١٤٢٩/٢/٢٥ هـ، التحذير التالي:

يُقبل عليها الشباب في مصر والعالم باعتبارها الحل السحري للقوة والطاقة، والحقيقة أن هذه المشروبات المعروفة باسم "مشروبات الطاقة" تدمر الطاقة!

الدكتور مدحت الشافعي أستاذ أمراض الباطنة والمناعة بجامعة عين شمس يؤكد أن هذه المشروبات تؤدي للأرق وخمول الجسم، وهي لا تزيد الطاقة الحرارية، بل الطاقة المنبهة من الكافيين، وتزيد وزن الجسم بدرجة عالية لاحتوائها على ماء الكربونات والسكر والجلوكوز، ونتيجة سرعة الامتصاص.

كما أنها تحوي ملونات ومكسِّبات طعم، وتُحدثُ إدراراً للبول بشدة، قد ينتج عنه جفاف بالجسم، خاصة لدى كبار السن، ولا يحس الشخص بالعطش في الوقت نفسه حتى يفقد خمسة ليترات من السوائل.

كما أن تلك المشروبات غير خاضعة للرقابة، رغم أنها خطيرة على مريض السكر في أي سن، ومرضى الدم المرتفع والحساسية. اهـ.

وأذكر أخيراً أن الفرد والمجتمع أمانة في يد الدولة أولاً، فهي التي تملك الخبراء والوسائل والمختبرات الكفيلة بالوقوف على حقيقة الأمر، والعلماء كذلك، الذين بإمكانهم طلب معرفة حقيقة الأمر من الدولة، ليصدروا الأحكام الشرعية المبنية على أسس صحيحة ومعلومات يقينية. والفرد والمجتمع تبع لما يقررون.

وإذا كان كلُّ ما يُسمع ويُقال دعايات شركات متنافسة، ولم يثبت عند العلماء منها شيء، فلماذا لا يصدر بيان شاف، مفصَّل فيما ذكر، يزيل القلق من النفوس؟ ولماذا تنشر الوكالة هذا الخبر؟ إن التأثير السلبي للكولا وغيرها موجود بالتأكيد، وقد قام أفراد عاديون بتجارب عليها فدهشوا من تأثيرها على مواد غذائية.

والله في عون الجميع.

(ط)

مسألة عظمى

هكذا سماها الإمام القرطبي في تفسيره (مسألة عظمى) وحُقَّ له ذلك!

وملخصها أن الرضا بالمعصية مشاركة فيها.

وجاء هذا عند تفسير قوله تعالى: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [سورة آل عمران: ١٨١].

فإن اليهود في عهده عليه الصلاة والسلام لم يقتلوا الأنبياء، ولكنهم لما رضوا بذلك كانوا كمن قتلوهم. وهذا بنصّ القرآن الكريم.

وأورد هو وغيره من المفسرين هذه الحادثة: حسَّنَ رجلٌ عند الشعبيّ قتْلَ عثمان رضي الله عنه، فقال له الشعبي: "شَرَكتَ في دمه". فجعل الرضا بالقتل قتلًا. ا.هـ.

ثم قال الإمام القرطبي: هذه مسألة عُظمَى، حيث يكون الرضا بالمعصية معصيةً. وقد روى أبو داود عن العُرْس بن عميرة الكندي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **إذا عُمَلتِ الخطيئةُ في الأرض، كان مَن شهِدَها فكرِهَها** – وقال مرة: فأنكرَها – **كمن غابَ عنها، ومن غابَ عنها فَرِضِيَها كان كمن شهِدَها**" وهذا نص. [سنن أبي داود (٤٣٤٥) وحسَّنه في صحيح سننه].

أوردتُ هذا مذكِّرًا؛ للحروب الدائرة في عصرنا، وكيف أن الناس في مجالسهم وإعلامهم يبدون آراءهم ومواقفهم فيها، وفي التناحر بين المسلمين، أو بينهم وبين الكافرين، أو بينهم وبين الظالمين والطغاة والمتجبرين، أو بينهم وبين فرق ضالة، وكيف أنهم يؤيدون أو يعارضون بدون خشية ولا خوف، وكأنهم لا يعلمون أنهم مسؤولون عن أحاديثهم ومواقفهم. فليعلمْ كلٌّ أن تأييده لأي موقف أو حرب يعني مشاركته فيه، ويعني مسؤوليته عنه، كما هو النص في الآية والحديث.

وحتى أقرِّبَ الأمرَ للمسلمِ أكثر ليشعرَ به ويتمثَّله، أقول: إن تأييدكَ لفريق ظالم أو كافرٍ يقتلُ المسلمين ويعذبهم، يعني نصرتك له ورضاك به، ومن ثم هو كمشاركتك فيه وقتالك معه. هذا هو خطورة الرأي والمشاركة في الإعلان عنه.

ورحم الله من خشيَ ربَّه فسكت، واتقَى اللهَ في الدماء خاصة، وخاف من عقوبته، فما تكلم إلا بعد تدبر وتمحيص.

(ي)

كيف تقلُّ الذنوب؟

تقلُّ ذنوبُ العبادِ إذا هم صلوا، وخشعوا في صلاتهم:

١- فالله سبحانه وتعالى يقول: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون: ١-٢].

٢- ولأن الصلاةَ تنهَى عن الفحشاءِ والمنكر، كما وردَ في القرآن الكريم {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [سورة العنكبوت: ٤٥]، فيبتعدُ بها عن الذنوب، ويكونُ اقترافهُ لها قليلاً.

٣- ولأنها تكفِّرُ الذنوبَ والخطايا، يعني حتى لو أخطأ وأذنب، فإن الله يغفرُ له.

يقولُ ربُّنا سبحانهُ وتعالَى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [سورة هود: ١١٤].

وورَدَ في الحديث الشريف: "الصلواتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان، مكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر". (صحيح الجامع الصغير ٣٨٧٥).

ومن لم تُنههِ صلاتهُ عن اقترافِ الذنوب؛ فلأنه لا يصلي كما ينبغي، فقد يؤدِّيها ركعاتٍ خفيفةً سريعةً ليتفرَّغَ لشواغلهِ الدنيويةِ التي لا تنتهي، ولا يكونُ قد فهمَ من صلاتهِ شيئًا، بل يكونُ فيها قطعةً من تلك الشواغل، ولم تتحقَّقْ مشروعيةُ الصلاةِ في نفسهِ بذلك.

(ك)

إلى أين يذهبون به؟

تصلي على جثَّة ممدودة أمامك.

تدعو له، وتسلِّم.

ثم تشعر بحركة غريبة تنتاب أهله ومشيِّعيه، فهم يُهرَعون إلى هذا الجسد الميت ليحملوه بسرعة غريبة، وتدافعٍ وتكاثف..

وهو لا حراك به.. لا رأي له ولا موقف، لا يقول لا ولا نعم، إن حملوه أو لم يحملوه، إن دعَوه أو رمَوه.

لقد انتهى دوره في هذه الحياة.

كان قبل ساعات شيئاً يتحرك، ينظر، يسمع، يتكلم. والآن لا شيء. جثة هامدة، قطعة جسد جامدة، لا تعمل أعضاؤها ولا حواسُّها. انتهت.

وتدعو لهذا المسكين، الذي انتهت ألفاظه وكلماته، لم يعد قادراً على قول لا إله إلا الله، ولا أن يسبِّح الله أو يحمده، ولسان حاله يقول: قد كنتُ مثلك قبل قليل أذكر ربي، أسبِّح وأهلِّل... وأنا الآن محتاج إلى دعاء منك، دعاء بالرحمة والغفران...

لقد حُمل على آلة خشبية، وسيغيب عن نظرك بعد قليل، لن تراه بعد اليوم...

اللهم ارحمه، اللهم كن له، اللهم كن في عونه، اللهم إنك رحيم فارحمه.

اللهم اجعل هذا اليوم أسعد أيامه، واجعل هذه الليلة أسعد لياليه.

إلى ربٍّ كريم، إلى ربٍّ رحيم.

اللهم ارحمه يا رحيم، اللهم أكرمه يا كريم...

إنهم يسرعون به إلى سيارة تقلُّه، ليقطع مسافة قصيرة...

وهاهم ينزلونه بتؤدة... والقبر بانتظاره، لحدٌ ممدود، حفرة عميقة أُعدَّت لهذا الجسد الجامد ليمدَّد فيه، ملفوف في قماش أبيض، مربوط في أول رأسه وآخر قدميه.

ويُهال عليه التراب.. ليغيب عن العيون، ولا يُرى بعد اليوم.

لقد انتهى أمره في الحياة الدنيا، انتقل إلى حياة أخرى، هي حياة البرزخ، ليتولى شأنه الملائكة... إنه الآن يُسأل.

اللهم كن في عونه، اللهم ثبِّته.

لم يضعوا معه في قبره هويته، ولا مفاتيح بيته، أو محلِّه، أو سيارته، ولا هاتفه النقال، الذي ما كان يفارقه ليل نهار، ولا قلماً، أو كتاباً يستأنس بقراءته... ولا مالاً يشتري به طعاماً، أو يدفع به وبالاً...

لا يفيده هذا كله، ولا يشعر به، ولا يلقي له بالاً.

لا قيمة للمال هناك، حتى الذهب، مثله مثل التراب الذي أُلقي عليه، ومثل الحجارة والهوام من حوله...

لقد ذهبوا به بعيداً، إلى عالم آخر، إلى حيث الحساب والجزاء.

(ل)

حِكم ونصائح

من محاسن الكلام

من جهل المرء أن يعصي ربَّه في طاعة هواه، ويهين نفسه في إكرام الدنيا.

من أفرط في المقال زلّ، ومن استخفَّ بالرجال ذل.

من حُسن الاختيار الإحسان إلى الأخيار.

ما عزَّ من ذلَّ جيرانه، وما سعد من شقي إخوانه.

من أعزَّ فلسه، أذلَّ نفسه.

من قال ما لا ينبغي، سمع ما لا يشتهي.

من قال بلا احترام، أجيب بلا احتشام.

(من كتاب نصيحة الخلان لمحمود حمدي المرعشي، ١٣١٨ هـ، ص٣٠، ٣١)

كلمات ونصائح

- إذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن، فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك أيضاً لسعد السعادة التامة.
- انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.
- الوجع والفقر والنكبة والخوف لا يحس أذاها إلا من كان فيها، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها، وفسادُ الرأي والعارُ والإثمُ لا يعلم قبحها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يراه من كان داخلاً فيها.
- مقرِّب أعدائه قاتل نفسه.
- إهمال ساعة يفسد رياضة سنة.
- لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً.
- لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزي.

- لقد طال همُّ من غاظه الحق.
- الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع.
- العرض أعزُّ على الكريم من المتاع.
- من العجائب أن الفضائل مستحسن ومستثقلة، والرذائل مستقبحة ومستخفَّة!
- حدُّ الحزم معرفة الصديق من العدو.

(مختارات من كتاب "مداواة النفوس" لابن حزم، بتحقيق علي بن أحمد بن غالب).

من أعماق الإيمان

يقول العارف الواعظ يحي بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨ هـ):

- أعلم الناس بالله أخوفهم له.
- علامة التائب: إسبال الدمعة، وحبُّ الخلوة، ومحاسبة النفس البعيدة عن الصفوة.
- الذي حجب الناس عن التوبة: طولُ الأمل.
- من أحب أن يعرف مكارم الأخلاق فلينظر في فنون الأدب.
- لست آمركم بترك الدنيا، بل آمركم بترك الذنوب.
- إذا كنتَ لا ترضى عن الله كيف تسأله الرضا؟!
- الليل طويل فلا تقصِّره بمنامك، والنهار نقيٌّ فلا تدنِّسه بآثامك.
- رأى يحي بن معاذ رجلاً يعمل في قطع الأحجار من الجبل في يوم حارٍّ وهو يغني، فقال: مسكينٌ ابنُ آدم، قطعُ الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار!
- من سُرَّ بخدمةِ الله سُرَّت الأشياء كلُّها بخدمته.
- التواضع حسن في كل أحد، لكنه في الأغنياء أحسن.
- بئس الأخ تحتاج أن تعتذر إليه عند زلَّتك.
- لا تضيّع حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه من المودَّة.
- يا ابن آدم، لا يزال دينك متمزقاً ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقاً.

- ليس من العقل بنيان القصور على الجسور.
- بقدر تعلق قلبك بالدنيا يكون بُعدك عن الله.

(مختارات من كتاب: جواهر التصوف/ سعيد هارون عاشور)

منوعات

يقول البرقي: الحكايات تُصطاد بها القلوب.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله: إن كتب الفضائل حسب علمي تعتبر أكثر الكتب انتشاراً، قراءة ومطالعة، بعد كتاب الله القرآن الكريم بين المسلمين، على مستوى العالم أكمله. (من مقدمة محقق "تحقيق المقال في تخريج أحاديث فضائل الأعمال" (البهرائجي).

يقول الشيخ الرفاعي: العافية أربعة أشياء: دين بلا بدعة، وعمل بلا آفة، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة.

قالوا: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبَّر القرآن.

أخي المسلم: إذا كنت تمرُّ بهذه الآية الكريمة {وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين} [سورة آل عمران: ١٣١] ولا تفكر فيها، فراجع نفسك، فإن شأن العلماء هو التفكر والاعتبار والخوف من الله، فكان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعَدَّة للكافرين، إن لم يتَّقوه في اجتناب محارمه.

(٣)
الدعوة

(أ)
تعالوا إلى مدرسة الخير!

- مدرسة الخير تريد الخيرَ للآخرين كما تريدهُ لنفسها!
- هي مدرسة مفتوحةٌ لجميع المسلمين، يتعاونون فيها على البرِّ والتقوى.
- لا رئيس لها ولا مدير، ولا مركز لها ولا إدارة، ولا ندوة فيها ولا مؤتمر!
- منهجها عدمُ إثارة الخلافات، وهدفها توحيدُ كلمة المسلمين وتجميع قوتهم، وغايتُها إرضاء الله سبحانه في دينه.

* * *

- وهذا نداء وتوجيه، وإشارات وإرشادات موجزة، وتوجيهات ونصائح، للتخفيف من آثارِ واقعِ ما يعيشه المسلمون، من انفصال فُرض عليهم، أو انعزال أقيم عليهم، أو أفكارٍ وجدت بينهم، فصار كلٌّ يأخذ من محيطه، ويستغرب مما عداه، فازدادت وجهاتُ النظر، وتحكَّم الخلاف، وخاصة في غياب الخليفة، الذي غالباً ما يجمعُ كلمة المسلمين.
- وقد صار المسلمون بتباعدِ الزمن أصحابَ مدارس، ومشاربَ ومذاهب، في الفقه والعقيدة، وفي السلوك والتنظيم. وصار كلٌّ يفضِّل رأي رئيسه، ويَصدُر عن قوله وفتواه.
- والاختلاف درجات، بين حوارٍ طيب لا تُخشى منه ثائرة، وتقيُّد بآراء لا يُحاد عنها؛ فيبدَّع مخالفُها ويفسَّق، وأقصاها التكفيرُ وإعلان الحرب... وبين هذه الدرجات درجات.

- وهم جميعاً يَعبدون رباً واحداً، ويأخذون عن نبي واحد، ويَصدُرون عن كتاب سماوي واحد!
- وبعض هؤلاء جرَّب كل شيء في حياته إلا نبذَ الخلاف، فإنه لم يجرِّبه، ولم يفكر فيه! فصار الخلافُ قطعة منه، وجزءاً من حياته، لا يقدر أن يعيش بدونه!!
- إن الخلاف ليس ضرورياً ولا واجباً، بل هو يشقُّ صفَّ المسلمين إذا لم يستعمل بحقه، بينما جمعُ كلمة المسلمين ووحدةُ الأمة واجب.
- ولو عمل كلٌّ للوحدة كما عمل للخلاف، لوجد فجوات كثيرة مُلئت، ومُنعرجات عديدة سُوِّيت، وجراحات كثيرة ضُمدت.
- فكن حريصاً على الخير، تجمع فيه شملك وشمل إخوانك، لتكونوا أقوى وأمنع وأهيب عند الأمم، بدل أن تكونوا غُثاء، ونهباً، وصيداً للأعداء.
- ولئن تجمعَ خيرٌ من أن تفرِّق.
- ولا تحتاج سوى إلى إرادة المسلم التقي، الذي يضع حبَّ الإسلام والمسلمين فوق الهوى والعصبية، والطائفيةِ والمذهبية، والحزبيةِ والحركية.
- وإذا كان لا بدَّ للخلاف أن يظهر، فليكن في ثوب معقول لا مبالغة فيه ولا تهويل، وفي أسلوب علمي، وجوٍّ أخوي إسلامي، لا حساسية فيه ولا تشهير، ولا مخاصمة فيه ولا تكفير، ولا عداوة فيه ولا تحقير.
- فبالإمكان أن تنقد أي عملٍ لمسلم تراه مخالفاً، ولكن لتعلم أن هذا الذي ترد عليه أخ لك ربما جانب الصواب من غير قصد، وقد لا توفَّق في نقده فتكون أنت المخطئ، أو أن الأمر خلافي قِدماً، فمنهم من قال بقولك، ومنهم من قال بقوله، فلماذا لا تسكت ما دام قولك لا يقدِّم ولا يؤخر، وتوفر بذلك جهدك لأمور مفيدة، ولا تشغل المسلمين بما لا فائدة من تكراره.

- وأنت تقدر أن تبيّن الحق من غير أن تقول إنه رد على فلان، وتكون بذلك قد بلغت وبرَّأت ذمَّتك، أو تقول: ما بال أقوام...
- واعلم أن "الرفقَ لا يكونُ في شَيء إلاّ زانه، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلاّ شانَه"، كما قاله رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد تجذب باللين والرفق أخاك المسلم إلى رأيك، أو على الأقل لا تجعله يبغضك، فلا تشقُّ به صفاً، ولا تغيِّر به قلباً.
- وأما إذا فُقد الرفق من نقاشك معه، وجاء بدلاً منه التوبيخ والتحقير، والكلام الفظ الغليظ، والتجريح والتكفير، فإن الغالب عليه ألا يستجيب لقولك ولو كان حقاً، واقرأ إن شئت رسالة "الفرق بين النصيحة والتعيير" لتعلم ماذا قال أئمة العلم والهدى في ذلك، ولئلا تظن أن صاحبك وحده كذلك. وبذلك تكون دخلت في الإثم ولم تجنِ من قولك الحق ما ترجوه، والسبب هو أنت، هو قلبك المليء بالحقد والكراهية والضغينة، وأنت تريد أن تطفئ غضبك الشديد من بين سطور الانتصار للحق.
- ولكن هيهات! فإن الذين ينتصرون للحق من أجل الحق ليسوا كذلك، إنهم كرماء أتقياء، وذوو همم ونفوس عالية لا تدخل في سفاسف الأمور، بل تكظم غيظها، وتتغاضى عن حظوظ نفسية لأجل الصدع بالحق وتسهيل مروره.
- إذاً فقد عرفت أنك إذا تعلمتَ الحق، فعليك أن تتعلمَ معه كيف تبلّغه.
- وسلامٌ عليك إن كنت تشفق على أمتك وتضع مصلحة وحدتها وقوّتها فوق أحقادك الشخصية، وأهلاً بك حينئذ في مدرسة الخير ومهمتها الجليلة.

(ب)
مواقف مع الداعية

وقفات مع الداعية..

الحمد لله العليم الحكيم، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
فالدعوة وظيفة كل مسلم بالغ عاقل عارف بدينه، ومَن كان مؤديًا لها، مُخلصًا فيها، فليَحمَدِ الله، وليسأله الثواب والقبول، ومَن كان تاركًا لها، أو كسولاً في تأديتها، فليَنزع عنه لباس الكسل، وليَستعِن بالله، وليُبلِّغ ما استطاع تبليغَه، فما ترك قومٌ الدعوة إلى الدين الله إلا ذلوا.
والداعية المتعلِّم وظيفته أخصُّ وأعمق؛ فيُطلَب منه الانتباه واليقظة لما يَجري حوله، وعليه بالحكمة والتثبُّت في الأمور، وتنظيم حياة الأفراد ممَّن يَتولاهم، وتبيين تفاصيل وأحكام ومعاني الدِّين؛ نظرًا لعلمِه الواسع، وإحاطته بأمور الدين أكثر من غيره؛ قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [سورة آل عمران: ١٠٤].
وهذه الدعوة تحتاج إلى علم، ويختص بالدعوة كل مَن عرَف شيئًا من الدين، وكل مسلم يدعو إلى الله بالقدر الذي يَعلمه منه؛ قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف: ١٠٨].

مِن زاد الداعية:

ومن صفات الداعية، أن يكون أكثر التزامًا بالآداب من غيره، وهي كثيرة ومتعددة؛ ومن أهمها:
- أن يكون فاهمًا لعقيدته، ومتدبرًا لحكمة دينه، عارفًا لأحكامه بشكل عام؛ قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [سورة المجادلة: ١١]، وقال - عزَّ مِن قائل -: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [سورة الأنعام: ٥٧].
- وعليه أن يكون دائم الطلب للعلم، مُلمًّا بكل جديد.
- أن يكون مُخلصًا في دعوته، لا يطلب بذلك شهرةً، أو مَنصبًا أو ثناءً، فإنَّ كلَّ عمل أو قولٍ له شرطان في القبول:

١ – أن يكون موافقًا للشريعة.

٢ – أن يكون خالصًا لوجه الله.

وعلى الداعية أن يكون معه هذا الميزان أينما حلّ أو ارتحل؛ قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ} [سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

– التعلُّق بالآخرة، وعدم الركون إلى الدنيا؛ فإن زوال الدنيا شيء مُحقَّق، ولقاء الآخرة يقين مؤكَّد؛ قال تعالى: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} [سورة النساء: ٧٧]، ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "إذا أصبحتَ فلا تحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدِّث نفسك بالصباح".

– واليقظة والتدبير والحكمة: فلا يغترَّ بوعود الكافرين والمنافقين، ولا تخدعْه أحابيلُهم. {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} [سورة البقرة: ٩].

– ولا يكون غَضِبًا عصبيَّ المزاج، سريع الحكم، كما لا يدَع الخلافات الفرعية، وسفاسِف الأمور تُسيطِر على منهج دعوته.

– التعلق بالله، وطلب الهداية والقوة والتوفيق منه؛ فهو المؤيد والهادي إلى سواء السبيل، وبفضله تتم الصالحات؛ قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٥٠]، وقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة الحج: ٣٨].

– الشجاعة والثبات، والجِهاد والتضحية؛ بالقلب واللسان واليد، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فليس هناك عقيدة دون تضحية، ولا تَنتشر فكرة منظمة وهادفة إذا لم يكن هناك شجاعة وقوة وشكيمة وبأس ومثابَرة، والمؤمن يرى المخاطر نعيمًا إذا عرف أنها أمر الله ورسوله، ويَصبِر على النوائب عندما يعلم الثواب العميم على ذلك؛ قال – عز وجل –: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة التوبة: ١٢٠].

– لا يأس في حياة الداعية ولو طال عليه زمن الانتظار؛ {وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [سورة يوسف: ٨٧]، بل يَعيش دائمًا طالبًا رضوان

الله بعد أداء مهمَّة التبليغ، ويَحيا حياةً مِلؤها الحب في الله، والبُغض في الله، والخوف والرجاء منه - عز وجل - وهذا من ثمرات الإيمان العميق.

- وعلى الداعية أن يكون بحرًا في الأخلاق[1] والخلال الحميدة؛ فيكون صابرًا {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة الزمر: ١٠]، ولا دعوة بلا صبر، وقد أوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أذًى بليغًا فصبروا، {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧]، فعلينا أن نتحمَّل أعباء الدعوة، حتى نظفر بما وعدنا الله تعالى به؛ قال سبحانه: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [سورة البقرة: ٢١٤].

- ومنها الصدق في القول والعمل، والذي له الآثار الكبيرة على سَيْرِ الدعوة، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [سورة التوبة: ١١٩].

- ومنها اللُّطف والصفح والعفو عن الناس، والرحمة بهم؛ قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف: ١٩٩]، وقال: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [سورة آل عمران: ١٥٩].

- ومنها التواضُع وعدم التكبُّر؛ فبين الدعوة والتكبر تنافر شديد، وما دخل الكبر في معاملة إلا شانَها ونزَع منها الخير والبركة؛ قال الله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة القصص: ٨٣].

ويقول علي بن الحسين - رحمه الله -: ما دخل قلب امرئ شيء من التكبُّر قطُّ إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قلَّ أو كثر.

- المخالطة وطيب العِشرة؛ لحلِّ مَشاكل الناس، وبثِّ الدعوة ونشر الدين من خلال هذه العِشرة؛ وذلك بالأخلاق الحسنة والكلمات الطيبة، والعمل الجاد والمخلص؛ يقول صلى الله عليه وسلم: "المسلم الذي يُخالط الناس ويَصبِر على أذاهم خير من الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم" أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

---

[1] راجع فصل "أخلاق الداعي" من الكتاب القيم: "أصول الدعوة"؛ لعبدالكريم زيدان (ص: ٣٣٣ - ٣٥٥) ط: ٣، وغيره من كتب الدعوة.

- ومن الآداب الشخصية للداعية أن يكون رمزًا عمليًّا في العمل الصالح، وقدوةً حسنةً في الأسرة والعمل اليومي، بين الأهل والأصدقاء، وأن يكون دائم الذِّكر والتعلق بالله، وأن يكون مُعتنيًا بصحته، نظيفًا، معتدلاً، غير مُسرِف ولا مُقتر، وفيَّ العهد، صريحًا، ومعترفًا بالخطأ، منصفًا من نفسه، وقورًا، حييًّا، عادلاً، نشيطًا، محبًّا للخير والتعاون، مؤثرًا لغيره على نفسه، مغيثًا للمحتاج والضعيف، سموحًا، بعيدًا عن الجدل، مبتسمًا، غير هيَّاب عند النوازل والنكبات، مُحترمًا للكبير، عطوفًا على الصغير، ذا مِهنة يكفُّ بها وجهه عن حاجة الناس، مُشجِّعًا لأعمال الخير، نافعًا لنفسه ولغيره، مواظبًا على الصلاة، حريصًا على الجماعة، تائبًا، مستغفرًا، مجاهدًا لنفسه، بعيدًا عن قرين السوء وأماكن اللهو، ناشرًا لدعوته بكل شرق وحب، وفي كل وقت وحين.

التنقية والتنشئة:

الداعية يَفتخر عندما يعلم أن وظيفته هي وظيفة الأنبياء والمرسَلين، وما أجلَّ هذه النعمة وما أعظم هذا السبيل! {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف: ١٠٨].

ولا شكَّ أن مُهمتهم كانت صعبةً ودقيقة، لكنهم صبروا، وآثروا رضاء الله على سخط الناس، فضَّلوا حياة الآخرة ونعيمها على لحظات الدنيا الفانية، ولم يكترثوا بكفْر أكثر الناس، واستهزاء السفهاء منهم، فلو كان فيهم خير لهَداهم الله، لكنهم كانوا صمًّا لا يسمعون قول الحق، وبُكمًا لا ينطقون إلا بما يَنفث في روعهم الشيطان، وعُميًا لا يُبصرون السبيل السويَّ بل يرون الطريق الأعوج مستقيمًا، والمستقيم أعوجَ، فكيف يهتدون؟!

وهذا معنى قوله تعالى: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} [سورة آل عمران: ٢٦]، فهو يعزُّ الذي يفتح قلبه للخير ويُقبل على طاعة الله إذا عرف أمره، ويُذلُّ مَن ضرب سورًا بينه وبين سماع كلمة الحق.

والمسلم الداعية حريص على معرفة الناس في الجو الذي يعمل فيه، وفي البيئة التي يدعو فيها، ويدرس عوامل كثيرة؛ أهمها:

١ - المعتقدات المتوارَثة.

٢ – الحاجات والمشاكل الاجتماعية.

٣ – نفسية الفرد، وأسلوب التأثير فيه بشكل يُناسب هذه النفسية.

وإذا كان الناس – ولو في مجتمع واحد – تختلف نفسياتهم ومشاكلهم كاختلاف صورهم وألوانهم، فإن الداعية الحكيم، يُصنِّف ويرتِّب، ويجمع النفوس المتشابهة والقريبة من بعضها، ليَأتلفَها ويضمَّها إلى بعضها، فتحسُّ وتشعُر بوحدة في الآمال والآلام، وهذا ما يقرب إلى روح التأثير الجماعي، وبث الأفكار خلال اللقاءات الجماعية، ويُحدث التحابب بعد إلقاء الكلمات والاستماع للمشاكل الخاصة والعامة، وتقديم الحلول الإسلامية لها، وتكون هناك لحظات سعادة، بعد تفريج الكروب.

وأكثر ما تؤثر الكلمات هو أثناء هذه الحال، فالمرء يُرهِف حسَّه، ويضبط أعصابه، ويصغي بكل عقله وأحاسيسه إلى قولِ غيره، عندما يعلم أن المتكلم يدخل في أعماق نفسه، ويدق باب فطرته، ويُجلِّي الشك عن باطنه، فيقع في أزمة فكرية حادة، ربما كانت المرحلة الانفعالية، أو المرحلة الانتقالية، أو قل: لحظة الهداية.. إذا أعانَ اللهُ! والإنسان هو الإنسان.. إنه يتأثر، ويُنكر، ويجادل، ويشكُّ، ويسأل، ويبحث، ويَستقرئ خيرًا إذا فتح قلبه للنور المبين.

ويَستطيع الداعية بفِكره الثاقب وهدْيه الإسلامي أن يُميِّز الطيب من الرجال، وأن يعرف من هو الحريص على الفهم السليم وتحمُّل أعباء الدعوة، مِن السفيه الذي لا يهمُّه إلا اتِّباع الهوى والشهوات.

وتأتي في هذه المرحلة أيضًا، الاتصالات الفردية، والتأثير الشخصي في الخلوة؛ حيث تُلقى على الأشخاص المركَّز عليهم محاضرات في التربية الإسلامية، في هدوء وعلى مراحل، وكلما كان إلقاء الفكرة طويل النَفَس وبإقناع تام، كان التأثير والقبول أكثر – بفضل الله وعنايته.

الواجب والأمل:

إننا نَزداد اطمئنانًا بهذه الدعوة، ونرفع بها الرأس عاليًا، عندما نرى شرور المدنية الحديثة تزداد، وتَكثُر فيها الجرائم والآثام، وتفشل جميع النظم الفكرية المعاصرة في إسعاد الفرد وتأمين حياة مُستقرَّة للمُجتمع.

ومما يزيد من عزيمة الداعية ويبشِّر مستقبله ومستقبل الدين بالخير، أن علماء الاجتماع وغيرهم قد تنبَّؤوا بأن هذه الحضارة المادية والمهزوزة ستَنهار لأنها غير مبنية على أسس أخلاقية وإنسانية سليمة، ولا حلَّ لهذه البشرية إلا هذا الدين الإلهي الخالد، الذي أمر الله المسلمين بتقديمه حلاًّ شاملاً لجميع مشاكل وطلبات العالم، إنه دين العلم والجهاد والسلام،
ولا غرابة؛ فإن النور ينبثق من بين الظلمات الكثيفة ليكشف الحق ويُنير الدَّرْب: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء: ١٨].

وتتضاعف مهمَّة الداعية عندما يرى أمراض المجتمع وهي تزداد، وجروحه البليغة وهي تكثُر، إنه لا طبيب لها إلا يد الداعية الحكيمة الرحيمة؛ قال تعالى: {قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [سورة يونس: ٥٧].
والأشرار لا يملُّون ولا يكلُّون من الدعوة إلى نظمهم الفاسدة والطاغوتية؛ {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} [سورة التوبة: ٦٧].
وكلهم يُريد إطفاء نور الإسلام، فالنار تُحيط بالإسلام من كل جانب، ورجال الإطفاء قليلون، وعلى الداعية أن يُشعر المسلمين بخطورة الموقف تجاه ملَّة الكفر الواحدة وإن تنوَّعت وتعدَّدت أساليبها، وهذا ما يتطلَّب جهادًا وحماسًا ويقظة أكثر؛ {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [سورة التوبة: ٧١].
وهذا يعني أن نَنتهز كل فرصة للدعوة، ونملأ كل فراغ تصل إليه يدُنا، ونَلِج كل مدخل فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

والدعوة لا تخصُّ وقتًا أو ظرفًا معينًا، بل تكون في المسجد، والمدرسة، والمتجَر، والمصنع، والسجن، وموطن الغربة، والصحراء، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الْتقى ببُرَيدة بن الحُصيب الأسلمي في ركب مِن قومه، أثناء هِجرته إلى المدينة، فدعاه للإسلام فأسلم، والموقف كان يتطلَّب سريَّة، لكنها سرية مِن بعض النواحي فقط، وهذا يوسف عليه السلام يدعو إلى دِين الله وهو في السجن؛ {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة يوسف: ٣٩].

ولا تسأل عن أجرِ الداعية، فثوابه مِن الله الرحيم الكريم، لا يضيع عنده شيء، ويُضاعِف لمن يَشاء.

إن الداعية المخُلِص هو أكرم الناس، وأعظمُهم قيمة وقدرًا، وأقربه إلى رحمة الله ورضوانه، {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣].

اللهمَّ إنا نسألك التأييد لدعوة المسلمين، والنصر لجهادِهم، إنك سميع قريب مجيب[٢].

(نشر في مجلة (هذه سبيلي) التي كان يصدرها المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض، عندما كنت طالبًا في مرحلة الماجستير، ١٤٠٢هـ)

[٢] أكثر اعتمادي في هذا المقال على كتاب "أصول الدعوة" للأستاذ عبد الكريم زيدان.

(٤)
المساجد

(أ)
يوميات الحرمين... ولقاء العشر

إنها يوميات يمكن أن تتحقق!

وهي تدوين ما يجري يوميًّا في المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، من أخبار وأحداث عامة وخاصة، يدوِّنها علماء ودعاة وطلبة علم وصحفيون، ويساعدهم في عملهم مصمِّمون ومصوِّرون وإخباريون، في هيئة أو تجمع علمي وإعلامي يُشكَّل لأجل ذلك، يموِّله أهل الخير كما موَّلوا "لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام" وغيره من المشاريع العلمية والخيرية الكثيرة هناك.

وإذا كان موقع "الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي" يقوم بقسم من هذه المهمة، فإنه لا يكفي، ولا يُشبع رغبة طلبة العلم والعلماء، فالصفة الغالبة عليه هي الحكومية، وتورَد أخبار معينة وبحذر. ولكن يُستفاد منه بالتأكيد.

والتركيز في هذه "اليوميات" يكون على النواحي العلمية والدعوية والاجتماعية، وخاصة أخبار العلماء الذين يزورون الحرمين من أنحاء العالم، يحجّون ويعتمرون، وقد يشاركون في أعمال علمية بصفة رسمية أو لا.

فالالتقاء بهؤلاء العلماء في الحرمين، ومعرفة أخبارهم وأحوالهم، وشيوخهم وتلامذتهم، وذكر آثارهم العلمية، واهتماماتهم، وأساليب تعليمهم، ونقل أخبار مجتمعاتهم إلى المسلمين، يكون فيه فائدة كبيرة، حيث يتعرَّف المسلمون بعضهم على بعض، ويتعاونون على البرّ وصنائع الخير، مع تعزيز التعاون الثقافي الإسلامي بينهم، وزيارتهم ومساعدتهم عند اللزوم.

هذا عدا فنون العلوم الأخرى التي تحصل من جرّائها، كالإجازات والروايات التي يهتم بها طلبة العلم والعلماء، ويحنّون إليها، ويسافرون لأجلها إلى بلاد بعيدة.

وكذلك الاستفادة من نتاجهم العلمي مما يخص الحرمين، ومعرفة آثار أخرى فيهما في بلادهم.

ويكون إنتاج هذه اليوميات تقنيًّا، وهو تصميم موقع باسم "**يوميات الحرمين**"، وتستقبل فيه المقالات والتعليقات والمشاركات العلمية الأخرى، كالصوتية والمرئية، من المهتمين، وترتَّب وتنقَّح وتوزَّع على أقسام الموقع وأبوابه، فيُعرف كل ما يحدث في المسجدين الشريفين.

كما تضاف إليه الأخبار التاريخية (العلمية) مما له علاقة بالحرمين.

ويخصَّص في الموقع باب لرحلات الحج، فهي في معظمها رحلات علمية، فيها أحاديث عمن لقي أصحابها العلماء، أو أصحاب الشأن في الحرمين، أو أيًّا من فئات المجتمع الإسلامي، وما جرى بينهم من حديث، ومسائل وحوارات علمية، تفيد أهل العلم، وتؤرّخ للمسجدين.

ويخصص باب آخر لما كُتب عن الحرمين، من كتب وبحوث، ومن صور وخرائط وغيرها.

وآخر للكعبة وتأريخها وكسوتها وهداياها.

وآخر لمكتبات الحرمين وما يحسب عليهما، وهذا باب واسع، يمكن الاستفادة العلمية منه إلى أقصى حد، بنشر مخطوطاتها ووثائقها، وما يتعلق بها بشكل عام، أو يشار إلى روابطها عند توفرها.

وكلٌّ ينشر ما عنده، مما حدث معه، أو رآه في مصدر، مع التوثيق العلمي.

وأبرز باب في الموقع وأجمله هو باب "يوميات الحرمين"، فتكتب السنوات والشهور والأيام بشكل فني، ويسترجع الباحثون من خلالها ما حدث في تلك الأيام، في معالجة بيانية إلكترونية، وتخزن فيها الأخبار والأحداث نقلاً من الكتب والدوريات، وما يحدث آنيًّا.

والأفضل أن يكون الموقع (شبكة)، لتخصص فيها مواقع لعلماء وأهل الإحسان والوجهاء المهتمين بالحرمين الشريفين، ولأمور علمية أخرى، كما يأتي في الفقرة التالية.

فمن أبرز الأمور العلمية التي تجري في الحرمين وتفيد أهل العلم "**لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام**"، الذي يديره الأخوان الكريمان محمد بن ناصر العجمي من الكويت، ونظام محمد صالح يعقوبي من البحرين، ويموله "بعض أهل الخير من الحرمين الشريفين ومحبيهم"، وتقوم بطبع وتصميم وتوزيع منشوراته دار البشائر الإسلامية ببيروت.

وليس لهذا "اللقاء" موقع مخصص حتى الآن، بل يعلن عنه في موقع الدار المذكورة، ويعرض فيه فقط عناوين الرسائل والكتب. مع أن الأولى أن يكون له موقع خاص، تعرض فيه جميع الرسائل والكتب التي حُققت، بنصِّها، فهي تطبع على نفقة أهل الخير، ولا أظنهم يمانعون ذلك.

وفيها فوائد علمية كثيرة، ولا يقتنيها إلا فئة قليلة من أهل العلم، ولا كشاف عامٌّ لها ليُعلم ما تحتويه، فالفائدة الحقيقية منها قليلة، ولا ترتقي إلى المجهودات التي تبذل لأجلها.

وفي كل لقاء يُعقد بالمسجد الحرام تُقرأ نحو (٢٠) رسالة أو أكثر من رسائل التراث الإسلامي، أكثرها في الحديث الشريف والفقه الإسلامي والتراجم، ثم تطبع. ويكون عددها ارتقى إلى (٣٤٠) رسالة، وربما (٤٠٠) رسالة، فهي مكتبة بذاتها!

وعسى أن تتحقق هذه الأمور الطيبة، المفيدة، المباركة، قريبًا، أو بعد حين، ومثلها في المسجد الأقصى الجريح.

وقد لا تبدو القيمة العلمية المتكاملة من هذا العمل في أوائله، ولكنه بعد سنوات أو عقود من الزمن ستكون الفائدة المرجوَّة منه مؤكدة، وهكذا تبدأ المشاريع متواضعة، ثم تكبر..

والله الموفِّق.

(ب)
نفايات في بيوت الله!

من أبرز سمات المساجد أنها نظيفة، فلا تجد فيها سجادات وسخة، ولا حيطاناً متسخة، ولا روائح كريهة، فكل ما فيها طاهر نظيف. وهذا نتيجة التوجيهات الدينية الكريمة، فلا تصح صلاة على ما فيه نجاسة، التي يكون فيها غالباً ضرر على صحة المصلين، فلا تكاد تجد نجساً إلا وهو قابل أن يكون ملوَّثاً وحاملاً للجراثيم.

ومنذ سنوات ابتدع في المساجد أمر يخشى أن يكون له ضرر أكثر من نفعه، وهو وجود المناديل الورقية الناعمة فيها، التي يستخدمها المرتادون إلى المساجد عادة لتنشيف أياديهم ووجوههم من ماء الوضوء، وربما لإزالة البصاق والمخاط والنخامة التي قد تغلبهم وهم في المسجد. ولا شك أن المتبرع بهذه المناديل يكون مأجوراً إن شاء الله إلى هذا الحد، على أن هناك مذاهب فقهية تذهب إلى كراهة التنشيف من ماء الوضوء إلا لسبب.

أما السلبيات التي يخشى منها فهي:

نتيجة وجود هذه المناديل فقد وُضع في كثير من المساجد سلات للمهملات، وكثير من المصلين الذين يمتخطون أو يخرجون نخاماتهم يضعونها في هذه المناديل ثم يرمونها في تلك السلال، وقد يكون بعضهم، حاملاً لأمراض قد تكون معدية، حتى لو كانت خفيفة كالزكام.

وهذه السلال لا يهتم بها غالباً، فقد تكون وسخة، من ظاهرها وباطنها، ولا تفرَّغ في كل يوم، بل إن بعضها يبقى أسابيع طويلة، فلا تفرَّغ حتى تمتلئ، وإذا فرِّغت فلا تُغسل غالباً، وإذا غُسلت لا تعقَّم. وهذا ما لاحظته في جوامع كبيرة وصغيرةّ! ولعل السبب يعود إلى الخادم المسكين الذي يعكس على أداء عمله أشياء، منها راتبه الضعيف جداً الذي لا يشبع (...؟)، وعلى قلَّة أجره فإنه يؤخَّر شهوراً، وأعرف خدماً وحرّاساً للمساجد لم يقبضوا رواتبهم نحو عشرين شهراً أو أكثر!! ويعيشون على غسل السيارات وبيع المساويك وما إلى ذلك، فبأي نفسية يعملون؟ وهذا صرخة للاهتمام بهؤلاء الضعفاء المظلومين، فمن يسمعهم، وهم أولى من بيوت الله.

والمساجد من المجمَّعات المفتوحة، التي قد تنتقل فيها الأمراض ما لم يُعتنَ بها، وإن كانت تُغلق عشرين ساعة من أصل أربع وعشرين ساعة! فإن الإقبال عليها في أوقات الصلوات كثير. وليلاحظ مثلاً مدى العناية بالحاويات الصغيرة في المستشفيات وكيف تكون مغلقة وتفرَّغ بين كل مدة وأخرى، وبين ما هو في المساجد، ولا شك أن المنشأتين مختلفتان من حيث مرتاديها، ومع ذلك يؤخذ الأمر في الاعتبار، حفاظاً على صحة المسلمين.

ولا يُقاس الأمر على المسجد الحرام، فالأمر معتنى به هناك أكثر من كل مكان، ولا توجد به مناديل أصلاً، ولكن السلال وضعت احتياطاً، لبعد المصلين من خارجه.

ومما يخفف من هذه السلبيات هو التوعية الصحية داخل المساجد نفسها، وذلك بأن يوجه الخطباء المصلين إلى عدم رمي المناديل فيها، بل كل يضع ما استعمله من المناديل في جيبه بعد استعمالها.

ولا أظن أن هذا يكون حلاً شافياً، فالصغار، والمهملون، واللامبالون موجودون في كل مكان، وهناك "مخالفات" يلحظها الناس قد تكون فردية، ولا تورد هنا.

ولذلك أطلب **منع المناديل وسلات المهملات** في المساجد كلها، ويبقى الأمر على ما كان سابقاً، فكلٌّ يضع في جيبه ما يحتاج من المناديل، ويردُّ ما استعمله إليه، حتى لا يسبب ذلك إشكالات صحية للمصلين، والكثير منا يتقزز عندما يكون واحد بجانبه فيتناول كمًّا من المناديل لينظف كل ما في أنفه، أو يخرج أصواتاً من أنفه وكأنه يتمخَّط في مكبِّر صوت. ولو أنه فعل ذلك في مجلس لتغيَّظ منه الناس، فكيف وهو في بيت الله، أو في الصلاة بين يدي الله؟ وعلى الأئمة والخطباء أن ينبهوا إلى هذا، فالمسلمون يترددون إلى المساجد كل يوم، وهذه المظاهر السلبية ينبغي أن تُبعد من المساجد بقدر الإمكان، ولو لم توجد المناديل فيها لقلَّت هذه المظاهر جداً. وكان يجب على هذا وذاك أن يتنظف في البيت أو يستنثر جيداً أثناء الوضوء، أو يتنظف كما يريد قبل أن يدخل المسجد، فبيت الله مكان للصلاة والذكر والخشوع، وليس مكاناً للتنظف، وإنما مكان ذلك الحمّام أو المغسلة... والمهم أن يكون هذا خارج المسجد، إلا إذا غلب على المرء شيء، فلا يُلام عليه.

هذا إضافة إلى أنه أدب غير ملائم للأطفال، الذين يأتون إلى المساجد ليتأدبوا بأدب الإسلام، فيتناول بعضهم المناديل وينظفون أنوفهم دون حاجة تُذكر، تقليداً للكبار، وبعضهم لا يُحسن التنظف فلا يكون ذلك محبَّذاً لمن حوله.

ومن المؤكد أن ديننا الحنيف يحث على نظافة المسجد، وإخراج الأوساخ والنجاسات منه، فهل وضعُ سلال المهملات، ووضع النفايات فيها يتوافق مع هذه التوجيهات الكريمة؟

أظن القراء سيوافقون أن الجواب هو: لا. إذاً فلماذا هي موجودة إذاً، وهي لم توضع في المساجد إلا لوضع النفايات فيها؟ وأين هذا من الحثِّ على تنظيف المسجد وتطييبه؟

وقد يرد سؤال ضمن ما يورد هنا، وهو حكم أخذ المناديل التي في المساجد ووضعها في الجيب للتنظف بها خارجها، فهل هو جائز؟ هذا ما يفعله بعض الناس، والمتقون يخافون فلا يفعلون ما فيه شك وشبهة، وقد وضعت هذه المناديل لاستعمالها داخل المسجد وليس خارجه.

وما أوردته من طلب منعه لم أردْ به حكماً فقهياً، فلست أهلاً للاجتهاد، وإنما هو "طلب" ينظر فيه الفقهاء، بعد دراسة إيجابياته وسلبياته من جميع جوانبه، ويكون بينهم أطباء مجتمع صحيون، ليبينوا للفقهاء مدى خطورة النفايات والأوعية التي توضع فيها دون أن تعقم أو تنظف، حتى يكون حكمهم صائباً.

وأذكر هنا بعض ما وقفت عليه من أحاديث وأحكام فقهية مما يناسب الموضوع:

١- ما يخرج من الأنف من المخاط نقل غيرُ واحد من العلماء الإجماع على طهارته (حاشية الروض المربع ١/٣٦٤). وكذا البصاق والنخامة.

والبلغم هو المنعقد من اللعاب والمخاط. ومنهم من فرَّق، وقالوا ببلغم الرأس، وبلغم الصدر، وبلغم الحلق. وقد نقل الزركشي الإجماع على طاهريته، مع أنه مختلف فيه. وفي رواية عن الإمام أحمد أنه قال بالنجاسة (الإنصاف ١/٣٤١).

وجزم ابن الجوزي بنجاسة بلغم الصدر. وقال الإمام النووي: إن نخامة الرأس طاهرة، وكذا نخامة المعدة. (المجموع ٢/٥٥١).

والقيء متفق على نجاسته كما قال الإمام النووي، لكن ذكر الباحث الآتي أنه مختلف فيه [قلت: الاتفاق على نجاسته مذكور في مصادر عديدة، ينظر الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي ١/٥١].

وقال باحث معاصر: المخارج المعتادة في الرأس أربعة، هي: العينان، والأنف، والأذن، والفم، يخرج منها ستة عشر خارجاً، كلُّها ترجَّح أنها طاهرة. (حكم الخارج من الإنسان لعبدالإله الدريويش ص ٣٠، وما سبق منقول منه). [قلت: هو ترجيح من قبل الباحث، ولا يؤخذ قوله على عمومه].

٢- وإذا كنت ذكرت ما سبق، فإن الأمر الذي أورده في هذا المقال يتعلق بناحية الضرر الصحي، يعني أنه ولو كان ما ذُكر طاهراً لا يتنجس منه المسجد، فإن الحكم في بقائه فيه يختلف إذا تبيَّن ضرره. والمسلم مكرَّم ومعتنى به في الإسلام أكثر من المساجد وشكلها وفُرشها، بل هو أكرم عند الله حتى من بيته الحرام. وهنا تكون كلمة الطبيب لها أهميتها وتأثيرها في الحكم الشرعي. ومن المعروف أن ما يُرمى في السلال الموجودة في المساجد ليس كله صحياً، بل فيه ما هو مضرّ، وخاصة إذا كان مكشوفاً، وحتى لو كان مغطًّى فإن الميكروبات تصعد مع الأبخرة التي فيها عندما تُفتح لترمى فيها الجديدة، مما يؤثر في جو المسجد وتنفس المصلين، ولو كانت بعيدة عنهم عند الأبواب، وقد رأيت منها ما يكون أمام المصلين بجانب صناديق المصاحف! ولعله أكثر خطراً من الروائح الكريهة التي منع الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يأتي صاحبها إلى المسجد حتى لا يؤذي المصلين بها، كمن أكل البصل والثوم، وقاس عليها العلماء رائحة الدخان وما إليه...، وهذا تأثير نفسي، فكيف بما هو صحي؟

٣- وحول الحديث الذي رواه البخاري "**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في حائط المسجد فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم حصاة فحتَّها**..." الخ. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: العلة العظمى في النهي احترام القبلة لا مجرد التأذي بالبزاق ونحوه، فإنه وإن كان علة فيه أيضاً، لكن احترام القبلة فيه آكد. ا.هـ.

قلت: لا شك أن الموجودين في المسجد يتأذَّون بالنخامة والنخاعة وما إليها، إن كان بشكل مباشر أو غير مباشر، فالعلة موجودة.

٤- وفي الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "**البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها ردمها**". رواه ابن حبان في صحيحه (الإحسان) وصححه الشيخ شعيب على شرط البخاري.

قلت: إن دفن البصاق تحت التراب والرمل وما إليه يمنع من صعود الأبخرة منها وما فيها من جراثيم، إن وجدت، أما المناديل الورقية الناعمة فيظهر فيها آثار البلل مباشرة.

وفي صحيح البخاري، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "**رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبلة المسجد نخامة، فحكها بيده، فتغيَّظ**".

أقول: وهذان حديثان خطيران، يقف منهما المؤمن التقيّ موقف الخائف الوجل، وإن الذي يرمي منديلاً مستعملاً في حاوية بداخل المسجد، لا يُقال إنه رماها في خارجه، فليحتط المرء، وليبتعد عن الشبهات.

٥- قال العماد الأقفهسي رحمه الله في "تسهيل المقاصد لزوار المساجد" (طبعة وزارة الأوقاف بالكويت) ص ١٠٦: أطلق جماعة من الأصحاب (يعني الشافعية، فهو فقيه شافعي مجتهد) لفظ الكراهة على البصاق، ولعل مرادهم كراهة التحريم، لأن من عادة الأولين التعبير عن التحريم بالكراهة.

ثم تابع ما ورد من إباحة ذلك في الأحاديث إذا كان الشخص مصلياً ولكن ليس باتجاه القبلة، وأن بعضها معارض بما هو أصح منه... وقال أخيراً في ص١١١: ولا خلاف أنه يحرم البصاق في المسجد من غير حاجة.

وفي حديث أبي ذر المخرَّج في صحيح مسلم قوله عليه الصلاة والسلام: "**عُرضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تُدفن**".

٦- وأذكِّر إخواني المصلين أن لمن ينظف المسجد، أو يُخرج الأذى منه أجراً كبيراً وثواباً عظيماً، ويكفي أن فاعله يحظى بمحبة الله ورسوله، وفي حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري، أن رجلاً أسود، أو امرأة سوداء، كان يقمُّ المسجد [أي يكنسه]، فمات، فسأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عنه، فقالوا: مات. قال: "**أفلا آذنتموني به؟ دلوني على قبره**" أو قال: "**على قبرها**". فأتى قبرها، فصلى عليها. اهـ.

فإذا لم يكن المصلي ممن يفعل ذلك، فلا يرمي في المسجد أذاه على الأقل، في سلة أو في غيرها.

هذا، ولم أقصد بهذا المقال إثارة شيء من الخوف حول نفايات تكون في المساجد – والنفاية بقيَّة الشيء، أو ما أُبعد من الشيء لرداءته– بقدر ما أردت أن أنبه إدارات المساجد إلى ما ينبغي منعه أو إقراره بعد دراسة جادة للموضوع، وبيان حكم شرعي فيه، فإذا لم تُمنع المناديل فلا أقلَّ من أن تُمنع الأوعية التي تُرمى فيها؟ فهذا رأي في الطب الوقائي من ناحية علمية، أو ملاحظة على ما قد يكون بدعة من ناحية شرعية. والله أعلم، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(٥)
مناسبات

(أ)
أجنحة العيد المكسورة

على أيّ عهدٍ عُدتَ يا عيد؟

وعلى أيّ جناحٍ وقعت؟

على الغرقَى في البحرِ من الهاربين من جحيمِ أوطانهم؟

أم على المشرَّدين الذين لا مأوَى لهم ولا طريقَ يدلُّهم؟

أم على الآمنين الذين تفاجؤهم براميلُ الشبيحةِ والموت؟

أم على شيوخٍ وأطفالٍ ونساءٍ لا قوةَ لهم ولا صوتَ يُسمَعُ لهم؟

أم على أشلاءٍ ممزَّقةٍ في بلدِ الإهاناتِ والمسالخِ البشرية؟

أم على سجونٍ امتلأتْ بشبابٍ وأبطالٍ وأعلامٍ ودعاةٍ يَسحقهم جلّادون وفراعنة؟

أم على أسرَى وسجناءَ لا يُرفَعُ عنهم العذابُ فماتوا أو صاروا كالأشباح؟

أم على الخائفين والمذعورين والمقهورين الذين لا يَعرفون كيف يتصرَّفون وأين يولُّون وجوههم؟

أم على الغرباءِ الذين ذلُّوا وسكتوا لأجلِ سكنٍ يؤويهم وقطعةِ خبزٍ تؤدَّى لهم؟

أم على حكّامٍ باعوا شعوبهم وغدروا وخانوا وناصروا العدوَّ على المواطنين واستحلُّوا كرامتهم ورقدوا على جماجمهم؟

على أيّ جناحٍ وقعتَ يا عيد؟

وما أكثرَ أجنحتكَ المكسورةَ في عالَمِ المسلمين!

اللهمَّ إنّا نعوذُ بكَ من هذه الأحوال،

وما آلَ إليه حالُ الأهلِ والأوطان،

اللهمَّ نعوذُ بكَ من حياةِ ذُلٍّ بعد عزّ،

اللهمَّ أبدلنا من المخاوفِ فيها أمناً،

ومن العوائقِ فيها يُسرًا،
ونسألُكَ العفوَ والعافية،
والتوفيقَ والنصر.

(٦)
(الثقافة الإسلامية)

(أ)
أصول الإبداع في الإسلام
(مدخل)

يجد مصطلح (الإبداع) ومشتقاته وتوابعه صدى لدى المفكرين والمثقفين والأدباء والفنانين التشكيليين في عصرنا، والاهتمامُ به وتصنيفه وتشريحه وتهويله لا يتجاوزُ عمرهُ العقودَ القريبة الأخيرة من الحياة الثقافية الإنسانية، وتُبحث موضوعاته من خلال جِدَة تنبعث من فكر ينتج أمرًا جديدًا، فلا علاقة له بما مضى، والدينُ عند العلمانيين والحداثيين أبعد ما يكون عن ذلك، لأنه في نظرهم شيء سابق انتهى!

والحق أن الاهتمام بالإبداع والحثَّ عليه موجود في نصوص إسلامية واضحة، منذ بزوغ فجر الإسلام، وهي لا تخصُّ ذلك العصر، بل تمتدُّ حتى آخر لحظة من لحظات الحياة التي يعيشها الإنسان في الدنيا.

من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم وغيره:

"**من سنَّ في الإسلامِ سنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ من عملَ بها بعدَهُ من غيرِ أن ينقصَ من أجورهم شيء**".

فهذا حثٌّ وتشجيع على الإبداع في الأفعال الحسنة، والأفكار الجادة، والأعمال الهادفة، والخدمات المفيدة، التي من الممكن أن تقدَّم للإنسان، وتزيد من لبنات البناء الحضاري، القائم على التبصر والإيمان.

ولا حدود لهذا الإبداع إلا أن يكون في حدود الإسلام، ولا زمن يقف حدًّا أمامه إلا الموت، فباب الأعمال الحسنة والإبداع فيها مفتوح على مصراعيه إلى يوم القيامة، ويلجه كل من أراد خيرًا ونفعًا للبشر.

والملاحظ في الحديث أن من أراد أن يسنَّ سنَّة (أي طريقة)، فينبغي أن تكون هذه السنَّة "حسنة"، ومصطلح "الحسنة" يمكن أن يختصر معناه بأنه "جماعُ الخير"، وهو كما في الآية (٢٠١) من سورة البقرة: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآَخِرَةِ حَسَنَةً}، فيمكن أن يقالَ إن الإبداع في القول والعمل يكون مقيَّدًا بالفائدة، وبموافقته الشرع، أو أن لا يتناقض مع الشرع. فإذا ناقض انطبق عليه الشقُّ الآخر من الحديث: "**ومن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزرُ من عملَ بها من بعدهِ من غيرِ أن ينقصَ من أوزارهم شيء**".

وقد اختصر الإمام النووي في شرحه على مسلم (١٠٤/٧) ما يرمي إليه الحديث بقوله: "فيه الحثُّ على الابتداء بالخيرات، وسنِّ السنن الحسنات، والتحذيرُ من اختراع الأباطيل والمستقبحات".

وقال في موضع آخر منه (٢٢٦/١٦): "الحثُّ على استحباب سنِّ الأمور الحسنة، وتحريم سنِّ الأمور السيئة".

ويعني أن الإبداع إذا لم يكن موافقًا لقواعدِ الشرع تحوَّل إلى (بدعة)، والبدعة هنا تكون ضلالاً، لا خير فيها، وإن بدت مزركشة، وهي كما في أعمالٍ إبداعية سيئة في عصرنا، كرسوم عُري، فلا فائدة منها، ولا قبول لها في الإسلام، وإن سميت (إبداعًا).

وسبب ورود الحديث أن رجلاً جاء بصُرَّةٍ كادت كفُّهُ تعجزُ عنها، فتتابعَ الناسُ، وكان الفضل العظيم للبادي بهذا الخير، والفاتح لباب هذا الإحسان، كما قال الإمام النووي رحمه الله.

فكما أن لصاحب الإحسان إحسانًا، فإن لصاحب الشرِّ وزرًا وخسرانًا، فإن من ابتدع شيئًا من الشر، كان عليه إثمه وإثم كلِّ من اقتدى به في ذلك العمل، إلى يوم القيامة.

وقوله: "**من سنَّ في الإسلام**" أي: أتى بطريقة مرضيَّة يشهد لها أصل من أصول الدين (كما أفاده صاحب تحفة الأحوذي ٣٦٥/٧).

وفي هذا تأكيد لمعنى الإبداع.

ومن الأمثلة على السنن الحسنة في صدر الإسلام ما قام به أبو بكر رضي الله عنه من جمعه القرآن الكريم، فسنَّ بذلك سنة عظيمة لم تكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال علي رضي الله عنه: " أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر رحمه الله، هو أول من جمع كتاب الله".

لقد فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث باب الإبداع على مصراعيه، منذ فجر الإسلام، وحتى يوم القيامة، وهو عليه الصلاةُ والسلام مشرّع.

ومثله الحديث الصحيح، عند مسلم وغيره: "**من دلَّ على خير، فله مثلُ أجرِ فاعله**".

وكذا قوله عليه الصلام والسلام في المصدر السابق: "**من دعا إلى هدًى، كان له من الأجرِ مثلَ أجورِ من تبعَهُ، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئًا...**".

والقاعدة في قبول الإبداع كما قلنا هو ألاّ يخالف قواعد الشرع الحنيف.

ولا خير في إبداع لا فائدة منه، وفيه مضرَّة للإنسان، ومفسدة للحياة، ونشر للفاحشة. والمسلم ينأى بنفسه عن مثل هذه الأمور، التي تخالف مبادئ دينه.

بل إنه يُفهَم من الأحاديث السابقة أعلى درجات التشجيع على الأعمال الإبداعية المفيدة، ما لا يوجد مثلها في حياة الناس وإبداعهم، وهو أن كل من عمل بمثل ما قام به المبدع يكتب أجره له أيضًا، ولا يعني هذا أن ينقص من أجر عامله شيء.

إنه دين عظيم، إنه دين الحياة، والحضارة، والعلم. دين للشباب كما هو للشيوخ. دين العلم والفن والاجتماع والثقافة والاقتصاد والأدب والمعرفة..

وأخيرًا أخا الإسلام، هل تريد مثالاً قريبًا على الإبداع الحقيقي في الإسلام؟

أعني هل فكرتَ أن تضيف شيئًا إلى الحياة، يكونُ لكَ به أجر، وللمجتمعِ فائدة مؤكدة؟

إن أجلَّ عملٍ تقدِّمه أمام ذلك هو أن يهتديَ ضالٌّ على يديك، أو يُسلم كافر.

إن حياةَ ذلك المهتدي ستتبدَّل، ونفسيته ستتغيَّر تمامًا، وكأنه ولد من جديد، ويصبح عضوًا نافعًا في المجتمع، يدعو إلى دين الله الحق بحرارة وإبداع لا يوصف، ويعمل صالحًا، بدل الكفر والضلال الذي كان عليه.

وتكون بذلك سننت سنة حسنة، وكل من فعل ذلك فقد أبدع، وأضاف شيئًا جديدًا إلى الحياة. فالهداية ولادة جديدة.

إن الإبداع له طعم آخر في الإسلام.

إنه يَنشد النفع والفائدة، وليس نظريات فارغة، وكلامًا وجدلاً بدون هدف.

(ب)
الاستيراد والتصدير الثقافي

فرقٌ بين أن تكونَ مصدِّرًا للثقافة،

وبين أن تكونَ مستوردًا لها!

تكتملُ شخصيةُ المسلمِ الثقافيةُ عندما يعتزُّ بدينهِ ويشعرُ بأنه مكتف،

وليسَ بحاجةٍ إلى إضافةِ أيةِ ثقافةٍ غريبةٍ أخرى إليها،

بل يعملُ على تصديرِ ثقافتهِ ليتنوَّرَ بها الناسُ ويتعرَّفوا دينَ الإسلام.

وتكونُ شخصيتهُ الثقافيةُ ناقصة،

عندما يأخذُ من هنا وهناك بدونِ تحفظ،

ليكملَ ثقافتهُ الناقصةَ على حسابِ دينه،

فيكونُ بذلكَ مستوردًا لثقافةٍ أخرى،

مُذَلاًّ لها.

ألا تنظرون إلى الغربيين كيف يصدِّرون ثقافتهم؟

وكم يبذلونَ من جهدٍ وكم ينفقونَ من مال؟

ألم تسمعوا بالعولمة الثقافية؟

هل فيها شيء من الثقافة الإسلامية؟

ومع ذلك انظروا كم يركضُ وراءها من المسلمين،

أعني المحسوبين على الإسلام،

من الحداثيين والليبراليين والعلمانيين والمتغربين بشكل عام!

ولو كانتِ القوةُ للإسلام،

لكانتِ الثقافةُ الإسلاميةُ هي السائدة،

وهي الحاكمة،

كما كانت في قرون سالفة،

ولكن بما أن الغرب هو القوي،

فثقافتهُ هي المسيطرة،
وسيطرتها إنما هي على أصحابِ الإيمانِ الضعيفِ والثقافةِ الضعيفةِ من المسلمين،
ويسمَّى مقلِّدوها (إمَّعة)،
يعني إنْ أحسنَ الناسُ أحسنَ معهم،
وإن أساؤوا أساءَ معهم،
فمثلُ هذا لا شخصيةَ له،
إنما هو متقمِّصٌ شخصيةً أخرى،
ومقلِّدٌ كالببغاء،
ومتلبِّسٌ بألبسةٍ مستعارةٍ متهالكة،
قد لبسها ناسٌ قبله،
وهو لا يستحي أن يلبسها مرةً أخرى،
والمسلمُ ذو الشخصيةِ القوية،
والثقافةِ الأصيلة،
يبقى مرفوعَ الرأس،
صامدًا،
كالشجرِ الضاربِ جذورهُ في أعماقِ الأرض،
مفتخرًا ومعتزًا بدينهِ وثقافته،
تهمُّه عقيدتهُ قبلَ كل شيء،
إنْ أحسنَ الناسُ أو أساؤوا.
وعلى أكتافِ هؤلاءِ تُبنى الحضارات،
وبجهودِ أمثالِ هذه القممِ الشامخةِ تُشادُ الأممُ القوية،
وبعزمهم تصمدُ الجبهةُ الثقافيةُ الإسلامية،
لا المقلِّدين المتهالكين،
فهؤلاءِ لا يعملونَ لأمَّتهم ليرفعوا من شأنها،
بل يعملونَ لحسابِ الغرب،

ويرفعونَ من شأنه!

لأنهم مقلِّدوهم،

ومعظمُ ثقافتهم من عندهم،

فهم يردِّدون أقوالهم،

ويتمعَّكون في أوحالِ نظرياتهم...

(٧)
الإعلام الإسلامي

(أ)
الإعلام الإسلامي: تعريفه وأهدافه والغاية منه

أولاً: تعريف الإعلام الإسلامي:

لم يتفق الباحثون المتخصصون في الإعلام على تعريف جامع له حتى الآن؛ فهو مصطلح لعلم جديد، وتعريفاتُ العلوم لا تستقر ولا تتبلور إلا بعد بيان جوانبه المختلفة، والاتفاق على أسسه ومبادئه، والاستقرار عليها، ومع ذلك نورد أهمَّ التعريفات له.

فقد حظي تعريف "أوتوجورت" الألماني للإعلام باحترام من قِبَل الدارسين الإعلاميين، وهو موجود في معظم كتب الإعلام، وقد عرَّفه بقوله: "الإعلام هو التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولرُوحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت"[٣].

ويعرفه الدكتور عبداللطيف حمزة بقوله:

"تزويد الناس بالأخبار الصحيحة، والمعلومات السليمة، والحقائق الثابتة التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرًا موضوعيًّا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم"[٤].

وبعد أن يورد الدكتور سيد الشنقيطي مجموعة من التعريفات للإعلام، وفيها بيان أنه يعتمد على الحقائق المجردة مع الصدق والموضوعية .. إلخ يقول:

---

(٣) الإعلام والدعاية، عبداللطيف حمزة – ط٢ – القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، ص ٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٥.

وبالنظر إلى أن الإعلام الوضعي ليس له طبيعة واحدة، فمنه ما هو صادق، ومنه ما هو كاذب، ومنه ما هو خير، ومنه ما هو شر، ومنه ما هو ضلالٌ، فإن التعريف الذي يوضع له لا بد أن يشمل كافة أنواعه، وذلك ما لم نلاحظه في التعريفات الإعلامية السابقة؛ حيث غلب على معظمها الميلُ إلى الحكم بغاية الإعلام، أو بما يجب أن يكون عليه الإعلام.

ثم يبدأ هو بتعريفه في الصفحة التالية فيقول:

هو كل قول أو فعل قصد به حمل حقائق أو مشاعر أو عواطف أو أفكار أو تجارِب قولية أو سلوكية شخصية أو جماعية إلى فرد أو جماعة أو جمهور بغية التأثير، سواء أكان الحمل مباشرًا بواسطة وسيلة اصطلح على أنها وسيلة إعلام قديمًا أو حديثًا...[٥].

أما الإعلام الإسلامي فقد بين الأستاذ الباحث زين العابدين الركابي أن المقصود به رؤية الأحداث والقضايا والأخبار والعلاقات من منظار إسلامي إعلامي، وعرَّفه بقوله:

نقل المبادئ وشرحها شرحًا واضحًا وصحيحًا وثابتًا، ومستهدفًا تنوير الناس وتثقيفهم ومدَّهم بالمعلومات الصحيحة بموضوعية أيضًا، معبرًا عن عقلية الجماهير، ومراعاة الأسلوب واللغة التي تخاطب الجماهير[٦].

ويعرِّفه الدكتور محيي الدين عبدالحليم بقوله:

تزويد الجماهير بصفة عامة بحقائق الدين الإسلامي المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من خلال وسيلة إعلامية دِينية متخصصة أو عامة، بواسطة قائم

---

(٥) مفاهيم إعلامية من القرآن الكريم: دراسة تحليلية لنصوص من كتاب الله. سيد محمد ساداتي الشنقيطي. – الرياض: دار عالم الكتب، سيد محمد ساداتي الشنقيطي. – الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص ١٧ – ١٨.

(٦) محاضرات ألقاها الشيخ الركابي على طلاب السنة الأولى قسم الإعلام – ماجستير، كلية الدعوة والإعلام (المعهد العالي للدعوة الإسلامية سابقًا) ١٤٠٣هـ، الرياض.

بالاتصال، لديه خلفية واسعة ومتعمقة في موضوع الرسالة التي يتناولها، وذلك بُغيةَ تكوين رأي عام صائب يعي الحقائق الدينية ويدركها ويتأثر بها في معتقداته وعباداته ومعاملاته[٧].

ويصفه الدكتور الشنقيطي بأنه إعلام عن الله ولله؛ أي: إنه حمل مضامين الوحي الإلهي ووقائع الحياة البشرية المحكومة بشرع الله إلى الناس كافة بأساليب ووسائل تتفق في سموّها وحسنها ونقائها وتنوعها مع المضامين الحقة التي تعرض من خلالها، وهو محكوم – غايةً ووسيلةً – بمقاصدِ الشرع الحنيف وأحكامه[٨]، ويلاحظ تقارب التعريفات الثلاثة في أكثر الجوانب، وتكملة بعضها للبعض الآخر في الجوانب الأخرى .. كما يلاحظ الاحتياط والدقة في تعريف الشنقيطي أكثر؛ فقد بيَّن ما احتوى على "الحكمة" في التبليغ والإعلام، ولا بد منها في هذا الجانب استجابةً لأمر الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} [النحل: ١٢٥]، وقد خلا التعريفان السابقان من هذه، إلا أن يكون قصد الشيخ الركابي من "الموضوعية" هو "الحكمة"، ولكن التعريف الأخير أشمل وأكثر دلالة.

وكذلك دلت هذه الجملة على أن الإعلام – سواء بالقول أو العمل – يجب أن يكون خالصًا لله؛ أي: لا يبتغي من وراء تقديم هذه المعلومات والحقائق شهرةً أو منصبًا في الدنيا، بل دفاعًا عن الإسلام وجهادًا في سبيل الله وخالصًا لوجهه الكريم؛ إذ إن ميزان قبول الأعمال شرطان:

- أن تكون موافقة للشريعة.

- أن تكون خالصة لوجه الله.

والحقيقة أن الشيخ الركابي لا يمانع من تطبيق تعريف الإعلام بمعناه العام على الإعلام الإسلامي، والفَرق أن الأول مصدره وضعي، بينما الإسلام مصدره إلهي، كما أن الإعلام الإسلامي نشاط شامل، وفيه الأسوة أو القدرة، ودليله في هذه أن من صفات الإعلام:

---

(٧) الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، محيي الدين عبدالحليم، ط٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ص ١٤٧.

(٨) مفاهيم إعلامية من القرآن الكريم. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ١٨.

- تزويد الناس بالأخبار الصحيحة.

- المعلومات السليمة.

- الحقائق الثابتة؛ وذلك لتكوين رأي عام حول هذه المعلومات.

- الموضوعية.

- التعبير عن عقلية الجماهير واتجاهاتها أو ميولها العقلية.

- الوضوح، عكس الغموض.

- الصراحة؛ لأنها تقنع القارئ أو المستمع أو المشاهد.

- الدقة.

- التوثيق؛ فيجب ذكر المصادر في كل حالة.

- الصدق.

- التنوير أو التثقيف.

- مخاطبة العقول لا الغرائز.

ويقول - من ثم -: إنه ليس هناك مانع أن تطبق المميزات السابقة للإعلام على الإعلام الإسلامي، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل[٩].

ثانيًا: أهداف الإعلام الإسلامي:

---

(٩) محاضرات ألقاها الشيخ الركابي ... مصدر سابق.

إذا كان الهدف من العملية الإعلامية كلها هو "الإنسان" - أي تسخير الوسائل والأساليب الإعلامية لإيصال فكرة معينة إلى المستقبِل، سواء أكان فردًا أو جماعة أو شعبًا، وإقناعه بها، ليحصل المرسِل على الاستجابة التي خططها - فإن الهدف من الرسالات السماوية كلها هو "هداية الإنسان" ليحيا على حق، ويكون على بيّنة، ويعيش في سعادة وأمن في هذه الدنيا، وينجو بنفسه يوم الآخرة؛ أي: إن مقصده تحقيق مصالح العباد، ودرءُ المفاسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل.

وتأتي مهمة رجل الإعلام المسلم لبيان الحقائق الإسلامية، والوصول إلى قلوب الجماهير وعقولها بالحكمة المطلوبة.

وتقوم أهداف الإعلام الإسلامي في العصر الحديث على أسس كثيرة، نذكر منها:

- تجديد الدعوة إلى التوحيد، وهذه الدعوة لا تعني أن التوحيدَ غير موجود، بل هو تذكير مستمرٌّ ينبغي أن يركز عليه الداعيةُ الإعلامي دائمًا.

- دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير.

قال تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣].

- ومعنى هذه الدعوة هو إرجاع المسلمين إلى جوهر الإسلام وتشريعه الحكيم وتعميق ذلك في نفوسهم.

- دعوة غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام.

- الجمع بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطَبين والمجتمع الإسلامي، وإثارة الشعور الديني، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته.

- صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة وبيئات مختلفة ولها خلفيات

وعواملُ وتاريخ، وهي خاضعة دائمًا للتطور والتغيير، فيجب أن نغار على هذا الحقائق الدِّينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدَّسات وعلى الأعراض والكرامات، بل أكثر منها وأشد؛ لأنها حصونُ الإسلام المنيعة وحماه وشعائره.

– تحرير العقيدة مما قد يداخلها من أباطيل الخصوم وافتراءاتهم، ومهمة رجل الإعلام الإسلامي التصدي لهذه الافتراءات .. ولا بد أن يكون متفهمًا للدعوى الإسلامية حتى يستطيع نشرها، كما أنه لا بد من دراسة هذه الافتراءات دراسة جيدة، وإن لم يكن رجلُ الإعلام الإسلامي مسلَّحًا بهذا العلم فلربما انجرف مع التيار المنحرف والمضلل.

– الدعوة إلى التعلم؛ فالعلم طريق إلى الإيمان.

– تأكيد معنى الحرية؛ فالإسلام أعطى الحرية الكاملة للإنسان فيما يفعل، وهي مقيَّدة بعدم المساس بمبادئ الإسلام، والإساءة إليه.

– الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فما أصاب المسلمين وما يصيبهم بسبب أنهم غير متحدين؛ قال تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦]؛ فهدفُ رجلِ الإعلام هو الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين.

– دعم اللغة العربية الفصحى، والتمسك بالدعوة إليها؛ فالفصحى هي لغةُ القرآن، ومن أسباب فُرقتنا عدم محافظتنا على هذه اللغة، فاللهجات المحلية المتفرقة، والدعوةُ إلى الكتابة بها وجعلُها لغةَ التعليمِ ووسائلِ الإعلام – تسبِّب الافتراق، ويقع على عاتق رجل الإعلام بيانُ هذا ..

– بعث الفِكر الإسلامي الأصيل والتماس منابعه في القرآن والسنَّة، فكل مقوِّمات الحضارة موجودةٌ في الفكر الإسلامي، وأكثر العلوم الحالية أصلُها إسلامي.

– بناء الحضارة الإسلامية المعاصرة، ونحن ندعو إلى الماضي ولا نفرِّط فيه، بل يكون هناك ربط بين الماضي والحاضر.

– تجلية محاسن الإسلام ومزاياه وتقريب مفاهيمه وحقائقه حسَب قدرات الناس ومداركهم.

– الربط بين الدِّين والعِلم، والعِلم والدِّين والأخلاق، وبين الدِّين والتربية والمجتمع، وبين الدِّين والدنيا.

– بث الفضائل الأخلاقية والسلوك القويم والعادات الإسلامية السليمة، مثل الوصاية بالجار، وردِّ الحقوق إلى أهلها، وكفالة اليتيم، والعناية بالأرملة؛ فالإسلام من حيث المعاملات الأخلاقية يقوِّم السلوك الإنساني، ورجل الإعلام ينبغي أن يكون متصفًا بهذه الأخلاق ثم يدعو إليها؛ ليكون كلامه مؤثرًا، ودعوتُه مقبولة، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم معروفًا بين قومه بالصادق الأمين.

– حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الخارجية والدعايات المسموحة، وذلك بالردِّ عليها والعمل على نشر المعلومات والأخبار الصادقة.

– غرس مبادئ الإسلام والثقافة الإسلامية على مستويات مختلفة، أهمها: الأسرة – المدرسة – المسجد – وسائل الإعلام المختلفة، بما فيها وسائل النشر، من صحافة وكتب وإذاعة وتلفاز ..

– إنشاء المعاهد والكليات الإعلامية المتخصصة الإسلامية ..

– الاستيعاب الحق لتقنيات الوسائل الإعلامية الحديثة عِلمًا وممارسة.

– الاهتمام بالجانب الترفيهي الهادف من خلال برامج ومشاهد وصفحات .. إلخ.

هذا ويمكن أن تكون أهداف النظام الإعلامي هي عينها الأهداف الكبرى التي يسعى المجتمع بكافة أنظمته ومؤسساته إلى تحقيقها، والتي يمكن إرجاعُها إلى أصول كبرى، تتمثَّل في ترسيخ عقيدةِ التوحيد في النفوس، وتحقيق السيادة لشرع الله، وتثبيت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبناء مجتمع طاهر نقي عفيف كريم، وشمولية في الإعلام بدين الله، أو هي في تركيز شديد: تدعيم

الإسلام وتعميمه؛ ذلك أن أيَّ نشاط إعلامي يصدر عن مسلمين في نطاق بناء حياة إسلامية متكاملة لا يُتصوَّر أن تغاير أهدافُه أهدافَ أنشطة أخرى يقومون بها للغرض نفسه[10].

ثالثًا: الغاية من الإعلام في الإسلام:

إن الغاية يجب أن تكون أساسًا إرضاءَ الخالق جلَّت قدرته، حتى لو لم يرضَ بعض الخَلْق، وليست إرضاءَ بعضِ الخَلْق بغضبِ الله عز وجل.

وإذا كانت الغاية هكذا من أنبلِ ما يكون، فإن رجل الإعلام يتحرَّى الدقة والأمانة في تبليغه وتعليمه وتربيته، ويبحث عن كل ما فيه خير الأمة ونفعها؛ لينال رضا خالقه ومثوبة من عنده؛ قال عز وجل: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [سورة الليل: ١٩ - ٢١].

وليست غاية الإعلام في الإسلام غسيلَ رؤوس العباد - كما هو في كثير من الأنظمة الحديثة - حتى تتسع لكل التقلُّبات، ولا عمليةَ تخدير حتى تتقبل الأمة أمرًا خطيرًا ما كانت لتقبَلَه لولا هذا التخديرُ[11].

(نشر في مجلة "الداعي" الهندية، ع ٩ - ١٠ (رمضان - شوال ١٤٢٤هـ)

[ولم أكتب هذا المقال، ولعل المحرر نقله أو لخصه من كتاب لي في الإعلام الإسلامي]

---

(١٠) انظر في أهداف الإعلام الإسلامي: بعض سمات الدعوة المطلوبة في هذا العصر، أبو الحسن علي الحسني الندوي. المدينة المنورة: مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية، د.ت (من بحوث المؤتمر الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ص٧، ١٣، والدعوة الإسلامية: مفهومها وحاجة المجتمعات إليها. محمد خير رمضان يوسف - الرياض: المؤلف، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م، ص ٢٥ - ٢٦، ومحاضرات ألقاها الشيخ زين العابدين الركابي .. مصدر سابق، وأصول الإعلام الإسلامي وأسسه: دراسة تحليلية لنصوص الأخبار في سورة الأنعام. سيد محمد ساداتي الشنقيطي - الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ج ١ ص ١٢ - ١٣.

(١١) انظر - بتصرف: الإعلام موقف. محمود سفر. جدة: تهامة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م. (الكتاب العربي السعودي - ٦٣) ص ٦٢ - ٦٣.

(ب)

من خصائص الإعلام الإسلامي

لقد أثنى الله تعالى على أمة الإسلام، وبيَّن أنها خير أمة أخرجت للناس: إذا كانت أمة مؤمنةً، تأمر بالخير والصلاح، وتنصر الحق وأهله، وتَنهى عن الشر والفساد، وتُكافح الباطل وأهله.

ويتميَّز الدين الإسلامي عن الرسالات السابقة بميزات، فهو خاتمها، وهو للناس كافة، وفيه من عناصر القوة والبقاء ما يجعله نظامًا حيًّا مستقلاًّ، وفيه من المرونة والحيوية ما يجعله صالحًا لكل زمان، ولكل أمة، وفيه من مبادئ العقيدة ووضوحها، ما يحفظ الأفكار من الشطط والزلل، فلا يزيغ عنها إلا هالك، ومن الأحكام الشرعية ما يكفل حياةً عادلةً للفرد والمجتمع، ينال فيه كل منهم حقه، ويقوم بواجبه، وفيه من الأخلاق ما يربي الأجيال المؤمنة، ويجعلهم إخوة متحابِّين، يحافظون على أمن المجتمع ويذودون عن حياض الوطن.

هذه الأسس والسمات المميزة للدين الإسلامي – وغيرها كثير – جعلت منه نظامًا ربانيًّا حيًّا قائمًا بذاته؛ لأن يَنابيعه من القرآن الكريم، كلام الله – عز وجل – والسنَّة المطهَّرة، أقوال وأفعال وتقارير الرسول صلى الله عليه وسلم.

فليس نظامًا وضعيًّا ارتآه عقل بشري أو جماعة من الفلاسفة والحكماء، ولا هو عقيدة كهنوتية رهبانية يَنعزِل أفرادها بعيدًا عن المجتمَع وآلامه وآماله.

إنه نظام رباني فريد، حفظ الله أسسَه ومبادئه في كتابه العظيم، وبيَّنها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، نستمدُّ منه الأحكام فيما يستجدُّ في الحياة، ونجعله ميزانًا في كل ما يرد إلينا من الشرق والغرب، فإن وافقه كان صوابًا، وإن خالفه كان باطلاً وضلالاً.

وما دام هذا الميزان موجودًا، فلن يضير المسلم ما يكون وما هو كائن، من نظريات وعلوم وأفكار، ما دام يحمل عقيدة صافية وفكرًا نيّرًا.

وقد نتج عن المدنية الحديثة، مذاهب فكرية فلسفية، واقتصادية واجتماعية، وتعليمية وعسكرية كثيرة، حملَتْ مدارسها بصمات مؤسِّسيها وتلامذتها، ممن لا يعرفون عن الإسلام شيئًا، ولا يعترفون به دينًا ومنهجًا للحياة، بل قد يُعادونه عندما يَخرجون عن "موضوعيَّتِهم" ويطعِّمون مبادئهم "العلمية" بعداء – سافر أو متستِّر – للإسلام والمسلمين.

وانتشرت هذه الأفكار وعمَّت عن طريق وسائل الإعلام السريعة والمتنوِّعة، وحمَلَها وانتصر لها كثير من بني جلدتنا، إما جهلاً منهم بمضارِّها ومنافاتها لشريعة الإسلام، أو قصدًا منهم في زيادة رقعة العلمانية والتضييق على منافذ الإسلام وشبابه.

وكان "الإعلام" ظاهرةً فنية خطيرة ولدتْها هذه المدنية، وأصبح واحدًا من العلوم يدرس في جامعات كثيرة من العالم كله: تاريخه ومذاهبه، وسائله وأساليبه، والجوانب المرتبطة به، وغدا فكرًا سياسيًّا معبرًا عن الدستور الذي تتبناه أية دولة من الدول، وإعلامها ودستورها بإمعان من نظرتها إلى الحياة، ونوعية الحكم ومدرسته.

فما حظُّ هذا العلم من الإسلام؟ وما هي جوانبه فيه؟ وما مدى إمكانية الدراسة فيه؟

وما الفارق بين الإعلام الإسلامي والإعلام المعاصر؟ ما سمات هذا الإعلام؟ وما هي ميزاته التي تميِّزه عن غيره؟

الإعلام في الإسلام له جذوره التاريخية، وعناصره الكاملة موجودة فيه ومستمَدَّة منه؛ من مُرسِل، ورسالة، ووسيلة، ومُستقبِل.

وللإعلام الإسلامي أنواع ومقاييس، وشروط ومقومات وخصائص، ينبغي الوقوف عليها والتفصيل فيها، ومطلوب دراستها دراسة علنية وافية، لتتبين جوانبها في هذا العلم، الذي يشكل جانبًا مهمًّا جدًّا في هذا العصر وكل عصر.

ويَتناول هذا البحث بعض خصائص الإعلام الإسلامي، المتميزة عن الإعلام المنتمي إلى هذا الاتجاه أو ذاك، من النظريات والأنظمة الوضعية.

والهدف من دراستها هو إيجاد نظرة مُتكاملة ومفصَّلة عما يتمتع به هذا العلام من جوانب فريدة مميَّزة واضحة، مستمَدَّة من أحكام الشرع الحنيف، وعقيدته السمحة، مع الإشارة في ثنايا كل خاصية على وجوب اتباع نظام إعلامي إسلامي تعمل به الدول الإسلامية، والبُعد عن الأساليب الإعلامية الماكرة والخبيثة والملتوية، التي تنصبغ بها الأنظمة والمذاهب الوضعية، من التي تُسيطِر عليها أيدٍ خفية أو ظاهرة.

وذِكرُ هذه الخصائص يعني التركيز على تكوين رجل الإعلام الإسلامي الحق، الذي يفهم الإسلام ومبادئه وأخلاقه، ليستطيع الانطلاق من خلالها، ويُحلِّل مشكلات الحياة من منظورها، وليكون – من ثم – الواجهة الحقيقية للإسلام والمسلمين، والناطق الأمين بلسان الدعوة.

وذكر هذه الخصائص يعني أيضًا: التخطيط للانطلاقة الإعلامية الإسلامية ذات المنهج الإعلامي المستقل، الذي لا يتأثَّر بفكرة غربية أو شرقية؛ لأنه نابع من نظام قائم بذاته، وثابت ثبات أصله وجذوره!

أولاً – تعريف الإعلام الإسلامي:

لم يتَّفق الباحثون المتخصِّصون في الإعلام على تعريفٍ جامع له حتى الآن، فهو مُصطَلَح لعِلم جديد، وتعريفات العلوم لا تستقر ولا تتبلور إلا بعد بيان جوانبه المختلفة والاتفاق على أسسه ومبادئه والاستقرار عليها، ومع ذلك نُورِد أهم التعريفات له.

فقد حظي تعريف "أوتوجورت" الألماني للإعلام باحترام مِن قِبَل الدارسين الإعلاميِّين، وهو موجود في معظم كتب الإعلام، وقد عرَّفه بقوله: الإعلام هو التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت[١٢].

ويُعرِّفه الدكتور عبداللطيف حمزة بقوله: تزويد الناس بالأخبار الصحيحة، والمعلومات السليمة، والحقائق الثابتة التي تُساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مُشكلة من المشكلات؛ بحيث يعبِّر هذا الرأي تعبيرًا موضوعيًّا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم[١٣].

وبعد أن يورد الدكتور سيد الشنقيطي مجموعةً من التعريفات للإعلام، وفيها بيان أنه يعتمد على الحقائق المجردة مع الصدق والموضوعية.. إلخ، يقول: "وبالنظر إلى أن الإعلام الوضعي ليس له طبيعة واحدة، فمنه ما هو صادق، ومنه ما هو كاذب، ومنه ما هو خير، ومنه ما هو شرٌّ، ومنه ما هو ضلال، فإن التعريف الذي يوضع له لا بد أن يشمل كافَّة أنواعه، وذلك ما لم نلاحظه في التعريفات الإعلامية السابقة؛ حيث غلب على معظمها الميل إلى الحكم بغاية الإعلام، أو بما يجب أن يكون عليه الإعلام".

ثم يبدأ هو بتعريفه في الصفحة التالية فيقول: "هو كل قول أو فعل قُصد به حمل حقائق أو مشاعر أو عواطف أو أفكار أو تَجارب قولية أو سلوكية، شخصية أو جماعية إلى فرد أو

---

(١٢) الإعلام والدعاية؛ عبداللطيف حمزة، ط: ٢، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، (ص: ٧٦).

(١٣) المصدر نفسه، (ص: ٧٥).

جماعة أو جمهور بُغية التأثير، سواء أكان الحمل غير مباشر أو مباشرًا بواسطة وسيلة اصطُلح على أنها وسيلة إعلام قديمًا أو حديثًا"[١٤].

أما الإعلام الإسلامي فقد بيَّن الأستاذ الباحث زين العابدين الركابي أن المقصود به رؤية الأحداث والقضايا والأخبار والعلاقات مِن منظار إسلامي إعلامي، وعرَّفه بقوله:

"نقل المبادئ وشرحها شرحًا واضحًا وصحيحًا وثابتًا، ومستهدِفًا تنوير الناس وتثقيفهم ومدَّهم بالمعلومات الصحيحة بموضوعية أيضًا، ومعبرًا عن عقلية الجماهير، ومراعاة الأسلوب واللغة التي تُخاطب الجماهير"[١٥].

ويعرفه الدكتور محي الدين عبدالحليم بقوله: "تزويد الجماهير بصفة عامة بحقائق الدين الإسلامي المستمَدَّة من كتاب الله وسنة رسوله بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من خلال وسيلة إعلامية دينية متخصصة أو عامة، بواسطة قائم بالاتصال، لدَيه خلفية واسعة ومتعمقة في موضوع الرسالة التي يتناولها؛ وذلك بغية تكوين رأي عام صائب يَعي الحقائق الدينية ويُدركها ويتأثَّر بها في معتقداته وعباداته ومعاملاته"[١٦].

ويصفه الدكتور الشنقيطي بأنه إعلام عن الله ولله، أي: إنه حمل مضامين الوحي الإلهي ووقائع الحياة البشرية المحكومة بشرع الله إلى الناس كافة بأساليب ووسائل تتَّفق في سموِّها

(١٤) مفاهيم إعلامية من القرآن الكريم: دراسة تحليلية لنصوص من كتاب الله؛ سيد محمد ساداتي الشنقيطي، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، (ص: ١٧ - ١٨).

(١٥) محاضرات ألقاها الشيخ الركابي على طلاب السنة الأولى قسم الإعلام - ماجستير، كلية الدعوة والإعلام (المعهد العالي للدعوة الإسلامية سابقًا) ١٤٠٣هـ، الرياض.

(١٦) الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية؛ محي الدين عبدالحليم، ط: ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، (ص: ١٤٧).

وحسْنِها ونقائها وتنوُّعِها مع المضامين الحقة التي تعرض من خلالها، وهو مَحكوم غاية ووسيلة بمقاصد الشرع الحنيف وأحكامه[١٧].

ويُلاحظ تقارب التعريفات الثلاثة في أكثر الجوانب، وتكملة بعضها للبعض الآخر في الجوانب الأخرى، كما يُلاحظ الاحتياط والدقة في تعريف الشنقيطي أكثر، فقد بيَّن ما احتوَت على "الحكمة" في التبليغ والإعلام، ولا بد منها في هذا الجانب استجابةً لأمر الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} [النحل: ١٢٥]، وقد خلا التعريفان السابقان من هذا، إلا أن يكون قصد الشيخ الركابي من "الموضوعية" هو "الحكمة"، ولكن التعريف الأخير أشمل وأكثر دلالة.

وكذلك دلكت هذه الجملة على أن الإعلام – سواء بالقول أو العمل – يجب أن يكون خالصًا لله، أي: لا يَبتغي مِن وراء تقديم هذه المعلومات والحقائق شُهرةً أو منصبًا في الدنيا، بل دفاعًا عن الإسلام وجهادًا في سبيل الله وخالصًا لوجهه الكريم؛ إذ إن ميزان قبول الأعمال شرطان:

- أن تكون موافقةً للشريعة.

- أن تكون خالصةً لوجه الله.

والحقيقة أن الشيخ الركابي لا يُمانع من تطبيق تعريف الإعلام بمعناه العام على الإعلام الإسلامي، والفرق أن الأول مصدرُه وضعي، بينما الإسلام مصدره إلهي، كما أن الإعلام الإسلامي نشاط شامل، وفيه الأسوة أو القدوة، ودليله في هذا أن من صفات الإعلام:

- تزويد الناس بالأخبار الصحيحة.

- المعلومات السليمة.

---

(١٧) مفاهيم إعلامية من القرآن الكريم؛ سيد محمد ساداتي الشنقيطي، (ص: ١٨).

- الحقائق الثابتة؛ وذلك لتكوين رأيٍ عامٍّ حول هذه المعلومات.

- الموضوعية.

- التعبير عن عقلية الجماهير واتجاهاتها أو ميولها العقلية.

- الوضوح عكس الغموض.

- الصراحة؛ لأنها تُقنع القارئ أو المستمع أو المشاهد.

- الدقة.

- التوثيق، فيجب ذِكر المصادر في كل حالة.

- الصدق.

- التنوير أو التثقيف.

- مخاطبة العقول لا الغرائز.

ويقول - مِن ثم -: إنه ليس هناك مانع أن تطبق المميزات السابقة للإعلام على الإعلام الإسلامي، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل[١٨].

ثانيًا - أهداف الإعلام الإسلامي:

إذا كان الهدف من العملية الإعلامية كلها هو "الإنسان" - أي: تسخير الرسائل والأساليب الإعلامية لإيصال فكرة معينة إلى المستقبل - سواء أكان فردًا أم جماعة أم شعبًا، وإقناعه بها، ليحصل المرسل على الاستجابة التي خططها، فإن الهدف من الرسالات السماوية كلها

(١٨) محاضرات ألقاها الشيخ الركابي، مصدر سابق.

هو "هداية الإنسان" ليحيا على حق، ويكون على بينة، ويعيش في سعادة وأمن في هذه الدنيا، وينجو بنفسه يوم الآخرة، أي: إن مقصده تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل.

وتأتي مهمة رجل الإعلام المسلم، لبيان الحقائق الإسلامية، والوصول إلى قلوب الجماهير وعقولهم بالحكمة المطلوبة.

وتقوم أهداف الإعلام الإسلامي في العصر الحديث على أسس كثيرة، نذكر منها:

* تجديد الدعوة إلى التوحيد، وهذه الدعوة لا تعني أن التوحيد غير موجود، بل هو تذكير مستمر ينبغي أن يركِّز عليه الداعية الإعلامي دائمًا.

* دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير؛ قال تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣].

* ومعنى هذه الدعوة هو:

- إرجاع المسلمين إلى جوهر الإسلام وتشريعه الحكيم، وتعميق ذلك في نفوسهم.

- دعوة غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام.

- الجمع بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطَبين والمجتمع الإسلامي، وإثارة الشعور الديني، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته.

- صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف وإخضاعِها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصَّة وبيئات مختلفة، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ، وهي خاضعة دائمًا للتطور والتغيير، فيجب أن نَغار على هذه

الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتَنا على المقدَّسات وعلى الأعراض والكرامات، بل أكثر منها وأشد؛ لأنها حصون الإسلام المنيعة وحِماهُ وشَعائره.

- تحرير العقيدة مما قد يُداخلها من أباطيل الخصوم وافتراءاتهم، ومهمَّة رجل الإعلام الإسلامي التصدِّي لهذه الافتراءات، ولا بد أن يكون متفهمًا للدعوة الإسلامية حتى يَستطيع نشرَها، كما أنه لا بد من دراسة هذه الافتراءات دراسةً جيدةً، وإن لم يكن رجل الإعلام الإسلامي مسلَّحًا بهذا العلم فلربما انجرَفَ مع التيار المنحرِف والمضلِّل.

- الدعوة إلى التعلُّم؛ فالعلم طريق إلى الإيمان.

- تأكيد معنى الحرية؛ فالإسلام أعطى الحرية الكاملة للإنسان فيما يفعل، وهي مقيَّدة بعدم المساس بثوابت الإسلام والإساءة إليه.

- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فما أصاب المسلمين وما يصيبهم بسبب أنهم غير متَّحدِين؛ قال تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦]، فهدف رجل الإعلام هو الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين.

- دعم اللغة العربية الفُصحى والتمسُّك بالدعوة إليها، فالفُصحى هي لغة القرآن، ومن أسباب فرقتنا عدم مُحافظتِنا على هذه اللغة، فاللهجات المحلية المتفرِّقة، والدعوة إلى الكتابة بها، وجعْلُها لغة التعليم ووسائل الإعلام = تسبِّب الافتراق، ويقع على عاتق رجل الإعلام بيانُ هذا.

- بعث الفكر الإسلامي الأصيل، والتِماس مَنابِعه في القرآن والسنَّة، فكل مقوِّمات الحضارة موجودة في الفكر الإسلامي، وأكثر العلوم الحالية أصلُها إسلامي.

- بناء الحضارة الإسلامية المعاصرة، ونحن ندعو إلى الماضي ولا نفرِّط فيه، بل يكون هناك ربط بين الماضي والحاضر.

- تجلية مَحاسِنِ الإسلام ومزاياه، وتقريب مفاهيمه وحقائقه حسب قدرات الناس ومداركهم.

- الربط بين الدين والعلم، والعلم والدين والأخلاق، وبين الدين والتربية والمجتمع، وبين الدين والدنيا.

- بثُّ الفضائل الأخلاقية والسلوك القويم والعادات الإسلامية السليمة؛ مثل: الوصاية بالجار، ورد الحقوق إلى أهلِها، وكفالة اليتيم، والعناية بالأرملة، فالإسلام من حيث المعامَلات الأخلاقية، يقوِّم السلوك الإنساني، ورجل الإعلام ينبغي أن يكون متَّصفًا بهذه الأخلاق ثم يدعو إليها، ليكون كلامه مؤثرًا ودعوته مقبولةً، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم معروفًا بين قومه بالصادق الأمين.

- حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الخارجية والمزاعم الباطلة؛ وذلك بالرد عليها والعمل على نَشرِ المعلومات والأخبار الصادقة.

- غرس مبادئ الإسلام والثقافة الإسلامية على مستويات مُختلفة؛ أهمها: الأسرة - المدرسة - المسجد - وسائل الإعلام المختلفة، بما فيها وسائل النشر؛ من صحافة وكتُب وإذاعة وتلفاز.

- إنشاء المعاهد والكليات الإعلامية المتخصِّصة الإسلامية.

- الاستيعاب الحق لتقنيات الوسائل الإعلامية الحديثة عِلمًا وممارسة.

- الاهتمام بالجانب الترفيهي الهادف من خلال برامج ومَشاهد وصفحات.. إلخ.

- هذا، ويمكن أن تكون أهداف النظام الإعلامي، هي عينها الأهداف الكبرى، التي يسعى المجتمع بكافة أنظمته ومؤسساته إلى تحقيقها، والتي يُمكن إرجاعها الى أصول كبرى، تتمثَّل في ترسية عقيدة التوحيد في النفوس، وتحقيق السيادة لشرع الله، وتثبيت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبناء مجتمع طاهر نقي عفيف كريم، وشمولية في الإعلام بدين الله أو هي في

تركيز شديد: تدعيم الإسلام وتعميمه؛ ذلك أن أي نشاط إعلامي يَصدُر عن مسلمين في نطاق بناء حياة إسلامية مُتكاملة لا يتصوَّر أن تُغاير أهدافه أهداف أنشطة أخرى يقومون بها للغرض نفسه[١٩].

ثالثًا – الغاية من الإعلام في الإسلام:

إن الغاية يجب أن تكون أساسًا إرضاء الخالق – جلَّت قُدرته – حتى لو لم يرضَ بعض الخلق، وليست إرضاء بعض الخلق بغضب الله – عز وجل.

وإذا كانت الغاية هكذا من أنبل ما يكون، فإن رجل الإعلام يتحرى الدقة والأمانة في تبليغه وتعليمه وترتبيتِه، ويبحث عن كل ما فيه خير الأمة ونفعها، لينال رضى خالقه ومثوبة من عنده؛ قال – عز وجل –: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل: ١٩ – ٢١].

وليسَت غاية الإعلام في الإسلام غسيل رؤوس العباد – كما هو في كثير من الأنظمة الحديثة – حتى تتسع لكل التقلبات، ولا عملية تخدير حتى تتقبَّل الأمة أمرًا خطيرًا ما كانت لتقبله لولا هذا التخدير[٢٠].

---

(١٩) انظر في أهداف الإعلام الإسلامي: بعض سمات الدعوة المطلوبة في هذا العصر؛ أبو الحسن علي الحسني الندوي، المدينة المنورة: مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية، (من بحوث المؤتمر الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة) (ص: ٧، ١٣)، والدعوة الإسلامية: مفهومها وحاجة المجتمعات إليها؛ محمد خير رمضان يوسف، الرياض: ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م، (ص: ٢٥ – ٢٦)، ومحاضرات ألقاها الشيخ زين العابدين الركابي، مصدر سابق، وأصول الإعلام الإسلامي وأسسه: دراسة تحليلية لنصوص الأخبار في سورة الأنعام؛ سيد محمد ساداتي الشنقيطي، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، (١: ١٢ – ١٣).

(٢٠) انظر – بتصرف –: الإعلام موقف؛ محمود محمد سفر، جدة: تهامة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، (الكتاب العربي السعودي: ٦٣) (ص: ٦٢ – ٦٣).

(نشر في مجلة "هدي الإسلام" التي تصدرها وزارة الأوقاف بالأردن، مج ٤٠ ع ٧ (١٤١٧ هـ)).

ولم أكتب للمجلة، وهو مأخوذ من كتابي "من خصائص الإعلام الإسلامي" الذي أصدرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة "دعوة الحق".

(ج)
التوازن الإعلامي
(الإرهاب أنموذجًا)

مازلنا نشكو من السيطرة الصهيونية على الإعلام ووسائله عالميًّا، على الرغم من استحداث وكالات أنباء وفضائيات عربية وإسلامية عديدة.

وإذا كانت الأحداث الكبيرة المعلن عنها تحدث على أرض العرب والإسلام، فإنها تصنَّع إعلاميًّا في الخارج، وتعودُ إلينا بأسلوب وتوجيهٍ آخر موافق للفكر الغربي والإعلام الصهيوني، وتبث في قنواتنا الإعلامية هكذا، وبحرارة!

وكأننا عبيد للمنظومة الإعلامية الغربية فكرًا وإعلامًا، ووسيلة وأسلوبًا!

ولنأخذ (الإرهاب) مثلاً، الذي صُنع مصطلحه وإعلامه في الغرب، وردَّدته الحكومات عندنا واستعملته كما هو!

والغرب يريد به كل مسلم حمل السلاح، أو وافق على حمله، ضد الكيان الصهيوني، أو ضدَّ الغرب، أو ضدَّ أي طاغية مرتبط بهم، ولو عمل قتلاً وتدميرًا في شعبه بما يخالف جميع المواثيق والعهود المتفق عليها عالميًّا!

بل يريد بالإرهاب كل مسلم مخلص لدينه، لا يحبُّ سياسة الغرب ومثُله...

وقد نطق بهذا أعلام ومسؤولون كبار في الغرب، منهم الرئيس الأمريكي نيكسون في كتابه "الفرصة السانحة" مبينًا قصد الأمريكيين من "الأصولية الإسلامية"، فقال: "إنهم هم الذين يريدون بعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعل الإسلام دينًا ودولة، وهم وإن نظروا للماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار"!

وقالت مارجريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية السابقة: "إن تحدي الإرهاب الإسلامي إنما يشمل حتى الذين أدانوا أحداث ١١ سبتمبر وابن لادن وطالبان، يشمل كل الذين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع الغرب"!

وكتب المفكر الأمريكي فوكو ياما في العدد السنوي "للنيوز ويك" (ديسمبر ٢٠٠١ م – فبراير ٢٠٠٢م)، يقول: "إن الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب، ولكنه ضد العقيدة

الإسلامية الأصولية، التي تقف ضد الحداثة الغربية وضد الدولة العلمانية، وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثل خطرًا أكثر أساسية من الخطر الشيوعي، والمطلوب هو حرب داخل الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية والعلمانية الغربية والمبدأ المسيحي: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

ولا يقصد بهذا المصطلح أية جماعة أخرى من أية ديانة كانت، ولو فعلت ما فعلت وزيادة! فهو مصطلح مقصود ألصق بـ (الإسلام) و(المسلمين) لتدمير نفسيتنا وعزيمتنا وسمعتنا ومبادئ ديننا بين الأمم.

وهكذا تردده الحكومات ووسائلها الإعلامية في بلادنا، وتعين بذلك أمريكا ودول الغرب على تحقيق أهدافها فيما تريد منا!

ومن موازين الإعلام التي لا يختلف فيها أن يُعلن عن الحدث كما هو، وأن يُعطى الخبر حقه من تسليط الضوء عليه، وإيجازه أو تفصيله بما يستحق، مقارنة بالأخبار والأحداث الأخرى.

وكما يعرف القارئ فإن مصطلح (الإرهاب) هو أكثر المصطلحات استعمالاً في وسائل الإعلام عالميًّا، والمقصود به (٩٩٪) هم المسلمون!

ولننظر حقيقة أي الأطراف أكثر إرهابًا واستحقاقًا بهذا الحجم من الإعلام فيه.

إن الإرهاب لا يكون إرهابًا إلا إذا صاحبته قدرة حقيقية على التخويف والإصابة والتدمير بشكل لا يتصور..

وإن حجم السلاح الموجود في الغرب لا يقارن بما عند الجماعات الإسلامية التي توصم بالإرهاب، فالغرب يملك من الأسلحة النووية والفتاكة والمبيدة ما لو استعمله كله لما بقي حيٌّ من الأحياء على وجه الأرض، لا إنسان ولا حيوان...

والجماعات عندنا لا تملك عشر معشار هذه الأسلحة، ولا أقلَّ من هذه النسبة عشرة معشار أخرى، بل إن ما تستعمله من أسلحة تعتبر بدائية عند الغرب، وكانت بعض التفجيرات التي تصنعها حتى وقت قريب من روث الحيوانات، وما إلى ذلك من موادَّ وطرق بدائية وصعبة، ولا تُحدث آثارًا إلا في مساحة محدودة.

فإذا وجد عندها ما هو أقوى، يكون مصدره الغرب.

والغرب يستخدم تقنية عالية وسريعة ومصانع ضخمة لإنتاج أفتك الأسلحة وأكثرها تدميرًا وإبادة، وتبيع منها بالمليارات سنويًّا..

فمن أكثر إرهابًا؟ الغرب أم الجماعات الموصوفة بالإرهاب؟

وأين التوازن الإعلامي في هذا ببلادنا أو في غيرها؟

وهل يُذكر الغربُ في الإعلام على أنه الإرهابي الأول والحقيقي؟

ونتيجة سوء استخدام مصطلح (الإرهاب) لم تعد الشعوب المسلمة تثق بحكوماتها في إعلامها، لأنها لا تعطي مدلولاً صحيحًا لهذا المصطلح، ولا تذكر الإرهاب الحقيقي المسلَّط علينا من الغرب، وحجم قوته الضاربة الجاهزة ضدَّنا.

ونتيجة هذا الإعلام (الأعور) أو (الأعوج) في بلادنا، صار هناك تفاوت ثقافي طبقي واسع بين الحكومات والشعوب، وبين فئات من الشعب نفسه، التي تصدِّق ما يقال في وسائل الإعلام، فتكون فئة مع الغرب وإعلامه الموجَّه الكاذب، وأخرى مع الحقيقة.

إن التوازن الإعلامي مطلوب، وخاصة في المجتمع المسلم، الذي ينشد الأخوَّة لا العداوة، فهم جميعًا إخوة، وينبغي أن يزيد الإعلام من هذه الآصرة ويثبتها، ولا يكون سببًا في انقسامه وتشتته إلى طبقات متناقضة أو متعادية..

إن التوازن الإعلامي يعيد ردم هذه الفجوة، ويعيد المجتمع المسلم إلى قاعدته في الألفة والمحبة، وفي التواؤم والتعاضد، أما عدم التوازن فيبثُّ الكذب ويطمس الحق ويثبت العداوة بين المسلمين!

وكان في سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى من يدرك هذا المنحى في التوازن منذ القرون الأولى في الإسلام، ويعرف خطورته على بنية المجتمع المسلم..

وأذكر منهم في هذا المجال الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله (لعله هو)، المتوفى سنة ١٩٨ هـ، الذي كان واسع العلم، كبير القدر، عُرف بمحدِّث الحرم المكي..

لم يرد هذا العالم أن يكون تخصصه في الحديث الشريف مبعدًا إياه عن واقعه، بل خدم به مجتمعه، وغاص في أنحائه، وضمد به جرحًا غائرًا فيه..

وكانت آثار الفرقة بين صف علي ومعاوية رضي الله عنهما مازالت تجد صدى لها بين بعض المسلمين، وخاصة في الكوفة والبصرة، فكان إذا مضى إلى الكوفة – وفيها أنصار عليّ – حدَّث بفضائل معاوية، وإذا كان في البصرة – وفيها أنصار معاوية – حدَّث بفضائل عليّ!

والهدف تقريب الفجوة بين الفريقين، بأن لا يقتصر كل طرف على المغالاة في فضائل واحد دون الآخر، بل على كلٍّ أن يعرف الآخر على حقيقته، ويعرف فضائله، فيحدث بذلك توازن إعلاميّ واجب في المجتمع، حتى يلتقي الطرفان على المحبة الإيمانية والأخوة الإسلامية المطلوبة منهما..

فهم إخوة، وعليهم أن يتعايشوا ويتجاوروا متحابين في الدين، ويعلموا فضائل كل من الصحابيين، ويغضُّوا الطرف عن أخطائهما وقد سلف زمانهما ومضى، ولا نُسأل عنهما ولا عن أعمالهما..

كانت تلك إضاءة أولية لموضوع (التوازن الإعلامي)، الذي ينبغي أن يأخذ حقه علميًّا وأكاديميًّا، ويُدرس بتوسع، ويطبق واقعًا.. ليعرف المسلم حقيقة ما يجري وما يقال، ولا يلقَّنَ أوهامًا وتضليلاً وخداعًا..

وكان ما عولج واقعًا عمليًّا عن المفهوم الذي أُعطي للإرهاب..

أما الحقيقة التي ينبغي أن تقال، فهي أن العدوَّ يجب أن يُرهَب، وينبغي على المسلمين أن يُرهبوا أعداءهم بما أُعطوا من قوة وسلاح، وإلا حصدوهم قتلاً، وأثخنوهم جرحًا، وسيطروا على مواردهم، واحتلُّوا بلادهم.. كما حدث لنا قريبًا، وكما يريد أعداؤنا أن يفعلوا بنا ذلك مرة أخرى..

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ **تُرْهِبُونَ** بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [سورة الأنفال: ٦٠].

اللهم ألهمنا الرشد، وجنِّبنا الذلّ.

(د)

الإعلام البُهت

ما أكثرَ الزورَ والتلفيقَ والبهتانَ في إعلامنا المعاصر!

وما أقلَّ خشيةَ المصابين بهذا الداءِ فيه،

وما أكثرَ ما تنتكسُ ضمائرهم بذلك،

إنهم يقولون الزورَ ثم ينامون وكأنهم لم يفعلوا شيئًا!

وكأنهم لم يظلموا، ولم يكذبوا، ولم يلفِّقوا، ولم يزوِّروا الحقائق!

وهم يجعلون الحقَّ باطلًا، والباطلَ حقًّا!

وهم مسلمون!

وقد يصلي بعضهم ويصوم!

فبماذا يجيبون ربَّ العالمين إذا حاسبهم على كذبهم وبهتانهم؟!

إنهم يغتابون أقوامًا وأفرادًا ويلصقون بهم تهمًا لا أساسَ لها،

ويصفونهم بأبشعِ الأقوالِ وأخسِّ الصفاتِ وهم منها براء!

وإذا مدحوا اخترعوا لهم صفاتٍ حسنةً وهم غُفلٌ منها.

إنه صناعةُ الدجلِ والكذبِ والضرار،

لا إعلامُ الحقِّ والاستقامةِ والنهجِ العدل.

وقد شدَّدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على قولِ الزورِ وحذَّرَ منه تحذيرًا،

وما زالَ يكرِّرُ التحذيرَ حتى تمنَّى صحابتهُ رضوانُ الله عليهم لو سكت!

وكان عبدالله بن سلام من أحبارِ اليهود،

ويقولون عنه: "سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا وعالِمُنا وابنُ عالِمِنا وخيرُنا وابنُ خيرِنا"!

وعندما أسلمَ رضيَ الله عنه لم يصدِّقوا ذلك،

حتى خرجَ إليهم فقال: "أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله".

فقالوا: "بل هو شرُّنا وابنُ شرِّنا وجاهِلُنا وابنُ جاهِلِنا"!

فقالَ رضيَ الله عنه: "ألَمْ أُخبِرْكَ يا رسولَ اللهِ أنَّهم قومٌ بُهْتٌ"!

فكم من بُهتٍ في إعلامنا؟

وكم من إعلاميٍّ يتشبَّهُ بقومٍ بُهت؟

(الحديثان رواهما البخاري وغيره، وفيه نصهما الكامل، ولفظ الأخير من صحيح ابن حبّان ١٤٥٠٦).

(هـ)

موقع للأشرار.. وآخر للأبرار

الشابكة ساحة عالمية كبيرة لكل الناس، وفيها مواقع للخير وأخرى للشر، ومن المؤسف أن مواقع الشر تجذب كثيراً من الناس، ليس لأن كلهم أشرار، بل إن كثيراً منها تُزار حباً في الاستطلاع لا غير، وتكمن المشكلة في أن الزيارة الأولى تجذب الثانية، وهكذا يغدو الزائر مدمناً، ومن ثم قد يَزيغ بعض الناس ويصير فاسداً وشريراً ومنحرفاً! وهذا ما حدث لكثيرين!

ولذلك يُنصح المسلمون الذين يبحثون في الإنترنت إلا يزوروا تلك المواقع أصلاً، ولا شكَّ أنه لو قيل لواحد منهم إن مجرمين، أو شياطين، أو مدمني مخدرات وسكارى موجودون في مكان معين، فإنه غالباً ما يتحاشاهم ولا يريد المرور بهم، لأنه يعرف أن أمرهم كله سوء وشر، وبضاعتهم الإجرام والفساد، فلماذا يذهب إليهم وهو يعرف شأنهم؟ وكذلك هي المواقع السيئة، فأي فائدة في حب الاستطلاع لها.

إن المسلم بطبيعة تربيته الإسلامية يبغض الانحراف وقلة الأدب واستعمال الكلمات البذيئة والمصطلحات السافلة، وهو يعرف أن الهدف من المواقع التي تتخصص في مثل هذه الأمور المتدنية هو هدم الآداب والفضائل في المجتمعات، وقتل روح الغيرة والالتزام عند الشباب خاصة.

أقول هذا وقد مرَّ بي ذكر موقع ألماني "خاص بالأشرار"! ممن يكرهون العالم ولا يطيقون واحداً من حولهم، وينقمون على كل شيء!

فبدل أن يوجّهوا هؤلاء إلى الخير، ويحلُّوا مشكلاتهم وعقدهم النفسية لئلا يكونوا شاذين عن الناس ومنحرفين في المجتمع، زادوا في انحرافهم وكرسوه في نفوسهم، وأنشأوا هذا الموقع لهم ولأمثالهم للتواصل مع أقرانهم من الكارهين والمبغضين والحقودين والنقمين، وقد أطلقه معهد العلامة التجارية العلمية (لعله في عام ١٤٢٨ هـ)، وهدفه "مساعدة" الذين يعشقون الكراهية، فيدعوهم إلى توزيع الكراهية بالتساوي على الأشياء! كما "يساعد" زواره على اختيار الكلمات الكريهة التي يريدونها، والمساهمة في أبواب النميمة والشتائم وتبادل السباب!!

إننا -معشر المسلمين- ندعو إلى البناء لا الهدم، وإلى التصحيح لا التمادي في الخطأ والضلال، ونطلب الهداية والصلاح وحسن الحال لجميع المجتمعات، ونحن نعلم أن الشر والفساد والكراهية تزيد الأخطار والأمراض الاجتماعية في العالم، وتسبب الجرائم والحوادث الفظيعة، وإن واجب الدعوة والإصلاح يوجب علينا نبذ هذه الدعوات وأمثالها، والمسلم صاحب رسالة تحمل الخير والبرَّ والنصح للناس، فلا يجوز له أن يكون عنصراً مهادناً أو مساهماً أو موافقاً للمواقع المغرضة والمشبوهة {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ} [سورة النحل : ٩٠] وعلى الأولياء أن يأخذوا تعهدات ممن يتولونهم بألا يزوروا المواقع السيئة والمغرضة، وإذا لاحظوا عليهم انحرافاً خلقياً أو تعاملاً شاذاً لم يعهدوه منهم، فعليهم تداركه ومعالجته قبل استفحاله.

ولست مطلعاً على المواقع الإسلامية كلها، وأقترح مقابل ذلك الموقع وأمثاله إنشاء موقع "الآداب والأخلاق الإسلامية"، الذي لا شك أنه من الممكن أن يزوَّد بأفضل المواد والموضوعات الأخلاقية الطيبة، من القرآن والسنة، وشمائل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وسلوك الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والتابعين الأجلاء رحمهم الله، وسير أخرى مبثوثة في كتب التاريخ والتراجم، بالإضافة إلى لقاءات مع أعلام الدعوة والتربية الإسلامية في العصر، وإبراز الكتب والبحوث التي ألفت في الفضائل الإسلامية ومكارم الأخلاق، القديمة والحديثة، ولعل أوسعها وأكثرها جمعاً لهذا الشأن هو "موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: موسوعة قيم أخلاق التربية الإسلامية لما أمر به ونهي عنه في الكتاب والسنة" التي أصدرتها دار الوسيلة بجدة سنة ١٤١٨ هـ في (١٢) مجلداً. ولو أنه خزِّن في الموقع لكانت الفائدة منها ظاهرة. والله الموفِّق.

(٨)
الشباب

(أ)
مع الشباب

لم تعد الكتابة سهلة عن الشباب مثل قبل، فقد ازدادت الحياة تعقيداً، وزادت معها علاقة الشباب بجوانب الحياة، الإعلامية والترفيهية خاصة، وصار الحديث عن الأخطار المحدقة بهم أكثر منها عن الآمنة حولهم.

الحديث عن الشباب في تراثنا الإسلامي كان أكثره عن أربعة جوانب: طلب العلم، والجهاد، والعمل، والأدب.

فقد كانت الحياة جادة ومهيأة للشباب، في ظل حضارة تحثُّ على الإيمان، والبناء، والدعوة، والعلم، فكان الشباب زهرة الحضارة وعطرها، وإذكاءً لها وحفاظاً عليها، كانوا جادِّين في العلم خاصة، يرحلون في طلب العلم سنوات طويلة، يتركون الأهل والمال والوطن، ويعملون ويتاجرون في البلدان بما يساعدهم على الرحلة والتزود بالزاد.

ومنذ سنوات ليست بالطويلة، كان المثقف يكتفي بمذياع عند رأسه يعرف منه أخبار بلده وأخبار العالم، ويملأ سائر وقته بالمطالعة والعمل...

واليوم صارت أدوات العلم كالترفيه للشباب، فالشبكة العالمية للمعلومات وسيلة ثقافة وترفيه معاً، وصار الشاب لا يستغني عن بريده الإلكتروني، وقد يستغني بهما عن الأصدقاء أوقاتاً طويلة، ولكن أين التوجيه في هذا كله؟ وما هي الضوابط التي تتحكم بالشاب ليوزع مهامه بين العلم، والترفيه، والعمل، والعلاقات الاجتماعية؟

إن أساس هذا كله ليس المدرسة، فالمدرسة تعني المدرِّس والصديق، وكلاهما أصحاب مواقف وآراء مختلطة، قد تفيد وقد تؤذي.

وليس هو الشارع بالتأكيد، فإن فيه الوفي الوديع، والمجرم العاتي.

وليس هو وسائل الإعلام، التي صار معظمها وباء وسماً زعافاً ينشر الفساد والرذيلة...

ويبقى البيت والمسجد هما حضن التربية والتوجيه، يبقى توجيه الأب الملتزم المتدين، الذي يحرص على نجاة ابنه من فتن الدنيا ونيران الآخرة، فيوجهه بما يناسبه، ويتخذ الإسلام مبدأ وميداناً رحباً بينهما، ويربط علاقاته بأهل الخير والدين من أهله وجيرانه وأصدقائه، ويجعل آداب البيت متناسقة وممهدة لتقبل هذه التوجيهات، بحيث إن الابن أول ما تطأ قدماه البيت، يعلم أنه في جوٍّ خاص به وبإخوانه وبوالديه، ويتكيَّف مع هذا الجوِّ وينشأ عليه، ثم يحافظ عليه ويدافع عنه، ويحاول هو أن يُنشئ إخوانه عليه، حيث رأى فيه نجاته من كوارث وجرائم وعقوبات طالت أصدقاءه لأنهم لم يلتزموا بأدب ودين، فكانت عاقبتهم قاسية ومحبطة وكارثية، وهو التزم بالدين والأدب، وصار في أمن واستشراف مستقبل قريب.

إن الإسلام هو ملجأ كل من يطلب النجاة، الذي يرى فيه كل ما يناسب عقله وفطرته، وتوجهه نحو الأفضل والآمن، وهذا ما يجده المرء عند والده المؤمن، وفي المسجد، حيث العالم المرشد، والأخ الناصح، والعبادة لرب الخلائق.

وإن صحبة العالم، والتعلق بالدعوة، يفتح آفاقاً جديدة في عقول الشباب وقلوبهم، فيشعرون بمسؤوليتهم أمام مجتمعات منحرفة، وشبابٍ يقع في الموبقات، ويرون أنفسهم بفكرهم المستنير، وقلوبهم المؤمنة، وعاطفتهم الجياشة، ونشاطهم وحركتهم، أنهم رسل إصلاح، ورجال إنقاذ، ومحطات أمان.

والشاب لا غنى له عن عالم يكون مرجعاً له، أو صديق أكبر منه عرف إخلاصه في الدعوة، وليُعلم أن من لا شيخ له فالغالب عليه الجدال والتمرُّد وعدم التناسق في العلم والثقافة، إلا من رحمَ ربي، ومن له شيخ فالغالب عليه الأدب والعلم، والعلاقة الطيبة، والهدوء والرزانة، والحكمة والتعقل، والله الهادي.

(ب)
عبث الشباب

الذي يتذكر خطب الرئيس أنور السادات، يذكر أنه كان لسِناً فصيحاً، يساعده فيها صوت جهوري قوي، مع تلوين ولحن وأداء عجيب، ولكن عيبه فيها أنه كثيراً ما كان يقول في آخر جُمل: وَ... وَ... وَ...، يعني: إلى آخره. وأذكر أثناءها أن نجاح العطار، وزيرة الثقافة السورية آنذاك، نقدت السادات في ذلك، وكتبت مقالاً في إحدى الصحف السورية بعنوان: واوات السادات.

تذكرت هذا وأنا أرى عبث الشباب في كتابات جديدة ظهرت لهم في الشبكة العالمية للمعلومات، وفي بريدهم الإلكتروني، ورسائل الجوال، فإذا كتبوا (مرَّة) وضعوا لها أربع أو خمس راءات، وإذا قالوا (يا سلام) جعلوا الألف الأخيرة ألفاتٍ عدَّة، وإذا شكروا كتبوا سبع أو عشر واوات لكلمة (مشكور)، وهكذا.

وهو من عبث الشباب وترَّهاتهم التي تجرُّ وراءها أمورًا أخرى، وهي الكتابة بالعامية، كل بلهجته، في عشرات اللهجات المنتشرة في العالم العربي، حتى صار ذلك ظاهرة منتشرة جداً في الكتابة، وقد يدخل في هذا شيء من الميوعة. وإن الأمر يؤسف له، وهو استبدال لغة عامية دارجة بلغة القرآن الفصيحة!

وجرَّ هذا الحديث إلى تصرُّفات أخرى تذكرتها لشباب، يتساهلون فيها بالآداب العامة، ويتخففون من المسؤولية، مثل الكتابة على الحيطان، التي تعطي واجهة مزرية للمدينة، ولا تعبر عن حضارة وخُلق، وقد تبقى هذه الخطوط القبيحة، وبعضها عبارات سيئة ومشينة، شهوراً وسنوات على تلك الحيطان. وآخر ما رأيت منها، مدرسة جددت دهان مدخلها الكبير في آخر العام الدراسي، فوجدت مكتوباً عليها بخط عريض وكبير ملأت نصف الحائط: (للبيع: المدرسة مع المدير)!

ومن ذلك هذه الملابس الفاحشة التي يرتديها الشباب تقليداً للغرب، مثل البناطيل القصيرة التي تأتي قريبًا من الركبة أو تحتها، فلم أر أفحش منها منظرًا، ومع ذلك يرتديها الشباب لا

لشيء إلا لأنها أحدث (موديل)! ولو طلب منهم لبس ثوب يقصر عن الكعب للسنَّة لما فعلوا، ولكنهم أكثروا من شبيهٍ به وهو تقليد للغرب وأهلها!

وعادة أخرى تذكرتها لبعضهم، وهي إيقاف سياراتهم في أزقة وشوارع ضيقة، أو في وسط شوارع واسعة شعبية، وحديث بعضهم مع بعض، كل في سيارته، ويطيلون الحديث ووراءهم من ينتظر العبور، فيقفون لينحرفوا إلى جهة اليمين أو اليسار، أو هم يجدون صعوبة في العبور لضيق الشارع، أو يرجعون فيدخلون في شارع آخر.

إنها اللامبالاة، والعبث بحقّ الطريق، الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُعطى حقَّه!

ومما يؤسف له من عاداتهم أيضاً وضع الأحذية عند الدخول إلى المساجد، فلا تكاد تجد أحداً منهم يأخذ نعله ويضعه في المكان المعدِّ له، بل يضعه أمام الباب، أو على الأرض أينما وجد فراغًا، أو فوق الأحذية. وعند الخروج ترى الفوضى في البحث عنها وقد طاشت، لأن خلعها أيضاً كان بفوضى، ولأن من يلبس نعله يضطر أن يدعس على غيرها...

ومن المؤسف أن يكون هذا فوضى عامة للمرتادين إلى المساجد، لا تخص الشباب وحدهم! وأذكر كلاماً لأستاذنا الشيخ أحمد العسّال رحمه الله (الذي توفي هذا العام ١٤٣١هـ) في محاضرة له: انظروا إلى الغرب أين وصل ونحن مازلنا لا نعرف كيف نرتب أحذيتنا!!

إن هذا الأمور التي ذكرتها لا تعدُّ ثانوية كما تظهر لأول وهلة، لأنها تدلُّ على نفسيةٍ وشخصيةِ جيلٍ يُطلب منه أن يقود البلاد في المستقبل، فإذا لم يكن باستطاعته أن يضبط عاداته ويوجهها نحو الأفضل، فإنه يدل على خلل في التركيبة الفكرية والسلوكية له، التي لا تبشر بمستقبل عال ومتزن، وعلى الشباب أن يكونوا قوة في الدفع نحو الأفضل، لا تكريساً لعادات وتصرُّفات وظواهر غير مقبولة.

والذي يعجبني في الشباب هو الأدب، والرزانة، وحب المسؤولية، والاهتمام بالعلم، والنشاط المفيد، والنظر في المستقبل، والتمسُّك بمكارم الأخلاق، والاهتمام بالأمَّة، وفداء الدين بالنفس، وترك الجدل والمخاصمات الفارغة التي لا تأتي بخير، والإقبال على ما ينفع، للأسرة، والمجتمع، والوطن.

(٩)
الاختلاف والوحدة

(أ)
عقولٌ صغيرة

كتبَ أحدُ الأساتذةِ الفضلاء،

وكنتُ مهتمًّا بكتاباته،

أنه لا يلتقي مع الإمامِ الغزالي في أصولِ الدين،

لا في أصولهِ ولا في فروعه!!

وهل العقيدةُ إلا أصولٌ وفروع؟

وعلى ماذا يلتقي المسلمون إذا لم يلتقوا في العقيدة؟

أليستِ العقيدةُ هي التي تجمعهم؟

فهل صارت هي التي تفرّقهم؟

وكم يفرحُ أعداءُ الله بمثلِ هذه الكتابات،

وخاصةً في هذه الظروفِ الصعبةِ التي تمرُّ بها الأمة،

والتي تحتاجُ فيها إلى اجتماعِ الكلمة؛

لتجتمعَ فيها القوة.

وليُنظَرْ كيف جمعتْ إيرانُ جميعَ الفرقِ والأحزابِ الشيعيةَ تحت مظلّتها،

فصارتْ قوية،

وإن كان الشيعةُ قلّة،

بل اجتمعَ أهلُ الكفرِ في أحلافٍ ومنظمات،

فصاروا أقوَى مما كانوا قوة،

ونحن مازلنا نفترق،

ونزدادُ فرقة،

ولا ننظرُ إلى المصالحِ الكبرى لأمتنا،

بل ننتصرُ لآراء،

ونثيرُ خلافات،

وإن أدَّى ذلك إلى ضعفِ الأمة،

أو إلى ضياعها!

فإلى متى تَصغرُ عقول،

وتذلُّ نفوس؟!

(ب)
خلافاتنا صغرى وكبرى

الجذور الوطنية والتعصب القومي والنشأة التربوية صارت تؤثر في قرارات المسلمين تجاه الوقائع والأحداث المعاصرة،

على الرغم من أن دينهم واحد.

قم بإحصائية لمعرفة الآراء حول استقلال كردستان بين مسلمين كردٍ ومسلمين عرب وآخرين أتراك،

سترى الفرق شاسعًا،

حتى بين علماء هذه القوميات!

على الرغم من أنهم يستقون أحكامهم من الكتاب والسنة!

فما موقع الدين والقومية أو المذهبية في النفوس؟

وما مدى سلطتها على قرارات العلماء،

وعلى ثقافة الشعوب الإسلامية،

في هذا وغيره من الأحداث والوقائع؟

ومن المؤسف أن المجامع الفقهية نفسها تختلف بعض أحكامها عن أحكام مجامع أخرى، بسبب سلطة الحكومات عليها!!

من مجمع فقهي عربي، وآخر أمريكي، وثالث أوروبي، ورابع عالمي!

فأين نجد القرار الشرعي الصافي، وكيف، ومتى؟

في أمور عظيمة كثيرة تحدث في تاريخنا المعاصر؟

فلا عجب أن نرى المسلمين إذن شذر مذر،

وفي نزاع وخلاف وخصام مستمر...

إن النزغات القومية، والعواطف الوطنية، والتعصبات الحزبية، والحزازات المذهبية،

ينبغي أن تكون بعيدة عن الاجتهادات الفقهية والأحكام الشرعية في دين الله تعالى.

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا نبذله لوجهك لا لغرض آخر.

اللهم اجعلنا ممن إذا علمنا خشينا،

وإذا قلنا أصبنا،

وإذا حكمنا عدلنا.

اللهم اجمع كلمتنا على الحق.

(ج)
الفرقة الذبابية

كُتِبَ عن الفِرق والطوائف والأحزاب كثيرًا، ولكن لم أرَ من خصَّ "الفرقة الذبابية".بمقال أو كتاب، على الرغم من معرفة كل المثقفين المسلمين بها في هذا العصر، وخاصة بعد كثرة الانشقاقات، وتعدد الأحزاب والجماعات في الأمة. فقد انتشرت هذه الفرقة ووصلت كلماتها المقذعة إلى صماخ الآذان، وأعماق القلوب، من خلال الوسائل المقروءة خاصة.

وليتها اكتفت بالصراخ في الأذن الخارجية، وجرحت غشاء الطبل، ووقفت في ساحة الأذن الوسطى... إلا أنها لا ترتوي ولا تهنأ ولا يبرد غيظها وقيظها حتى تجرح القلب، وتدخل في صميمه، وتعبث فيه حتى تُمرضه وتقلقه وتفتت شيئاً منه، عند ذلك ترتاح، وتتنفس الصعداء، وتعلم أنها قد حققت هدفها الأساسي!!

هذه الفرقة تظنُّ أنها أخذت على عاتقها رسالة الإسلام الصحيحة دون كل المسلمين، وأنها هي المخوَّلة لتصحيح ما علق بأفهام المسلمين من اعتقادات خاطئة، واجتهادات سقيمة – في نظرهم–، وكأنهم وحدهم يأخذون من الكتاب والسنة، وباقي المسلمين يأخذون من مصادر أخرى!

فإذا قيل لهم إن لهم أدلتهم، والأمر متوقف فيه، أو مختلف فيه منذ القدم، فالتمسوا لهم العذر كما فعل إخوانكم من السلف سابقاً، رفعوا عقيرتهم، فبدَّعوا وفسَّقوا، وقالوا: من لم يكن على رأينا أو اجتهادنا فليس من أهل السنة والجماعة، وكل الفرق ضالة إلى النار ماعدا الذي نحن عليه.

فإذا قيل لهم إن السلف من الصحابة والتابعين لم يتكلموا في هذا الموضوع أصلاً، وصانوا ألسنتهم من الخوض فيما لا علم لهم فيه، وكانوا أكثر فهما منا للدين، فلماذا لا يسعنا ما وسعهم، ولماذا لا نقتدي بهم في هذا؟... لم يتوقفوا كما توقف السلف، بل قالوا: هذا ما قال فيه فلان وفلان كذا وكذا، وهو قول السلف، ومذهب أهل السنة والجماعة، ومن لم يقل بذلك فليس منهم ...

وإذا ردوا على مخالفيهم جمعوا في كتاباتهم أقسى وأفظع وأكثر الكلمات جرحاً وإيلاماً، وهم إخوانهم في الدين، يتشهدون كما يتشهدون، ويصلون كما يصلون، ويجاهدون كما يجاهدون، ويفدون دينهم بأعز ما يملكون، ويعذَّبون ويُسجنون، ويهانون ويُطردون، ويُمنعون من وظائفهم وحقوقهم بسبب دينهم... كل هذا لا يشفع عند الفرقة الذبابية شيئاً، فالمهم هو فرض الرأي والاجتهاد على الآخرين، فمن لم يقبل رأيهم، فلا قيمة له، ولا مكانة له عندهم.

وإذا كان إخوانهم أبطالاً مجاهدين، ودعاة أعلاماً في هذا العصر، يجمع الله بهم المسلمين، ويهدي على أيديهم آخرين، ولهم مؤلفات أفاد الله بها أجيالاً، وتربَّى عليها شباب واعدون، وفتيات في عمر الزهور، في هذا العصر المليء بالفواحش والمنكرات والمغريات، وطُبع من كتبهم عشرات الألوف من النسخ... لم يعجبهم هذا كله، على الرغم من أنهم لم يجدوا في حياتهم ما ينقص من سلوكهم ومروءتهم، فباتوا في قلق ووجوم، كيف أن هؤلاء الدعاة والمجاهدين لم يكونوا على فكرتهم وطريقتهم واجتهادهم...؟! فيجمعون كتبهم المباركة تلك، لا بقصد الاستفادة منها أو المشاركة في أجر توزيعها، بل للبحث عن أي شيء فيها لا يوافق اجتهاداتهم، ورصد أية كلمة زلُّوا فيها، لينفِّروا المسلمين منهم ويبغِّضوهم إليهم، فيجمعونها في كتاب، ويكبِّرون الخطوط، ويجمعون فيها أقذع وأقسى الكلمات، ككلمة الطغام، واللئام، والأغمار، والأفهام السقيمة العقيمة، والجهلة ، والسفهاء، والمضللين، وغيرها، التي لا أذكرها، نظراً لأنني إذا رأيت كتاباً بهذا الشكل، لم أقرأ فيه مهما كانت فائدته، وقد قرأت مرة مقدمة في كتاب، فيه كلمات مما ذكرت، فوقع الكتاب من يدي دون شعور مني، وكأن عقرباً لدغني، ومن قال إن الكلمات لا تلدغ ولا تجرح؟

لقد نبَّه العلماء إلى أن تتبع أخطاء العلماء فقط دون ذكر محاسنهم وأياديهم البيضاء في الدين، ليس من آداب الدين، وأن على المسلم التماس العذر لهم بقدر ما يستطيع.

ولعلَّ أحسن تمثيل قرأته في ذلك هو قول ابن تيمية رحمه الله في أمثال هؤلاء: "الجاهل بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير، ولا يقع على الصحيح" (منهاج السنة ٦/١٥٠). والعقير هو المعقور، يعني المذبوح، فيأتي الذباب على دمه وجلده وروثه بعد أن يُذبح، ولا يأتي على النظيف. ومن هنا جاء عنوان المقال.

وإن أجمل هدية أقدمها لمن يقوم بمثل هذه العملية، هو أن أن أعتبره من "الفرقة الذبابية"، التي تدلُّ – قبل كل شيء– على نشأته التربوية، فقد دلَّت حاله أنه إذا مرَّ بروض فيه زهور ورياحين، إما أن يبحث بينها عن الأشواك والطفيليات، أو أن ينزوي عنها ويبحث عن بقعة أو نبتة يجتمع عليها الذباب، فهذا ذو نفسية مريضة قبل كل شيء. وهناك علماء وإن كانوا على رأيهم، وأكثر تشبثاً منهم بما هم عليه، إلا أنك تراهم مؤدَّبين، يكتبون بأدب الإسلام، ويردُّون بأدب الإسلام، ويبتسمون في وجهك ولو كنت مخالفاً لهم في بعض ما يذهبون إليه. وأكثر الذين يتتبعون أخطاء أهل العلم ويستخدمون كلمات جارحة في كتاباتهم، هم كالفراريج التي تصيح بين الديكة، لا يهمهم أن تكون أصواتهم قبيحة ومنفِّرة.

إن الخلاف سيبقى بين المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإنهم لمبتلون بهذه الاختلافات، والله ينظر إليهم كيف يتصرفون، ثم يحاسبهم على تصرفهم، فإما مثاب مجزيّ، وإما معاقب معذَّب، إلا أن يعفو الله.

إن النصيحة قليلاً ما تنفع الذين يتتبعون عثرات العلماء، وسقطات الدعاة، فالتربية لها شأن عظيم، ومن رُضِعَ شيئاً لا يُفطمُ منه إلا بعد معالجة وتزكية وتوبة وشيء من العزلة.

ويذكر ابن القيم رحمه الله من خصال المروءة: ترك الخصام والمعاتبة والمطالبة والمماراة، والإغضاء عن عيب ما يأخذ من حقك، وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة! (مدارج السالكين ٢/٣٥٢).

وقد كانت نظرة الإمام أحمد بعيدة، عندما جيء له بكتاب "المدلِّسين" للكرابيسي، وهو لا يدري من وضع الكتاب، فلما قُرئ عليه قال: هذا جمع للمخالفين ما لم يُحسنوا أن يحتجوا به، احذروا عن هذا. ونهى عنه. نقله عنه المرُّوذي.

أقول: وقد يكون هذا التأليف عملاً علمياً مرغوباً ولا بأس به عند عامة أهل العلم، لكن نظرة الإمام أحمد وملاحظته كانت أرفع وأجلّ من نظرتنا إلى ذلك، فقد فكر فيما يورثه الكتاب من كراهية أهل العلم وبغضهم لهؤلاء المحدِّثين الأجلاّء، الذين جُمعت فيه أخطاؤهم دون أحاديثهم الأخرى الصحيحة، وأن هذا الأسلوب "المكروه" قد ينتشر بين العلماء في جوانب أخرى من العلوم الإسلامية، مما يؤدي إلى خروج العلم عن مساره الصحيح الموضوع له، وهو إصلاح الإنسان أولاً، وإن هدف العلم وغايته في الإسلام هو أن يورِثَ المرءَ

التقوى، ليخشى الله فيما يأتي وما يذر، يقول سبحانه: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [سورة فاطر: ٢٨]. فثمرة العلم الصحيح هي الخشية، فمن لم يخشَ الله فعلمه ليس مقبولاً عنده، ولا يبدو من هذا المتطاول على إخوانه بأنه يخشى الله ويتَّقيه، لِما بيَّنا، ولِما يأتي.

بقي أن أذكر للقارئ الكريم أن هذه الفرقة "الذبابية" لا تخصُّ مذهباً عقيدياً أو كلامياً أو فقهياً معيَّناً مما هو في عالم الإسلام، بل يوجد بين طوائف وفرق وجماعات وأحزاب عديدة، ولذلك تجد بين من يردُّون على بعضهم البعض، أن هذا الطرف لا يقلُّ عن الطرف الآخر اختياراً للكلمات المقذعة، وتتبعاً للأخطاء وتكبيرها، ووقوعاً في الكبائر كالغيبة، والذي يجمعهم هو "الذبابية"... وأعرف كتّاباً لا يعرفون في التأليف سوى الردود، والكلام على الناس! ويبلغ من حقد بعضهم أن يذكر عنوان الكتاب دون ذكر مؤلفه، ربما تحقيراً له، أو لعدم إشهار اسمه، أو لعدم تحمُّله نفسياً إيراد اسمه!

ولا شكَّ أن هذا الأسلوب في اختيار الكلمات الجارحة، والهجوم باللسان السليط، الذي يبدو من ورائه الفظاظة والغلاظة، والحقد والكراهية، يؤدي إلى بذر روح الشقاق والخلاف في المجتمع، وخاصة في الطبقة المثقفة، التي ينبغي عليها أن تجمع كلمة المسلمين وتأخذ بأيديهم إلى ما فيه قوَّتهم وهيبتهم وسعادتهم.

يقول الله تعالى {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً} [سورة الإسراء: ٥٣].

ويقولوا سبحانه: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [سورة الأنفال: ٤٦].

فليت هذه "الفئة الذبابية" غابت عن مجتمعنا غير مأسوف عليها.

وليت هذه "المدرسة الذبابية" لم توجد في مجتمعنا، وكان بدلها مدرسة تربوية، تربي الشباب على التهذيب والتسامح والتقوى.

ليت هذه "الفرقة الذبابية" عرفت معنى الأخوَّة والمحبَّة، فجمعت ولم تُفرِّق، ولأمت ولم تجرّح. وإذا كتبت التزمت بأدب الإسلام، فبيَّنته صافياً دون أن يشوبه حقد وكراهية وتنفير، وإذا نقدت فبأسلوب جميل وأمانة علمية تجعل صاحبه يقبل عليه قبل كل الناس!

وماذا لو نُقِدَ فصبرَ وعفَّ لسانه هو دون صاحبه؟ إنه بذلك يطيع ربَّه، ويصحح مسار الحوار والجدال، ويعلو شأنه عند الموافق والمخالف، ويكسب أجراً عظيماً، يقول سبحانه وتعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٤].

والسلام على من كان هيّناً ليّناً مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبُعداً لمن كان جعظرياً، سيِّئ اللسان، لا يسمعُ الحقَّ ولا يتَّبعه.

يقول عليه الصلاة والسلام: "إن الرفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزعُ من شيءٍ إلا شانه". رواه مسلم.

ووصف رسولَنا الكريمَ خادمهُ أنسٌ فقال: "لم يكنْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً، ولا لعّاناً، ولا سبّاباً، وكان يقول عند المِعتبة: ما لهُ تَرِبَ جبينه؟" رواه البخاري.

فهل رأيتم الذبابيين، استعملوا، ولو مرة واحدة قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: "ما له تَرِبَ جَبينه"؟؟ فهلاّ تأدَّبنا بأدبه، ونحن ندَّعي أننا ندافع عن سنَّته؟ وهل اتصفوا بتلك الصفة الجميلة التي أثنى الله بها على عباده الأتقياء الأسوياء حيث يقولون: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر: ١٠]، والغِلّ: هو العداوة والحقد الكامن في النفوس، ويبدو من كلام الذبابيِّ أنه تنطبق عليه هذه الصفة البغيضة تماماً، وكأنه جمع في نفسه المريضة، وقلبه الكليل، أحقاد شعوب، وعداواتِ حروب، بدل صفة "الأخوَّة" التي عقدها الله سبحانه بين المؤمنين، في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [سورة الحجرات: ١٠]، فهل شعر وهو يكتب أو يتكلم أنه يخاطب أخاً له لا عدواً، وأن للأخ المؤمن على أخيه واجبات عليه أن يقوم بها، بأمر من الله العزيز الحكيم، ونبيِّه الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام؟ أم أنه يشعر بأنه لا يهدأ ولا يستريح إلا أن ينفِّس ما في صدره من سموم وأحقاد وضغائن على أخيه هذا الذي وصَّاه الله به؟ لا شكَّ أنه بهذا يُسعد الشيطان، ويُغضب الرحمن، وهو بهذا لا يحمل رسالة ربِّه ولا ينافح عنها، بل ينفذ وصايا الشيطان، ويتقيَّد بآدابه، وهذا لا حديث لنا معه!

إن هذا الذي لا يستحيي من الله ويؤذي عباده بكلماته الجارحة، قد يستحي من الخلق فلا يؤذيهم إذا علمَ أنه سيُقال له: إنك ذبابيّ، أو من الفرقة الذبابية.

اللهمَّ عافنا فيمن عافيت.

(د)
دعوة صريحة

كان لا بدَّ من هذا القول، وقد تشتت الشمل، وتفرَّق الجمع، وتفرَّغ كتّابٌ مسلمون لردِّ بعضهم على بعض وهم جميعاً من (أهل السنة)، وأنت تستشفُّ من رؤوس أقلامهم ألسنةً حِداداً، وتشمُّ من كلماتهم وأساليب ردودهم عداوةً وحقداً وكراهية، وكأنهم يردُّون على أعداء متربّصين!!

وعندما تهيأت الانتخابات الحرة في بعض البلدان عام ١٤٣٢هـ، برز الخلاف أكثر، وعلى السطح كما يقال، دون خوف أو حياء! وبين أكبر اتجاهين، هما الأشعرية والسلفية! بل صعد الخلاف من قبل حتى على جبهات القتال...

أي أن الخلاف عقدي!

ولو سألت: ما الذي يجمع المسلمين؟ لكان الجواب مباشرة: العقيدة هي التي تجمعهم.

ولكن الذي حصل الآن أن قسمًا من المسلمين تفرِّقهم اجتهادات أو وجهات نظر في العقيدة، وبعضها راسخة عند الفريقين!!

هذه صراحة تُقال ولم تعد تخفى! الذي كان يجمع المسلمين حقاً كانت العقيدة السمحة، فكانوا جميعًا، وكانوا أقوياء، ولمّا تفرَّقوا لأسباب، منها سبب الاختلاف في مسائل عقدية، تفرَّقوا فضعفوا. ولم يؤثر في قوتهم مذهب فقهي، على الرغم من التعصب فيه عند بعضهم إلى درجة غير مقبولة، بل ومنفِّرة.

كلُّ هذا وغيره أثَّر في الساحة الإسلامية، وفي المجتمع الإسلامي، وفي الطبقة العلمية الراقية خاصة، وهي أسُّ الفكر والحركة في حياة المسلمين، فمنها تنطلق الأفكار، وتتشعب في العامة.

والحق أن الاختلاف في الأمة وغيرها واردٌ ومستمر، ولا مجال لوقفه، وقد قال الله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود: ١١٨-١١٩].

أي أن الله تعالى خلقَ الإنسانَ بطبائعَ مختلفةٍ وعقولٍ متفاوتة، ووهبهم العزيمةَ والقدرةَ على الاختيار، بعدَ أن أعطاهم العقلَ وبيَّنَ لهم الحقّ، ويكونُ من مقتضَى هذا التَّفاوتِ والاختلافِ بينهم، أن يكونوا متفاوتين ومختلفين في عقائدِهم وآرائهم، إلاّ مَن أدركتهم رحمةُ الله فاهتدَوا إلى الدِّينِ الحقّ، فهم لا يختلفون في العقيدة، ولذلك خلقَ الناس، حتَّى يتحمَّلَ كلٌّ تبعةَ اختياره، ويُجازَى عليه.

نقلَ الطبريُّ عن ابن عبَّاسٍ قولَه: خلقهم فريقَين: فريقًا يُرحَمُ فلا يَختلِف، وفريقًا لا يَرحَمُ يختَلِف، وذلك قَولُه: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [سورة هود: ١٠٥]. ا.هـ.

فأهلُ الرحمةِ لا يختلفون، وإذا اختلفوا فلا يكونُ اختلافُهم مثلَ اختلافِ الآخَرين في تباغضِهم وتفرُّقِهم. يقول الحسن البصريُّ رحمه الله: أهلُ رحمةِ اللهِ لا يختلفون اختلافًا يضرُّهم.

فالحديث هنا ليس عن الفِرَق، بل عن المسلمين من غير الفِرق، الذين يطلق على جماعتهم (أهل السنة والجماعة)، وهم الأشاعرة والماتريدية والكلاّبية والسلفية وأهل الحديث والصوفية من غير شطح، ويدخل فيها طوائف ومدارس أخرى ليس الهدف حصرها. ولا توافق السلفية على هذا القول، بل تعتبرها جميعاً فرقاً في النار، حتى الأشاعرة! وأنها وحدها —مع من تابعها– (الفرقة الناجية)! ولا أدري هل هذا قول أكثرهم أم بعضهم، فهم أيضاً صاروا مدارس وأسماء وجماعات، وفي كلِّ بلد حَرْفيون ومتسامحون، ومن السلفية من يعذر الآخرين بالتأويل لحسن قصدهم ورغبتهم في نصرة الحق، وإن كان يحكم عليهم بالبدعة.

والمهم القول هنا أنه أمر لم يعد يُرضي العلماء العاملين الذين يريدون جمع قوى المسلمين والتغلب على هذا الأسلوب في إثارة الخلافات القديمة والمكررة التي لا تنشر سوى التشتت والوهن والبغض والعداوة في مجتمع الإسلام، وقد نجح مفكرون مسلمون وجماعات إسلامية في علاج ذلك، بتركيزهم على النواحي العملية، فهم مسلمون وكفى، وقرآنهم موجود في قلوبهم وبين أيديهم، وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاجتهادات واردة، وحقُّ الخلاف معترف به، ولكن المهم هو التركيز على العمل الإسلامي وما ينفع المسلمين في دنياهم وأخراهم. وقد نجحوا بفضل الله، بعد دعوة وتخطيط وصبر وسياسة وتضحيات، ووصلوا إلى الحكم.

وإن أكبر جماعتين في الاختلاف كما قلت هي السلفية من جانب، والأشاعرة والصوفية من جانب آخر!

وإذا لم يكن بالإمكان مسح الخلاف من أساسه وجذوره، فإني أدعو إلى التخفيف منه إلى درجة ما. وهذه المسمَّيات تؤثِّر حقًا وتؤصِّل لخلاف، فلو قال لك أحدهم إنه سلفي أخذت عنه تصوراً كافياً لما هو، ولو قال إنه أشعري أو متصوف، كذلك. مع أنهم بين متساهل ووسط ومتشدِّد.

ولو لم تكن هذه المصطلحات الثلاثة لكان أفضل، وأكثر حسماً للخلاف.

فما هي السلفية؟ أليست تأخذ من الكتاب والسنة والسلف الصالح؟ فلماذا لا يقول معتنقوها إنهم مسلمون وكفى؟ لماذا هذا اللقب الذي اختاروه؟ هل لأنهم يأخذون من السلف وحدهم العقيدة والمنهج في الدين؟ ومن هم السلف؟ أليسوا كانوا يأخذون من القرآن والحديث؟ فإذا صاروا مثلهم في أخذ العلم من أصوله، فقد التقوا في الأخذ من الكتاب والسنة، وهديُ السلف الصالح لا يكون إلا بما ذُكر، فهم سواءٌ في مصدر التلقي، دون قولهم سلف وسلفية!

وقد اختار المسلمون مصطلح (أهل السنة والجماعة) في بدايات نشأة الفرق، للتفريق بينهم وبين الشيعة أو فرقٍ أخرى، وربما كانوا المعتزلة، في بدايات القرن الثاني الهجري (أنشأ هذه الفرقة واصل بن عطاء ٨٠-١٣١هـ، بعد اعتزاله مجلس التابعي الجليل الحسن البصري) وكان من منهجهم تقديم العقل على النقل، بخلاف أهل السنة في تقديم النقل (الكتاب والسنة) على العقل. واكتفوا بلفظ (السنة) لأن الفرق أيضًا تقول بمرجعية القرآن، ولكنهم يؤولون. وقرنوا بها (الجماعة) للدلالة على استصحاب الأصل دون الخروج عليه، واتباع جماعة المسلمين وهم الأكثرية. ولكن حتى هذا المصطلح فإن في النفس اليومَ منه شيئًا، فقد كان في وقت ما، وقد مضى زمنه، ولا يُذكر إلا أن يكون شيعي أو آخرُ من طرف، وسنيٌّ من طرف آخر.

والمسلمون ليسوا أهل سنَّة فقط، ولا أهلَ حديثٍ وحده، بل أهلَ قرآنٍ أولاً، وأهلَ سنَّة، وجماعةٍ، وإجماع، فيلتزمون الجماعة، ويلتزمون بإجماع العلماء.

ويكفي أن يُقال إنهم أمة (الإسلام)، وأنهم (مسلمون) دون إلصاق أية صفة أخرى بهم، فهذا هو الوصف الذي وصفهم الله ورسوله به، فلماذا العدول عنه إلى غيره، لماذا يُعدَل عن مصطلح (الإسلام) و(المسلمين) و(أمة الإسلام) إلى (السلفية) و(أهل الحديث) و(الأشعرية) و(الصوفية) وما إليها، أتفضيلاً لها على مصطلح القرآن والسنة؟ أم تمييزاً لها؟ ولكن تمييزاً عن ماذا؟ إذا كان تمييزاً عن الشيعة وغيرها من الفرق فإن تلك لها مسمَّياتها تُعرف بها، فلماذا نختار نحن أسماء أخرى لديننا وأنفسنا ونحن لا نأخذ سوى من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين واجتهادات الفقهاء والعلماء المقبولين عند الأمة؟

ولمّا سُئل مالكٌ رحمه الله: من أهل السنة؟ قال: "أهل السنة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به؛ لا جهميٌّ ولا قدريٌّ ولا رافضيّ" (الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر)، قال ذلك لأنه لا اسم لهم آخر غير الإسلام والمسلمين، ولم يعتبر (أهل السنة) تسمية، بل لقبًا أو صفة أو تمييزًا لهم عن الفرق الأخرى التي تسمَّت بمسمَّيات وهم لم يتسمَّوا بها. أو أنه اعتبر (السنة) من قبيل النهج أو الملَّة، وهو اتباع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في قول ابن عباس رضي الله عنهما: "أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وذلك عندما سأله معاوية: أنت على ملَّة عليّ؟ قال: "لا، ولا على ملَّة عثمان، أنا على ملَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "من أقرَّ باسمٍ من هذه الأسماء المحدَثة فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه" (غريب الحديث للخطابي).

وأنصح إخواني الذين يقولون إنهم على نهج الغزالي أو نهج ابن تيمية أو غيرهما أن يتخلوا عن هذا القول، وليقولوا إنهم على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم... وكفى. ومن كان من أهل الترجيح فليرجح، ويصير ذلك رأيه واجتهاده أيضًا.

وكذلك مصطلح الأشاعرة، الذي يدلُّ على عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مدى التاريخ الإسلامي. وهذا المصطلح نسبته إلى الإمام الجليل أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المتوفى سنة ٣٢٤هـ، الذي انتصر لعقيدة الإسلام الصحيحة في مقابل المعتزلة، ونظَّرها وقعَّدها فيما يجمع بين أصولها وفروعها الكلامية في أوان انتشار الفكر الاعتزالي؛ ليكون متميزاً عنه بوضوح.

وجزى الله هذا العالم خير الجزاء... ولكن لماذا نطلق نسبته على دين الإسلام؟ إن دين الإسلام أجلُّ وأكبر وأوسع من أن يوصف باسم رجل أو قبيلته، إن هذا دين الله وحده، دين الإسلام، ومعتنقوه مسلمون، وكفى بهذا اسمًا له ووصفاً ولقباً، وليس هو دين الأشعري وحده، ولا الماتريدي وحده، ولا السلف وحدهم. وإنني لا أشعر بالرضى حتى من قبل بعض من يطلقون على الإسلام (الدين المحمدي)، إنه دين الإسلام الذي رضيه لنا ربنا، وهو الذي أطلق عليه هذه التسمية في كتابه صريحاً جلياً {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ} [سورة آل عمران:١٩] {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [سورة المائدة: ٣]. فالذي رضي هذا الدين باسمه لنا ولمحمد صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين من سلفيين وصوفيين وأشاعرة والعالمين جميعاً، هو الله ربُّ الجميع، فعلينا جميعاً أن نتقبَّله كما هو، دون تبديل أو تحريف، ولا زيادة ولا نقصان. وهو الذي كان مصرَّحاً به في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وهو مما ينبغي أن يعضَّ عليه بالنواجذ ولا يُختار غيره.

وأعود للتذكير بأن هذه المسمَّيات غير منزَّلة، وهي متعدِّدة، تفصل بين المسلمين، ودينهم (الإسلام) واحد لا يفصل بينهم.

أما تعبير (أهل السنة والجماعة) فلا أرى به بأسًا وإن كان في النفس منه شيء، وقد رضيه العام والخاص منذ بزوغه، وكأن هناك إجماعًا سكوتيًا عليه، وخاصة أنه لا يدلُّ على اسم معيَّن، بل هو بيان لنهج المسلمين إذا ذُكرت الفِرق.

ولا بأس كذلك من التعبير بـ (أمة محمد صلى الله عليه وسلم) فهي أمَّته حقًّا، يقول ربُّنا سبحانه: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ} [سورة يونس: ٤٧].

وأذكِّر أن تلك التسميات ليست بديلة عن (الإسلام)، ولكنْ تمييزٌ للمسلمين، فحتى (يُعرف) اتجاه المسلم العقدي يقال له سلفي، يعني (مسلم سلفي) و(مسلم أشعري).. وهكذا. ويعني في كلِّ الأحوال إلصاقَ صفات بمعتنقي الإسلام للتفريق بينهم، وهو لافتةُ الاختلافِ ولوحتهُ التي أدعو إلى التخلي عنها، وعدمِ وصف المسلمين بما يفرق بينهم. فكأن هذا يعني عدم كفاية لفظ (مسلم) له، بل لا بد أن (يميَّز)! يميَّز بما يختلف فيه المسلمون ويزيد من فرقتهم؟

إذن فهي دعوة صريحة للتخلي عن الألقاب التي توصَمُ بها طوائف ومدارس للمسلمين، وللعودةِ إلى الاسم الأصل دون غيره، عسى أن يخفف هذا شيئاً من الخلاف، ويزيدَ الشعور بين أهله بالأخوة والمحبَّة، ولو كانوا مجتهدين في مسائل مختلفة بينهم. وقد أُمرنا بالتوحيد والإخلاص، ونحن جميعًا من المسلمين.

فنحن (مسلمون) وكفى، لا (أشعرية) ولا (سلفية)!

اعتدال

محمد خير رمضان يوسف

كنتُ معتدلًا في سيرتي الدعويةِ والكتابيةِ منذ شبابي،

هادئًا، حذرًا،

لا أجرحُ ولا أهاجم،

وإذا نقدتُ فبأدب، أو دونَ تعيينِ اسم.

ولم تكنْ في بيئتي دعوةٌ سلفية،

ومع ذلك لم أسلكْ طريقةً صوفية،

وإن كنتُ محبًّا للتصوفِ المعتدل،

بعيدًا عن الشطحاتِ والمصطلحاتِ المريبةِ والغامضة،

رافضًا تقديسَ الشيوخ، محترمًا وموقرًا الملتزمين منهم.

وانتقلتُ إلى بيئةٍ لا تسمحُ بسوى سلفيةٍ انطلقتْ من بيئتها،

وثقةُ أهلها بعلمائهم، وأكثرُ اعتمادهم عليهم في العقيدةِ دون علماءِ الأمة،

واعتَبرتْ غيرَها انحرافًا أو ضلالًا وفِرَقًا، وأعني الأشاعرةَ خاصة، وهم عامةُ أمةِ الإسلام.

وبقيتُ على اعتدالي بفضلِ الله،

ولم أتسلَّفْ بسلفيةٍ متلبّسةٍ باجتهاداتٍ خاصَّةٍ عُمِّمتْ ولم يتفقْ عليها علماءُ السنة،

على الرغمِ من بقائي هناك نحو (٤٠) عامًا!

وقد عشتُ معظمَ حياتي بين كتبِ السلفِ ومحبًّا لهم،

وخدمتُ كتبهم، ونشرتُ أقوالَهم وحكمهم ووصاياهم،

وقصصهم وفوائدهم ونوادرَ أخبارهم،

وأشدتُ بعلومهم وعبقرياتهم وبمواقفهم العظيمة،

في عشراتٍ من الكتب، جمعًا وتأليفًا وتحقيقًا.

ثم انتقلتُ إلى بيئةٍ مغايرةٍ للسلفية،

لا تعترفُ بها ولا تقيمُ لها وزنًا!
وأنا أحسبُ أنني ما زلتُ في اعتدال،
ولم تردني ملاحظةٌ أني خالفتُ أشعريةً أو سلفية،
فأنا آخذُ من هذا وذاك، ومن رجالهم جميعًا،
فكلُّهم أهلُ سنَّة، وإن اختلفوا في مواضع، شأنَ المجتهدين،
وأنهجُ نهجَ التعاونِ والاتفاق،
بعيدًا عن الاختلاف،
ولا أقربُ من الخصام.
أستفيدُ منهم بدونِ حرج، فلا غلَّ ولا كراهية،
وعند الاختلافِ أختارُ بحذر، وأبحثُ عن الدليل،
أو أقلِّدُ عالمِا أثقُ بعلمهِ ولا أعرفُ منه سوى العلمِ والصلاح،
وإلا فقد وسعني السكوت.
أسألُ اللهَ الثباتَ على الحق،
والموتَ على الإيمان،
والفوزَ برضاهُ سبحانه،
وأعوذُ به من دعوةٍ تشقُّ صفًّا للمسلمين،
أو خصامٍ يؤدي إلى فتنةٍ بينهم،
أو اجتهادٍ يُضلُّهم.
وهو حسبي وليًّا وناصرًا.
ورحمَ الله من ساندني في حقّ،
وجبرَ ضعفي وسترَ عيبي،
فدعا لي وسامحني.
(محمد خير رمضان يوسف)
١٣/١٠/١٤٣٩ هـ

(هـ)

فضيلة الاتفاق ونتيجة الاختلاف

سنبقَى متخلفين عن الأممِ ما دامَ الاختلافُ أحبَّ إلينا وأهمَّ من الاتفاق،

انظرْ إلى عددِ المعلّقِين على منشورٍ خلافيّ،

وإلى عددهم في منشورٍ اتفاقيّ،

وأكثرهم من طبقةِ المثقفين،

ومحبي الجهاد،

والدعاةِ النشطين،

المرشحين للقيادةِ المستقبليةِ للأمة،

في صفحات الكتبِ والمجلات،

وفي المجالسِ والجامعات،

وعلى بساطِ التواصلِ الاجتماعي،

وحتى على ذُرَى جبهاتِ القتال!

وهم فئاتٌ وأصنافٌ وطوائف،

لا يتنازلُ أحدٌ لآخرَ إلا نادرًا ولظروف،

ولو كانت نتيجتهُ القوةَ والاجتماع!

لتعرفَ عددَ المتعلقين بالاختلاف،

والمفضِّلين له،

والصادحين به،

والرافعين رايته،

وعددَ المهملين للاتفاق،

واللامبالين به،

والمتجاوزين عنه،

لنصلَ إلى نتيجةٍ أننا لسنا مؤهلين لقيادةِ الأممِ بعد؛

لأننا فاقدون الأهليةَ لقيادةِ أنفسنا،

فلا اتفاقَ لكلمتنا،

ولا جمعَ لقوَّتنا،

فكيف نقودُ غيرنا ونحن متشرذمون فاشلون؟

لم نتعلمْ بعدُ حبَّ الاتفاقِ وقيمته،

ولذَّةَ الشعورِ بالقوةِ ونتيجته،

في التضامنِ والتعاونِ والمحبةِ والوفاءِ والفداء؛

لأجلِ ديننا،

الذي ينبغي أن يكونَ أعزَّ علينا من أرواحنا وطبائعنا العنيدة،

وجدالنا الذي لا ينتهي.

لم تتشرَّبْ نفوسُنا بعدُ بسموِّ العلياء،

ما زالتْ تحتاجُ إلى تمحيص،

حتى تتشوَّفَ من جديدٍ إلى سنَّةِ التمكين.

إننا نلومُ قادةَ العربِ والمسلمين لعدمِ اجتماعهم،

ونهزأُ بتفرقهم وخلافاتهم التي لا تنتهي،

والحقُّ أن الإسلاميين أيضًا خلافاتهم كثيرة،

فما عذرهم ودينُهم واحد؟

ألا فليعلمْ هؤلاء وأولئك،

أن الله لا يغيِّرُ أحوالنا إلا إذا غيَّرنا ما بأنفسنا.

اللهم خذْ بيدنا،

وأصلحْ أحوالنا.

(١٠)
العلم والعلماء

(أ)
سيف وقلم

- السيفُ يَقطع، والقلمُ يَرتُق.
- السيفُ يَعلو ويُرهب، والقلمُ يتواضعُ ويُصلح.
- السيفُ يلوِّحُ ببريقه، والقلمُ ينادي بلسانه.
- السيفُ يجلجلُ للحرب، والقلمُ يدندنُ حولَ السلم.
- السيفُ يطاردُ ويزمجر، والقلمُ يجمعُ ويوثِّق.
- السيفُ لا يعرفُ مزاحًا، والقلمُ قد يمزح.
- لولا السيفُ لنزفَ القلم.
- السيفُ حياةٌ وموت، والقلمُ حياةٌ وبناء.
- السيفُ نجمةٌ عسكرية، والقلمُ قصَبةٌ مدنية.
- السيفُ يَغرسُ ذؤابتَهُ في الجسد، والقلمُ يعلِّمُ من جديد.
- السيفُ يَسكتُ مُكرهًا إذا وُضِعَ في غمده، والقلمُ إذا تعبَ كفكفَ دمعَهُ ووضعَ نقطةً منه في آخرِ الجملة.

(ب)
صاحبُ اللسان
وصاحب القلم

هناك صاحبُ لسانٍ،

وصاحبُ قلم،

وقد لا يكونُ اللسِنُ كاتبًا،

ولا يكونُ الكاتبُ لَسِنًا،

فلا يُحرَجان،

فإنما هي مواهب،

يُعطَى هذا ما لا يُعطَى ذاك.

ويُتابَعُ صاحبُ القلمِ فيما يَكتبُ وكفَى،

فقد بلَّغ،

ولا يُكرَهُ على درسٍ أو محاضرة،

وإذا أُكرِهَ فلا يكونُ ناجحًا فيه،

أو يكونُ عاديًّا،

ولأنه قد لا يُتقنُ الحوار،

أو يكونُ عصبيَّ المزاجِ فيه حدَّة،

فتصدرُ منه كلماتٌ ويَجرحُ بدونِ قصد!

أو يحبُّ العزلةَ ولا يُطيقُ الاجتماعَ بالناس،

فيضيقُ صدرهُ ولا ينطلقُ لسانه!

أو يحسبُ أن وقتَهُ أغلَى من الجلوسِ مع الناس،

فلا يتفاعلُ مع المجالسِ ولا يفيد!

ومثلُ هذا قد يُعذَرُ إذا اعتذرَ عن استقبالِ الناس،

لأنه ليس مهيَّأً لاستقبالهم،

وليس قادرًا على مخالطةِ الناس،
لطبيعةٍ فيه،
وإذا خالطَ تحرَّجَ وأخطأ..
وهناك علماءُ ودعاةٌ تُفرَضُ عليهم العزلة،
ويُبعَدون عن كلِّ عملٍ دعويّ ونشاطٍ علمي،
ويُلاحَظون ويلاحَقون ويخوَّفون،
وبمرورِ الزمنِ تتغيَّرُ نفوسُهم،
ويصيرُ عندهم شيءٌ من (التراجع)،
وملامحُ من الانقباض، والانكماش،
أو ما يُشبِهُ الضمور!
فلا تنطلقُ ألسنتهم،
ويصبحُ علمهم حبيسَ صدورهم وما تَنفثهُ أقلامهم..

××× ××× ×××

ويُحضَرُ ما يُلقيهِ اللسِنُ من درسٍ أو خُطبة،
ولا يُكرَهُ على تأليفٍ أو كتابةِ مقال،
ولو كتبَ لما أبدع،
ولكان كلامهُ خيرًا من كتابته.
وهناك كثيرٌ من أهلِ العلمِ لم يؤلِّفوا،
واعتذروا بأنهم (يؤلِّفون) الرجال،
وأن التآليفَ كثيرة،
والحقُّ أنهم لم يوهَبوا ملَكةَ التأليف،
ولم يملِكوا ناصيةَ القلم.

××× ××× ×××

واشتُهرَ عالمٌ من علماءِ الأمةِ في عصرنا بكتاباتهِ القيّمة،

وذيوعِ مؤلَّفاتهِ وكثرةِ طبعاتها،

فقيلَ له: إن كتبكَ أفضلُ مخ خُطَبك،

فقال: يعني ما أعرفُ أخطب؟

وعالمٌ آخرُ إذا كتبَ فكأنه تُسمَعُ قعقعةُ حروفِ كلماتهِ وكأنها سيوفٌ تقاتل،

وإذا تكلَّمَ فلا تريدُ أن تتابعه!

وثالثٌ من العلماءَ الموقَّرين المشهورين،

إذا حاضرَ لا يكونُ صوتهُ إلا منخفضًا،

ويجيءُ كلامهُ في مرتبةٍ واحدةٍ من أولهِ إلى آخره،

ولا يتحرك،

فيُسرعُ النعاسُ إلى بعضِ الأعين..

فسبحان واهبِ النعم،

ومقدِّرِ المواهب!

××× ××× ×××

وكنتُ أظنُّ أن صاحبَ القلمِ يكونُ أقلَّ كلامًا،

ولكن رأيتُ بعض الكتّابِ إذا تكلموا زادوا،

حتى تقول: ليته سكت،

وقال لي مثقفٌ أكاديمي محبّ: لا أدري متى يجدُ هذا وقتًا للكتابة؟!

××× ××× ×××

وأخيرًا،

فكما أن الطلاقةَ في اللسانِ والكتابةِ موهبتان،

فإنه يقابلُهما القراءةُ والاستماعُ من الطرفِ الآخر،

فهناك من يحبِّذُ القراءةَ ويكتفي بها،

وهناك من يحبُّ الاستماعَ ولا يقتربُ من القراءةِ إلا قليلًا،

فليكنْ حظُّ اللسِنِ من أهلِ العلمِ والفكرِ هو الاستماع،

وحظُّ الكاتبِ قراءةَ آثاره.

والحمدُ لله.

××× ××× ×××

(ج)
ظاهرة "وضع الحلول" عند الإنسان

الإنسان مغرم بوضع الحلول للأمور التي يراها أو يسمعها.

فما إن تقع عينه على شيء لا يعجبه حتى يقول: لو كان الأمر كذا لكان أفضل.

وحتى وهو يمشي دون أن يتكلم فإنه يقول في نفسه ذلك.

والأمر ليس مقصورًا على المشي والرؤية، بل هو ملازم للإنسان حتى لو امتدَّ على فراشه، وهو يفكر فيما لا أول له ولا آخر، وفيما هو واقع أو خيال، وفي نفسه أو في الآخرين، ويضع الحلَّ إثر الحلّ، وقد يترك إشارات استفهام وراء بعض المسائل ليعود إليها مرة أخرى، ثم لا يعود.

أما سماع الأخبار والقصص والأحداث والتحليلات فحدِّث ولا حرج عن تصويبها أو التعليق عليها أو تقليبها على رأسها!

فالأمر في هذا الشأن ممتدٌّ في حياة الإنسان وشؤونه كلها، في نفسه، وبين أسرته، ومع أصدقائه، وفي الشارع، والمكتب، والرحلة، وفي حياته المدنية والعسكرية كلها، وكأن الحياة عنده (بلدية) يناقش ويصوِّب ما يريد على خرائطها أو في أسواقها، إن كانت من اختصاصه أو من غير اختصاصه، وإن عرف أسبابها أو لم يعرفها، وإن اطلع على بعضها أو كلِّها!!

ولو حسبَ الإنسان في كلِّ يوم كم وضع من حلول لمسائل صغيرة تافهة، أو أمور دولية كبيرة، لأخذه العجب من نفسه!

ولو قرأت أي كتاب في أي فن من فنون الحياة، لوجدت فيه الحلول إثر الحلول، في الدين والفلسفة والتربية والاجتماع والسياسة والإدارة والاقتصاد والقانون واللغة والعلوم والفنون والآداب والتواريخ والآثار...

والحلول لا تختص بالصغار ولا الكبار، ولا بالعلماء أو الجهّال، ولا بالمتخصصين أو غير المتخصصين، فكلٌّ يدلي بدلوه..

وانظر في التاريخ وعدِّد النظريات التي طُرحت في الخلق والطبيعة وما فيها، لتتأكد من الحلول العديدة المطروحة من قبل الإنسان، وكثير جدًا منها فيما لم يره ولم يعلمه!! كأصل الإنسان،

والحيوانات الضخمة التي انقرضت، والعصور الجليدية، وما يسمَّى بما قبل التاريخ، والإنسان القديم في شكله وأسلوب حياته، ودوران الأرض أو الشمس، والكواكب والنجوم، وأعدادها، وعمر الأرض والحيوانات والأسماك... الخ، لرأيت بعد جمع وتحليل نتائجها أن هؤلاء العلماء المتخصصين كانوا يضعون حلولاً وأجوبة متباعدة وأحيانًا متناقضة، ويؤلفون أجوبة حاضرة لأمور معقَّدة جدًّا، تبدو فجَّة بعد سنوات أو عقود من السنين، عندما تُكتشف آلات للتحليل أو الرصد. وكلمات مثل (ملايين السنوات) العادية أو الضوئية، منتشرة عندهم بدون أي حرج، مما يدلُّ على ظنِّية معلوماتهم لا حقائقها. {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [سورة النجم: ٢٨]. فهم لم يشهدوا الخلق حتى يقولوا كل هذا الكلام المغلوط.

والإنسان لا يتوب من هذا، بل هو مستمرٌّ فيه، من أي ملَّة كان!

إذًا فوضع الحلول (ظاهرة) في الإنسان لا تخفى، وليست هي أمرًا عارضًا.

ومع ذلك لا أعرف أنها دُرست أو كُشف عن سرِّها!

وهذه إشارات ضوئية (إسلامية) ألقيها على هذه الظاهرة:

وأولها هو ما يتعلق بطبيعة الإنسان، من أنه مستعدٌّ للخوض في الأمور ولو كانت مجهولة، فيعلن راية الاستكشاف عنها، عسى أن يعرف حقيقتها، وهي طبيعة خلقها الله في الإنسان ليستكشف بها الطبيعة وأسرارها؛ ليستدلَّ بها على وجود الله تعالى وعظمته وإبداعه. وهو بهذه النفس المتوثبة، المتحفزة، المتحرشة، قد يقع في مطبات ومجاهيل لا يعرفها، ومع ذلك فهو يتقحَّمها، ولهذا فهو (ظلوم) و(جهول) عندما قبلَ عمارة الأرض، مع القيام بالتكاليف والفرائض التي كُلِّف بها، وكانت ثقيلة حتى على السماوات العظيمة، والأرض الغنيَّة الحيَّة، المتميزة من بين جميع الكواكب، والجبال الشاهقة العظيمة الممتدة والغائرة في الأرض!

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [سورة الأحزاب: ٧٢].

أي أنه كان بقبوله ذلك مُفرطًا في الظلم لنفسه والإضرار بها، مبالغًا في الجهلِ بما قَبِلَه، مُعتدًّا بنفسهِ عندما وافق على شروطِ هذه الأمانة الصعبة.

وهو نفسه الإنسان الذي يسرع إلى الإجابة على أصعب الأسئلة التي تُطرح في الوجود، ولا يستحي أن يتراجع عنها بعد ذلك عشرات المرات، ويضع لها حلولاً أخرى، عسى أن ينجح في واحدة منها.

والإشارة الضوئية **الثانية** تتعلق بما قبلها، وهي طبيعة الإنسان العجول، فهو يتعجَّل في معظم أموره، ويتلخص أمره في أنه إذا خرج من البيت تعجَّل ليصل بسرعة إلى مكان عمله، ويعود وهو يتعجَّل كذلك الوصول إلى بيته وأهله!

وطبيعة العجلة تتعلق بالتدافع والتصارع في الحياة، ولها علاقة بطبيعة الحياة الإنسانية، وعمران الأرض والحضارة والمدنية.

يقول ربنا سبحانه وتعالى في طبيعة الإنسان هذه: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء: ١١].

أي أن الإنسان عَجول بطبعه، يسارع إلى ما يظن فيه مصلحته، وإن كانت تحمل ضررًا بعد النظر، وهو غير مطَّلعٍ على عواقب الأمور حتى يضبط قيادة العجلة في نفسه.

وكذلك هو في أجوبته التي تُطرح في الحياة، فهو يرفع أصبعه ليجيب على كل أسئلة الوجود، ولو لم يعرفها، ويسميها "نظرية" حياء أو غطرسة وغرورًا!

إن أي شخص منا يستطيع أن يعرف هذا عندما يخرج من مجلس ويتذكر كم طُرح فيه من مسائل ومعها حلولها المختلفة، وكثير من هذه الأجوبة يُحسب من قبيل الهزل، لسطحيتها وخفَّتها، وأصحابها يعرفون ذلك، ولكن الأمر يتعلق بعمق النفس البشرية في طرح الحلول، وتكريسه فيها، واستعدادها لملء الفراغ بأي جواب، ولو كان متعجلاً، تافهًا، غير مقبول.

أما الصحافة، والساحة الإعلامية بشكل عام، فلا أظنك تجرؤ على عمل إحصائية لما يطرح فيها من حلول لا تُحصى، ولو ليوم واحد.

وستجد نتيجتها جنون الإنسان ورغبته اللامتناهية في وضع الحلول للمشكلات البشرية، وحتى الحيوانية، والطبيعية، وما وراء الطبيعة أيضًا!!

ونظرياته وحلوله في ذلك لا تنتهي!

الإشارة الضوئية **الثالثة** تتمثل في موقف الإسلام من هذه الحلول، وهي مهمة.

لنقل إن ظاهرة الحلول لدى الإنسان ليست طيفًا عابرًا غير مؤبه به، ولا هي مهملة في الإسلام، ولا هي ماضية بدون حساب.

إن الحلول التي يعرِّض الإنسان نفسه لها، تكون إما نفسية، أو ظاهرة.

فالنفسية هي التي تعتلج داخل الإنسان ولا تَظهر، فإذا فكَّر الإنسان في أمر عابر، ومعه حله، ولم يتقصَّده، ولا هو قبله، فهو من قبيل ما حدَّث به نفسه، وهو معفوٌّ عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كما في الحديث الصحيح عند البخاري وغيره: "إنَّ اللهَ تجاوزَ عن أمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها، ما لم تعملْ أو تتكلَّم".

أما الأمور الظاهرة، وهي التي يتكلم فيها الإنسان، ويبدي رأيه فيها، فالمسلم يلتزم أمر الشرع، ويجب أن تكون الحلول التي ينطق بها كلها موافقة للإسلام، وخالصة لله تعالى، ولا يُقبَلُ عمل للمسلم بدون هذين الشرطين. {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف: ١١٠].

ومن أجاب بما لا يعلم، أو بما لا يوافق الشرع، فإنه يتحمَّل إثمًا.

والسكوت أولَى بمن لا يعلم، فلماذا يتكلف الشخص جواب ما لا يعرفه؟ لماذا يهزل ويضحك بينما يكون في جوابه مخالفًا لشرع الله؟

وليتفكر المرء بكل هذا الكلام في المجالس والاجتماعات والمؤتمرات ومراكز التعليم ووسائل الإعلام، والتهافت على الفتوى ولو كان في ذلك خطورة... وليعلم أن وراء كل ذلك حسابًا، ولكن كم من الناس يعتقدون ذلك، أو يلتزمون به، أو يعتبرون؟

والمهم هنا الذكرى، فمن انتهى فقد اعتبر، ومن لم، فقد ظلم نفسه.

وأذكِّر بقمة البحث العلمي في الإسلام، وهو أن لا يتكلف المسلم ما لا يعلم، ولا يقلد بذلك مفكري الغرب في نظرياتهم التي لا دين لها.

يقول الله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [سورة الإسراء: ٣٦]

أي: لا تتَّبعْ ما لا علم لك به، ولا يَختلط عليك الوهم واليقين، فيَلزَمُ التثبُّت من صحة الخبر والواقعة، ولولا ذلك لاختلط الحقُّ بالباطل، وأُخِذَ الناس بالظنِّ والخبر الواهي، وجوارحُ الإنسان أمانة عنده، كالسمع، والبصر، والفؤاد، فكلُّها مسؤولةٌ تُحاسَبُ على وظيفتها.

والأجوبة والحلول التي يقدِّمها الإنسان تصبُّ في هذا الجانب من حياته، فهو مسؤول عنها. فلا يلقي المسلم كلامه جزافًا، ولا يجيب عن رغبة وهوى وخيال فاسد ورؤى شخصية أو تقليدية، وما لم يقدر عليه تركه، أو سأل أهل الذكر عنه، وإذا لم يجد المتخصص الجواب اجتهد، على ألا يخالف قواعد الشرع.

١٠/١١/١٤٣٦هـ.

(د)

ذيل مقال

في الفتوى وحبِّ الكلام

كتبتُ مقالًا بعنوان "ظاهرة وضع الحلول عند الإنسان"،

ونسيتُ أن أوردَ فيه مثالًا بارزًا يؤيدُ ما ذهبتُ إليه،

وهو "التهافتُ على الفتوى" على الرغمِ من خطورته.

فإنه إذا طُرِحَتْ مسألةٌ جديدةٌ (نازلة) في مجلس،

تبارَى الجالسون في إبداءِ آرائهم،

ولو لم يكونوا علماء،

ولو لم يكونوا طلبةَ علم!

أما مَن أصابَ علمًا،

فإن بعضَهم، أو كثيرًا منهم،

يلجأُ إلى وضعِ الحلولِ على مستوًى أعلَى،

في القنواتِ الإعلاميةِ أو مواقعِ التواصل،

لتصلَ آراؤهم أو فتاويهم إلى أكبرِ عددٍ من الناس،

يتنافسون فيها على وضعِ الحلولِ ولو اختلفَ بعضُها عن بعض،

أو حتى تناقضت،

وهؤلاء لا يتورَّعون عن الإجابةِ على أيِّ سؤالٍ من العامَّةِ أو الأصدقاء،

ولم يكملْ بعضهم دراسته،

ولا درسَ علومًا على عالم،

ولم يحفظْ متنًا طوالَ حياته!

ولا يعرف قواعد فقهية أو أصولية...!

بل إنه إذا قرأ كتبًا في الفروعِ لم يفهم كثيرًا من مسائلها!

ولكنهُ يعرفُ خطورةَ من يتصدَّرُ للدعوَى!

وبينما كان السلفُ الصالحُ يتأخَّرُ عنها ويُحيلُها إلى غيرِهِ ما استطاع،
خشيةَ أن يقولَ في دينِ الله ما لا يعلم،
فإننا نرَى الآنَ التهافتَ على الفتوَى،
بدلَ الإحالةِ على علماءَ متمكِّنين،
أو مجامعَ فقهيةٍ ومراكزَ فتوَى،
أو البحثِ عنها في مواقعها، وهي عديدة.
وماذا لو أزاحوها عن كاهلهم ما داموا يعرفون خطورتها؟
وماذا لو سكتوا ولم يجيبوا؟
هل يجبرهم أحدٌ على إبداءِ آرائهم؟
إنها ظاهرةُ الحبِّ والتعلُّقِ بوضعِ الحلول،
المتأصِّلةِ في نفسِ الإنسان،
إنها الحرارةُ التي تغلي في النفسِ فتقذفُ ما تريد،
وفيها حبُّ الكلام،
والزهوُّ بالمعرفة،
والمسارعةُ إلى الجواب قبل الآخر،
والبروزُ بين الأهلِ والأصدقاء..
فأما المؤمنُ الخائفُ العاقلُ فإنه يفكِّرُ ويتأنَّى،
ولا يكونُ مثلَ غيره؛
لأنه لا يريدُ أن يتكلَّمَ في دينِ الله بغيرِ علم،
إنه يخشَى الله تعالَى قبلَ كلِّ شيء،
ويُهمُّهُ رضا الربِّ لا رضا الناس.

(هـ)

العلم.. وما إليه

- أجمع أهل العلم على أن طلب العلم أفضل من جميع العبادات، غير الفرائض. حكى ذلك الإمام النووي.

- قال الشيخ محمود وجدي: من أراد أن يكلم الله فبالصلاة، ومن أراد أن يكلمه الله فبقراءة القرآن.

- قاعدة فقهية: كل حلال طاهر، وليس كل حرام نجس.

- يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري أحد أذكياء العالم: أثقل الساعات عليّ ساعة آكل فيها!

قلت: وهذا من حرصهم على طلب العلم والاجتهاد في جمعه والفناء فيه، فكانوا رحمهم الله يحافظون على الوقت ويغارون عليه.

(و)
أسباب انحراف العلماء والدعاة

نظر إليَّ صاحبي وقال بقلب كسير وصوت ضعيف: أرأيت ما قاله البارحة ذلك الداعية المعروف؟

ولا أدري هل تجمَّدت أعصابي أم انهارت آنئذ، وأنا أتذكر جيداً ما صرَّح به ذلك الداعية، الذي كان ملء العين والقلب، وأملاً من آمال الصحوة، ونجماً يسطع في سماء الإسلام، ومضرباً للمثل في دينه وتقواه عند العام والخاص، فإذا به يشيد بسلطان جائر، قد فتك بالمسلمين وقادة الدعوة، وكتم أنفاس أهل الإسلام عامةً في بلده، ولكنه أثنى عليه لأمرٍ صادف خيراً، وكأنه نسي ما كان منه من أعمال شائنة تملأ صحيفته السوداء، وأحكام جائرة فرضها على أهل بلده أغضبت المسلم وغير المسلم، لا تلائم عصراً، ولا قوماً، ولا ديناً، ولا أدباً!

وبقي صاحبي ينظر إليَّ وهو ينتظر جواباً، وأنا مندهش من ذلك الداعية، ولا أدري ما الذي حدث له، ولا أظن أنه أراد بذلك مالاً أو جاهاً، بل ربما أفقده ذلك أحب شيء إلى العالم، وهو تلامذته ومحبوه!

وأجبت صاحبي بشيء من كلام، ثم وقع في نفسي أن أنظر في أسباب انحراف العلماء المخلصين، العاملين، المحبَّبين إلى تلاميذهم... فلن يكون الحديث عاماً في هذا، يعني ليس العلماء كلهم، بل هو في أسباب انحراف العلماء المخلصين الطيبين، أما المنحرفون أصلاً، والذين يبتغون المال والمنصب، فأسباب انحرافهم ظاهرة، وليس هو من شرط بحثنا.

١. فمن أسباب ذلك لدى بعض العلماء والدعاة: **قلة تحصيلهم العلمي**، الذي لا يخولهم التحدث باسم الإسلام، ومع ذلك ترى بعضهم يتسلمون مراكز قيادية في الدعوة، ومجالس في التدريس والإفتاء والوعظ بواسطة أو غيرها، ومنهم من لا يتابع تحصيله العلمي على العلماء، ويكتفي بشهادات لا تُغني، وجامعة لا تخرّج علماء، وكتب يتثقفون منها... ومع ذلك يدلون بدلوهم بين العلماء وفي القنوات الفضائية والوسائل الإعلامية المتنوعة، وقد يتعصب بعضهم لرأيه في اجتهاد غير أهلٍ له، أو لقول شاذ رآه، ثم تنتشر فتواه أو رأيه في

كذا، ويذيعها العلمانيون والحداثيون خاصة لدخيلة في نفوسهم، فهذا نوع انحراف أو زعيق وتشويش، وما هؤلاء إلا كفراريج تصيح بين الديكة، ولكن أصواتها تُسمع أيضاً، وإن كانت قبيحة جداً، وإن لأصوات الفراريج في عصرنا لواقط صوت تكبرها وتوصلها إلى آخر الدنيا، بينما هي لا تسعى إلى إيصال أصوات الديكة والنسور والأسود!

٢. هناك علماء **أخذوا العلم بعقولهم ولم تتشرَّب به قلوبهم**، ويكون هؤلاء قد درسوا لفرص أتيحت لهم، أو أن آباءهم وضعوهم في مدارس دينية فتابعوها هكذا، أو أنهم كانوا مع أصدقاء درسوا الدين فدرس معهم، أو أنه تتلمذ على علماء لا روحانية عندهم، فيكون تعلمه للدين كتعلمه مادة الرياضيات والجغرافيا والكيمياء، يعرف أحكام الطهارة والمواريث والحج، ويعرف أصول العقيدة كما يعرف أصول النحو والصرف. فهؤلاء وأمثالهم غذيت عقولهم بالعلم ولم تتفاعل معه قلوبهم في جانبه الأساسي كما يأتي، فإذا تعرَّض لحوار مكثَّف من بعد، ودخل في بيئة سياسية واجتماعية جديدة تفاعل معها وتأثر بها، وربما اعتنق أفكارها، ولو كانت منحرفة وضالة ومناقضة لعقيدة الإسلام، فهو لم يتربَّ تربية إيمانية حقيقية مع تعلمه أحكام الفقه وتلقيه دروس العقيدة وعلوم القرآن والحديث... ولذلك نرى بعض العلماء ينحرف بانتمائه إلى أحزاب علمانية واشتراكية، بل يصير في قيادتها ولجانها المركزية، كما حدث لشيخ من شيوخ الأزهر، وقس على ذلك علماء للسلطة من المهيئين لإصدار فتاوى ملائمة لما يطلبه حكامها، لإرضائهم، مع الثناء عليهم في مناسبات عديدة، ولو كان في ذلك غضب الرب ومقته. بل أصبح بعض العلماء شيوعيين، وإن كان هذا نادراً جداً، ولكنه يقال، فالردة واردة.

والفقرة السابقة تذكرنا بموضوع آخر تطرَّقت إليه أكثر من مرة، وهو أن العلم بالخشية، يعني أن العالم الحقيقي المقبول عند الله هو من استفاد من علمه وأوصله هذا إلى خشية الله وتقواه، وما لم يكن كذلك فما الفائدة منه، فإن الغاية من العلم هو إرضاء الله تعالى، يقول ربنا سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [سورة فاطر: ٢٨]، فمن لم يخش الله

فليس بعالم حقيقي وإن كان حافظاً للقرآن، أو فقيهاً يجاوب على كل أسئلة الناس، وتكون نتيجته أنه عالم غير تقي، لا يخشى الله، فهو منحرف.

وبعض هؤلاء تراودهم شكوك، وقد تبقى معهم ويكبرها الشيطان في نفوسهم، فإذا لامست محاورة أو كتابة من ملحد أو مستشرق أو كتابي، قويت عنده، فانحرف، وضعف إيمانه.

والأمر كله بيد الله عز وجل، وهو سبحانه إذا رأى عزيمة ورغبة من المرء في الإيمان والعمل الصالح وفقه إليه وإيده، وإذا رأى منه زيغاً وعزيمة إلى الشرّ أضلَّه، فانحرف وازداد غواية. وهو معنى قوله تعالى: {يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ} [سورة النحل: ٩٣].

٣. ومن أسباب انحراف العلماء **الاجتهاد والتأويل** في نوازل لم يرد فيها نص قطعي، فيتأول ما هو أقرب إلى طبيعته ومنهجه في الحياة ونظرته إلى المجتمع، ولو خالف بذلك فقهاء وأعلاماً من عصره، وقد تمادى بعض العلماء في تأويلات حتى صاروا في جهة الفِرق.

٤- الاغترار والجرأة. فبعض الدعاة الذين أخذوا حظاً من الشهرة، ورأوا إعجاباً وإقبالاً من الناس، يصيبهم شيء من الغرور والعُجب، فيجترئون على الخوض في مشكلات ووقائع عديدة، لا يحالفهم الحظ في إصابتها جميعاً، فتبقى سيرتهم "مرتبكة" ويتأرجحون بين التوفيق والنقد، ويحاولون الحفاظ على مناصبهم الدعوية بين الناس، مع عدم إغضاب أنصار الحكم المنحرفين. وقد لا يبقى الأمر على حاله هكذا، فإما إلى هؤلاء وإما إلى هؤلاء.

وأشير إلى أن العُجب أهلك دعاة وانحرفوا حقيقة، مثل عبدالله القصيمي، الذي رجَّح أكثر من باحث إسلامي أن سبب ردَّته وإلحاده كان العُجب، وقد كان من قبلُ عالماً متبحراً ذا حجة قوية.

٥. التعصب للرأي. ينبغي للعالم أن يحترم الآراء والاجتهادات الأخرى للعلماء في قضية خلافية، ولا يتعصب لرأيه الذي يخالفهم به، فإن التعصب يؤدي به إلى الخروج من السكينة،

وعن الاجتماع، ويفرّق صفوف المسلمين، ويوقع بينهم النزاع والبغضاء والشقاق، فيكون ضرره أكثر من نفعه. وقديماً كانت بعض الخلافات المذهبية مؤلمة للمتعصبين فيها فقط، مثلما قال قاض وفقيه حنفي متعصب: لو كان الأمر بيدي لضربتُ الجزية على الشافعية! ولكن هذا ليس من شأن العلماء الحلماء الأكارم، الذين يريدون قوة المسلمين وعزتهم وجمع كلمتهم، وهو منهم.

وفي عصرنا نرى بعض الأفراد في حركات إسلامية متعددة يخوضون نقاشات وحوارات وجدالات لا نهاية لها، وهي لا تأتي بخير، وكل يرى الحق عنده، ولكن الخير فيهم جميعاً ماداموا قائمين على القرآن والسنة وإجماع أهل الإسلام، وما عدا ذلك فليعذر كلٌّ الآخر.

٦. **المال والشهوة**. إن العالِم مبتلى، في دينه وماله وأهله، لينظرَ الله في علمه وعمله، فإذا صبر وعضَّ بالنواجذ على الحق، أيَّده الله وصبَّره وفرَّج عنه، وإذا لم يصبر وانجرف مع أهل الباطل، فمن نفسه الأمّارة بالسوء.

ولا شك أن المرء يحب المال حباً جماًّ، ويريد له ولأولاده حياة أفضل وأسهل مما هو فيه، ولكن لا يكون ذلك على حساب دينه، والحكام لهم طرق في إغراء أهل العلم المخلصين وجذبهم إلى طرفهم، ليكون ذلك دعماً لمناصبهم أمام العامة والخاصة، وليقال إن فلاناً العالم المشهور يعمل معهم!!

وأذكر من مطالعاتي أن رجلاً عالماً أُثني عليه لتقواه وعلمه عند أحد خلفاء المسلمين، فطمع في أن يلي له القضاء، ولكن لم يفعل، خوفاً من تبعاته، وحاول معه مرة أخرى دون فائدة، فقال لأحد أصفيائه إنه لا حلَّ إلا بالحيلة عليه. فدعاه مرة إلى العشاء، وأمر بأحسن وألذ أكلة في بيت الخلافة، وقدَّمها له، فرأى ذلك العالم ما لم يره في حياته، فأقبل عليه بنهم، حتى قضى جوعته وزيادة، ولما مضى قال ذلك الخليفة لصفيه: لقد أكل فلان أكلة لا نجاة له بعدها. وما إن طرح عليه فكرة القضاء هذه المرة إلا وقد استجاب!!

ثم إن ترك المنصب صعب، يعرفه من جرَّبه، فيكون مأموراً بعد أن كان آمراً، ويكون منبوذاً أو (عادياً) بعد أن كان مبجلاً ومحترماً... فيؤثر المنصب ويحدِّث نفسه بأنه سيحسن ما قدر على ذلك، والحق أنه ينفذ أمر السلطان كيفما كان، بحجة الطاعة، والتأويل في ذلك... فتصبح حياته تأويلاً... وظلماً، نعوذ بالله من التردي في هذا.

٧. **التأثر بالإعلام المضلِّل**. إن العالم والداعية مثل غيره يتأثر بالإعلام الذي يُذاع ويُبثُّ ويُكتب، وقد يصدِّق أشياء غير صحيحة، ويعتقد بها اعتقادًا جازمًا، ثم يكتشف أن كلَّ ما قيل حول ذلك زيف وتضليل وتهويل لتحقيق أهداف معينة!

وإن حشدَ أكبر العقول في الدولة، وتسخير طاقاتها لنشر وتأييد أفكار مضللة، وخاصة إذا استمرَّ فيها والتُزم بها، كرفع رايات أحزاب علمانية تنادي بأفكار ثورية مكررة وجوفاء لبلوغ السلطة، وتسهل الأمور لمن يتبعها بصلات ومناصب... يؤثر أيَّما تأثير في الشعوب.

وينبغي أن يكون أهل العلم والدعوة مسلَّحين بالعلم ومحصَّنين بثقافة إسلامية تمنعهم من الانجراف وراء كل ناعق، فإن ميزانهم معهم أينما كانوا، وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يعرضون كل ما يأتيهم من أفكار وأقوال وأعمال عليهما، ويردُّون كل ما خالفهما، فهم لديهم مصدر خاص، و"إعلام" خاص يستقونه من دستورهم، ولا يتخذون سواه دليلاً لهم...

ولكن الذي يحدث أن فئة من العلماء والدعاة يصدِّقون ما يُقال من كذب وتهويل حول زعماء وأفكار وأحداث.

وأذكر أن دولة سخَّرت كل إمكاناتها الإعلامية والدعائية لرفع شأن رجل (لا أصفه) وخلطت صدقًا بأكاذيب، فتأثر بذلك عالم ومفكر إسلامي كبير، وصرَّح بأنه ودَّ لو كان كذا عنده! ولما هدأت العاصفة وذُكِّر، وعلم أن المقصود تحقيق أهداف طائفية وحزبية، اعترف وندم، ورجع عمَّا قال!

ولو قارنت كتب ذلك العالم ودراساته ومحاضراته وتوجيهاته للشباب والمسلمين عامة على مدى عقود من الزمن، بما وقع فيه وزلّ، لأخذك العجب... ولكنه الإعلام المضلِّل الذي يُفسد الملايين من البشر، ويطوِّعهم لشائعات وحروب نفسية، كما يجنِّدهم لحروب قتالية... وينخدع بها من لم تكن له قاعدة سياسية واطلاع على الأحزاب والاتجاهات السياسية ودخائلها، والعلماء الذين لا شأن لهم بالسياسة، ولا اطلاع لهم، أو لا وقت عندهم للاطلاع على الأحوال السياسية، عليهم أن يلتزموا تخصصاتهم العلمية بدل الوقوع في أخطاء لا تليق بمكانتهم.

هذا... وكيف بمن كان أقلَّ شأنًا من ذلك العالم ثقافة وتدينًا؟

إن الذين ينجون غالبًا من هذه الشائعات والتضليل الفكري هم الذين يجتمعون دوريًا، فيربُّون ويحلِّلون الأحداث كما يأتيهم من قيادات سياسية عليا، وينبهون إلى الأكاذيب والتضليلات، وكل ما كان من غزو فكري.

وينجو منها كذلك من كان نبيها فطنًا –وليس جزعًا متعجِّلاً– فإنه يسأل عن مصدر الخبر ليتثبت منه، ولا يصدِّق كل ما يقوله غير المؤمن، ويشك فيما يبثه الفاسق غير الملتزم بالحق، كما قال ربنا سبحانه في محكم كتابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [سورة الحجرات: ٦].

ولا شك أن من يصدِّق أو يتَّبع إعلامًا منحرفًا، يوصَمُ بالضلال والانحراف، ولو بنسبة معينة.

والفقرة التالية تكمل سابقتها.

٨. **ليس كل عالم سياسيًا**، فإذا دخل في السياسة بدون مجداف غرق، وخاصة في هذا العصر، الذي تعدَّدت فيه أفانين السياسة، وخفيت أسرارها، وتداخلت دهاليزها، لا يعرفها إلا من مارسها وكان مسؤولاً قياديًا فيها، فهي تحتاج إلى خبرة طويلة، واطلاع واسع، وعلاقات مع

مسؤولين محليين أو دوليين، وهذا ما يفتقده معظم علمائنا ودعاتنا المخلصين، الذين لا يُسمح لهم باعتلاء مناصب عليا في الدولة، وفي العلاقات الخارجية، وفي الأمن والسياسة خاصة.

فإذا تكلم فيها وأبدى رأيه في بعض قضايا الساعة لم يوفق في كثير منها، بل ربما أبدى رأيًا مبتسرًا، وتحليلاً ساذجًا لأمور، أو أن بعض أفراد الدولة أقنعوه ليصرّح بما يوافق رأيها، أو موافقة آراء دول كبرى لأنها من رأيها، أو يقول شيئًا ضد حركات أو أعلام بارزين، فيقع في مهاوي السياسة وألاعيبها، وهو لا يدري أنه لُعب به، ويستدرك هذا على نفسه بعد حين، ولكن بعد أن فقد ثقة المخلصين به، وهذا ما خطط له الآخرون!

٩. وأذكر أن **اتباع كل قاعدة سهلة**، واختيار كل ما هو سهل وميسَّر، دون اعتبار العزيمة في كل أمر، قد يكون فيه نظر ما. والقول هنا لأهل العلم والأصول.

إلا أن تتبع الرخص يوقع في التفسخ والانحلال، كما أن رفضها يوقع في الغلو... والوسط هو المطلوب، حتى لا يوصَم المرء بالانحراف والميل إلى أي منهما دون الآخر.

١٠. المداهنة. وهناك أمر بالغ الأهمية، قد لا يفطن إليه العلماء إلا بعد أن يكونوا قد مضوا في حكم الحكام الفاسدين!

فالعالم المخلص يحب جريان أحكام الإسلام في الحياة، ويريد من المسؤولين التفاعل مع دعوته... ولأهل السلطة خبرة وتفنن وحيل في جذب الناس إليهم، وخاصة الوجهاء والقادة والأثرياء والشيوخ، وهذا ما كان من شأن المشركين مع رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، الذين جاذبوه أطراف الإغراء ليترك دعوته ولكن دون فائدة، فطلبوا حلولاً وسطاً، ليتنازل ويتنازلوا، يقول ربنا عزَّ وجل: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم: ٩]، أي: تمنَّى المشركون أن تلين لهم وتصانعهم في دينك، فيلينون لك ويصانعونك في دينهم!

فكان هذا تنبيهاً ربانياً لرسوله الكريم ألاّ يتنازل عن الحق أبداً مهما أبدى المشركون من لين، وإنما يصبر وينتظر مع المضي في الدعوة.

وهذا هو حال حكومات معاصرة مع دعاة قادة، الذين يعِدونهم خيراً، ويفرجون عن أنصار لهم، وقد يساعدونهم، أو يفتحون أمامهم قنوات إعلامية، مع استقبالهم واحترامهم نوعاً ما، ولكن دون أي تقدُّم في تطبيق شعائر الدين... أي أنها تشريفات ومجاملات وممارسات شكلية لا عمق لها.

فليكن العالم على حذر، ولا يداهن في الدين أبداً، فإنه دينُ الله وليس دينه، وليس له أن يأخذ أو يذر ما يشاء منه. وليعلم أن زلة العالم زلة أمة، وأنه بصنيعه هذا في التنازل عن أحكام في الدين، قد يجرف معه كمًّا هائلاً من الناس، يعتقدون باعتقاده، فيكون عليه إثمه وإثمهم جميعاً، ويضرُّ نفسه والآخرين، والموعدُ يوم الحساب، والحاكم الواحد القهار.

ولا يغترَّ داعية أو عالم بنفسه، ولا بتاريخه العريق في الدعوة والعلم، وصبره على ذلك في الحياة وفي السجون، فإن كيد الأعداء وأحابيلهم تربك المرء وتزعزعه، لا لمغريات دنيوية، بل لسياسات ومناورات تتعلق بما يطلبه العالم والداعية، ولكن وراءها أمور قد لا تُدرك في الحال.

وهذا درسٌ من القرآن الكريم، والمخاطِبُ هو الله العليم الحكيم، والمخاطَبُ هو رسولُ ربِّ العالمين محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول له ربُّه عز وجل: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً} [سورة الإسراء: ٧٣]، أي: كاد المشركون أن يوقعوك في الفتنة، ويَصرفوك عما أوحيناه إليك من الأحكام، لما يراجعونك فيه ويقترحونه، ويطلبون منك أن تختلق على الله غير ما أوحاه إليك، ولو وافقتهم على ذلك لاتخذوك صديقاً وولياً لهم.

ثم يقول له سبحانه وتعالى ما معناه: ولو لم نثبّتك على الحقّ لكدت أن تميل إليهم شيئاً قليلاً؛ لشدة كيدهم واحتيالهم!

فليتنبَّه إلى هذا، فإنه مهم.

قال الله تعالى بعدها: {إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً}.

أي: لو أنك ملت إليهم يا محمد ولو شيئاً قليلاً، لأذقناك عذاباً مضاعفاً في الحياة الدنيا، وعذاباً مضاعفاً في الحياة الأخرى، ثم لا تجد معيناً يمنعك من عذابنا.

وقد عصم الله رسوله الكريم من فتنة المشركين والركون إليهم. وهذا درس كبير للمسلمين بعدم التنازل عن شيء من أحكام دينهم، فهو نظام متكامل لا يصلح التفريط بجزء منه، وفرقٌ بين العزّة بالإسلام والفخر به، وبين التنازل عنه أو بعضه.

١١. وهذا ما يجعلنا أن ندخل في سبب آخر من أسباب انحراف العلماء أشير إليه في الفقرة السابقة، وهو: **التقدير والاحترام**.

فمن المعروف أن العلماء والدعاة مهملون في الدول الإسلامية، ولا يعطون حقوقهم، بل يضيق عليهم في حياتهم ووظائفهم وأموالهم، بل ويحقَّرون ويُطردون ويسجنون ويعذبون، والعكس نادر جداً، فإذا رأيت عالماً وداعية قيادياً مخلصاً تتودَّد إليه الدولة وتحترمه وتقدره، فاعلم أن هذا أمر مستغرب لن يكون بلا نهاية!

وقد حدَّثني من أثق به أن عالماً كبيراً على مستوى العالم الإسلامي اشتهر جداً وأحبه الناس لعلمه وإخلاصه، فأرادت الدولة أن تستميله ليكون في جانبها، وخاصة أن الحاكم قد ظلم وتمادى في ظلمه دعاة الإسلام، فجنَّدت له جيشاً من المخابرات ذوي دراية وخبرة إسلامية، فكانوا يرافقونه في دروسه ومواعظه وخطبه ومحاضراته، ويسألونه ويبدون تأثرهم به وبأفكاره،

ويخلطون معه السياسة بالدين، ثم يطلبه الرئيس، فيجلس معه ومع بعض أسرته، ويسألانه أسئلة دينية، والرئيس نفسه يحترمه ويقدِّره، حتى انجرف معهم، وصار يثني على مسؤولهم الكبير، وكأنه بذلك يقول كلاماً طبيعياً مما رآه بعينه وسمعه بأذنه... فتدنَّت مكانته بين الناس كثيرًا، وتركه معظم تلامذته، حتى نبهه بعض أحبابه المخلصين السابقين بحكمة ولين، وشفقة عليه وعلى علمه ومكانته، فتذكَّر وتنبه، وقال: إنني أشعر بما وقعت فيه، ولكن والحمد لله عقيدتي سليمة لم يصبها شيء!

إن عمل المعروف مع شخص محتاج أو مهمل يطوِّق عنقه ويجعله كالعبد، فيجد صعوبة بالغة في ردِّه أو نقده، فليحذر الدعاة والعلماء من هذا، وليقتنعوا بما هم فيه من بُلغة، ولا يداهنوا في الحق أبداً، فإن رسالتهم في الحياة هي قول الحقّ، ومن أجل أن يسود الحقّ، ولوجه الله الحقِّ.

ولا يركننَّ أحدٌ من العلماء والدعاة إلى الحكَّام الظالمين، فإنَّ الله تعالَى يقول: {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} [سورة هود: ١١٣].

أي: لا تَسكُنوا إلى أهلِ الظُّلمِ ولا تَرضَوا بظُلمِهم، لا تَميلوا إلى الجَبّارينَ الطُّغاةِ الذينَ يَظلِمونَ عبادَ الله، ولا تَستَعينُوا بهم، ولا تَستَنِدوا إليهم، فتَكونوا كأنَّكمْ قدْ رَضِيتُمْ بأعْمالِهم، ويكونُ ركونُكمْ إليهمْ إقرارًا لهمْ على ما يُزاوِلونَهُ منْ ظُلمٍ ومُنكَر.

قالَ القاضي البيضاويُّ في تفسيرِه: لا تَميلوا إليهمْ أدنىَ مَيل، فإنَّ الركونَ هوَ الميْلُ اليَسير، كالتزَيّي بزِيّهم، وتَعظيمِ ذِكرِهمْ واستِدامَتِه.اهـ.

وقالَ صاحِبُ "روح المعاني": فما ظنُّكَ بمَنْ يَميلُ إلى الراسِخينَ في الظُّلمِ كُلَّ الميل، ويَتهالَكُ على مُصاحَبتِهمْ ومُنادَمتِهم، ويُتعِبُ قَلبَهُ وقالَبَهُ في إدخالِ السُّرورِ عَليهم، ويَستَنهِضُ الرِّجْلَ والخَيلَ في جَلبِ المنافِعِ إليهم، ويَبتَهِجُ بالتزَيّي بزِيّهم، والمشارَكةِ لهمْ في غَيّهم، ويَمُدُّ عَينَيهِ إلى ما

مُتِّعوا بهِ مِنْ زَهرَةِ الدُّنيا الفانيَة، ويَغبِطُهمْ بما أُوتُوا مِنَ القُطوفِ الدانيَة، غافِلاً عنْ حَقيقَةِ ذلك، ذاهِلاً عنْ مُنتَهى ما هُنالِك!

قال: ويَنبَغي أنْ يُعَدَّ مِثْلُ ذلكَ مِنَ الذينَ ظَلَموا لا منَ الرَّاكنينَ إلَيهم، بِناءً على ما رُوِيَ أنَّ رَجُلاً قالَ لسُفيان: إنِّي أَخيطُ للظلَمَة، فهلْ أُعَدُّ مِنْ أعوانِهم؟ فقالَ له: لا، أنتَ منهم، والذي يَبيعُكَ الإبرَةَ مِنْ أعوانِهم! اهـ.

فإذا فَعَلتُمْ ذلكَ تُصيبُكمُ النارُ بسَبَبِه...

والله يحفظُ عبادَهُ المؤمنين الصالحين المتَّقين.

(ز)

ضعف الكلمة

كتب الأستاذ سيد قطب رحمه الله مقالاً رائعاً بعنوان (قوة الكلمة)، ولكن لم يكتب هو أو غيره عن (ضعف الكلمة)!

كتب المقال المذكور بعد أن نشر كثيراً من مقالاته في الصحف والمجلات، وحاضر وناقش ودعا، ولكن كأنه لاحظ فتوراً في الاستجابة، أو عدم تأثير، فكأنه حدَّث نفسه أن: ما الفائدة من هذا الكلام كله إذاً؟! ثم جاء الوقت الذي جنى فيه ثمرات مما كتب وقال، في أماكن وأزمنة مختلفة، ولمس ما تفعله الكلمة المخلصة القوية، وكيف أنها تدغدغ القلوب، وتثير العقول، وتحفر في النفوس!

ومنذ سنوات مضت رأيت كتابات وفتاوى لعلماء، ولكن كثيراً من المسلمين والشباب خاصة لا يعملون بها، بل صار بعضهم لا يأبهون بكلماتهم، بعد أن رأوا علماء مثلهم يقولون بغير قولهم، فكأنهم صاروا يشكُّون فيما يقولون!

فالمسألة متشعبة إذاً، وتحتاج إلى دراسة وتمحيص، وأمثلة وشواهد، ودراسة جدوى ورجع صدى، والذي أكتبه هنا تنبيه وتذكير فقط.

- فمن ذلك ألا يكون المتصدر للعلم والفتوى عالماً بحق، ولم يُجَزْ من علماء أجلاء، ولم يشهد له أهل العلم والأقران بالتفوق والنبوغ والحكمة، ومع ذلك تراه مقدَّماً في وسائل الإعلام المختلفة، ويجيب على أسئلة المستمعين والمشاهدين من كل نوع!

وقد رأيت شيخاً فاضلاً فعل ذلك، ودخل في مسائل عويصة، وخالف بعض الأعلام، وأفتى في نوازل يتوقف فيها فطاحل العلماء، فلقي عنتاً وجفوة وصداً من طلبة العلم والعلماء،

فدافع عن مواقف له، وتراجع عن بعضها.. مما عرَّض نفسه للكلام، وسمعته للتشوه، وشخصيته للاهتزاز، فبقي ضعيف الكلمة بين الجمهور، ضعيف التأثير فيهم.

- ومن ذلك التشدد، والصدور عن مذهب واحد في الاجتهاد والقياس، دون ذكر الخلاف الذي قد يكون فيه رحمة، ودون التعويل على اجتهادات وفتاوى أخرى للعلماء في الموضوع، ولسان حال هذا الاتجاه يقول: هذا هو الحكم في الإسلام دون غيره، ومن لم يعمل به فهو آثم.

وبما أن الناس يبحثون عن السهل والميسَّر، وخاصة في هذا العصر، ويرون علماء آخرين يفتون بغير هذا، في بلدهم أو في بلدان أخرى من العالم، وبعضهم يفصِّلون في الأمر، ويذكرون وجه الحرمة أو الحل أو الكراهة في المسألة الواحدة بحسب الظروف والأحوال والأسباب، فإنهم يتجهون إليهم، ولا يأخذون كلام العلماء السابقين وأحكامهم بجدية كاملة، ويرون فيه تشدداً أو مبالغة، وأنه كان عليهم أن يذكروا وجوه الاختلاف والتفصيل على الأقل، وهذا ما يجعل كلامهم ضعيف التأثير.

- ومن ذلك علماء السلطة، وهم درجات، والمقصود هنا من ينظر إلى رضا الحاكم ولو كان في ذلك غضب الرب، ولا يذكر الأمر ولو كان حقاً إلا إذا كان مسموحاً له من قبل السلطان، فهؤلاء لا أرضية لهم أصلاً، أعني لا شعبية لهم، وأعني كذلك أنه لا يوثق بهم وبكلامهم، بل ينظر إليهم على أنهم ألعوبة تتحرك كما يلهو بها الحاكم، وأن لا علاقة لهم بدين الله القويم إلا شكلاً وحركات، والله أعلم بالباطن.

والأمثلة على ذلك كثيرة في عصرنا المظلم، وخاصة عند مفتيي الدكتاتوريين، وآخر ما سمعت من ذلك قول مفتي قطر إن النصارى ليسوا كفاراً!! وأنه لا يوجد نص في القرآن ولا في السنة يفيد ذلك!! قال ذلك لوفد أو مجموعة نصارى جاؤوا إلى بلده.. فقام الناس عليه من كل صوب، حتى بعض علماء السلطة أنفسهم، وسمَّوه (القس) فلان، بدل (المفتي)، حتى لم يجد

مفراً من التراجع عن كلامه! فهذا يدل على جهله بأصل الإسلام، وهو عقيدته، وبذلك لا يوثق به وبكلامه وأمثاله.

– ومن ذلك المغترُّون بإعلام السلطة المضلِّل، والغثاء من كتابات عناصرها في المجلات والجرائد والإذاعات والقنوات، فيظنون التهويل واقعًا، والكذب صوابًا، والتدجيل حقًّا، وأن السلطة بذلك على صواب، وينطلقون في أحكامهم وتحليلاتهم في السياسة الشرعية من هذا المنطلق، فيضلون بضلالها، ويصطدمون بمقاصد الشرع وآمال الشعب، ويؤولون فينحرفون، ويضرّون بالرأي الإسلامي العام ومقاصد الإسلام السامية والعادلة..

ومن آخر ذلك ما سمعته من عالم ومفكر إسلامي يكتب منذ أكثر من أربعين عاماً، وقد لاقت كتبه رواجاً طيباً بين المسلمين، ولكنه يقع في هذه الأخطاء مرة تلو الأخرى موافقة لما تعلن عنه السلطة، ويدخل في مجاهيل السياسة وأحابيل الحكومة، فيتخبط وينزل في آرائه إلى الحضيض، وقال في ثورة من الشعب على حاكمهم الدكتاتور الظالم المسلط على الناس، قال عمن قاموا بالثورة عليه: هؤلاء حثالة الناس!! وهم الأحرار المظلومون المقهورون.

فمثل هذا يفقد تلاميذه شيئاً فشيئاً، ولا يجد لكلماته صدى، إلا عند أنصار السلطة الذين ضلَّلوه بالإعلام وشباك الصيد ليقع فيها الأغرار، فوقع هو فيها، ونفَّذ مخططاتهم، وهو يحسب أنه أحسن صنعاً.

وتقاس على مثل هذا أمور لا تخفى... والمقال متعلق بما كتبته سابقاً بعنوان: أسباب انحراف العلماء والدعاة. والله أعلم.

(١١)
الذكر والدعاء

(أ)
آية في ذكر الله

قولهُ عزَّ وجلَّ {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**} [سورة الأحزاب: ٤١].

قال ابن عباس: لم يفرضِ الله تعالى فريضةً إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلَها في حال العذر، أما الذكرُ فإنه لم يجعلْ له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذرْ أحدًا في تركه، إلا مغلوبًا على عقله، وأمرهم به في كلِّ الأحوال، فقال: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [سورة النساء: ١٠٣].

وقال: {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} أي: بالليلِ والنهار، في البرِّ والبحر، وفي الصحة والسقم، وفي السرِّ والعلانية.

وقال مجاهد: الذكرُ الكثيرُ أنْ لا تنساهُ أبدًا.

(من تفسير البغوي ٦/٣٥٩ طبعة دار طيبة).

ثانيًا: علوم القرآن

(١)
التفسير

(أ)
هداية .. وزيادة

الصراط المستقيم في قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ} هو المنهج الحق الذي لا يميل، وهو ما يكون بوحي الله وتوفيقه، والمسلم يدعو بهذا في سورة الفاتحة كل يوم مرات، وتعني الآية: نسألك يا ربَّنا أن تُرشدنا وتوفِّقنا دائماً إلى الطريق الواضح الذي لا انحراف فيه، وهو اتباع دينك، وأن تثبتنا عليه.

وهو دعاء عظيم يحتاج إليه كل مسلم، وخاصة في هذا العصر الذي زادت فيه الفتن: "يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرَض من الدنيا" كما في صحيح مسلم.

ولعل في الآية الكريمة ما هو أوسع من هذه الدلالة، فإن المرء تعترضه أمور، وتفاجئه نوازل، وتواجهه مشكلات، لا يعرف طريق النور إليها، أو كيفية الخروج منها، وهو يبتغي رضاء الله، والمنهج السوي في هذه المدلهمات، وتأتي هذه الآية دعاء في ذلك، فالمرء بحاجة إلى دعاء مستمر لكي يهتدي بهداية الله، ويسير على الصراط المستقيم، وحتى لا يزيغ قلبه، ولا يُفتَن، ولا ينجرفَ مع أفكار وتيارات وفِرَق منحرفة، وأهواء زائغة... وهي كثيرة في محيطه.

والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى عباده المؤمنين بالهداية والتوفيق، ويجنبهم الأفكار السيئة والطرق الملتوية والاتجاهات المنحرفة. يقول ربنا الكريم في الآية (٤٣) من سورة الأحزاب: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}.

أي أن الله يُثني عليكم عند ملائكته، وهم يَدعون ويستغفرون لكم كذلك، ليخرجكم من ظلمات الجهل والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، وكان رحيماً بالمؤمنين إذ هداهم للحق في الحياة الدنيا، وأعدَّ لهم ما يسرهم في الآخرة.

وفي آية أخرى من روائع الهداية في كتاب ربنا الكريم: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً} [سورة مريم: ٧٦].

أي: يزيد الله المؤمنين المهتدين بهدي الله إيماناً ويقيناً. والطاعاتُ والأعمال الصالحة خيرٌ عند الله جزاء، فتبقى فوائدها، وتدوم عوائدها، وخير عاقبة ومرجعاً على صاحبها، فنتيجتها النعيم المقيم، ورضاءُ ربِّ العالمين.

إن الهداية تعني الحق، وتعني الطريق الصحيح الممهَّد للقلوب المهتدية. وتعني النقاء والصفاء، الذي يجلب الاطمئنان للقلب، والراحة للنفس، والنجاح في الدنيا، والفوز في الآخرة. اللهم اجعلنا ممن ينالونها.

(ب)
كيف يظهر الفساد في البحر؟

قوله سبحانه وتعالى: {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**} [سورة الروم: ٤١].

عرف الناسُ الفسادَ في البرِّ نتيجة ظلم الإنسان وبطشه، ولكن كيف يكون الفساد في البحر؟

لعل أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ المعاصر أن المقصود تلوث البحر، الذي يفسد البيئة البحرية بمياهها وحيواناتها..

ولكن أعلام التفسير لهم آراء أخرى في تفسير الآية، وقد اختلفت وجهات نظرهم في ذلك، واستعانوا بالمعاني اللغوية للبحر ليظهروا معنى الفساد فيه..

وهذه جولة قريبة فيها.

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في معناها: ظهرت المعاصي في برِّ الأرض وبحرها بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه.

قال: واختلف أهل التأويل في المراد من قوله: {ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ}، فقال بعضهم: عنى بالبرّ: الفلوات، وبالبحر: الأمصارَ والقُرى التي على المياه والأنهار.

ثم أورد الآثار في ذلك، منها قول مجاهد: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماءٍ جارٍ فهو بحر.

وقول عكرمة: إن العرب تسمي الأمصار بحرًا.

ثم قال الطبري: وقال آخرون: بل عنى بالبرّ: ظهرَ الأرض، الأمصارَ وغيرها، والبحر: البحر المعروف.

وأورد آثارًا في ذلك أيضًا،رتركزت على قولهم في فساد البحر: أخذُ الملِكِ السفنَ غصبًا.

وقول آخر: إذا قلَّ المطرُ قلَّ الغوص.

ورجَّح فقال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن الله تعالى ذكره أخبر أن الفساد قد ظهر في البرِّ والبحر، [والبرُّ] عند العرب في الأرضِ القفارُ، والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب،

فهما جميعًا عندهم بحر، ولم يخصِّص جلَّ ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسمُ بحرٍ عذبًا كان أو ملحًا. إذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار.

فتأويل الكلام إذن: إذ كان الأمر كما وصفت، ظهرت معاصي الله في كل مكان من برٍّ وبحرٍ {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}: أي بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما. ا.هـ.

وزاد ابن كثير قول عطاء الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر: جزائره.

وقال زيد بن رُفَيع: {ظَهَرَ الْفَسَادُ} يعني: انقطاع المطر عن البرِّ يعقبه القحط، وعن البحر تعمَى دوابُّه. رواه ابن أبي حاتم.

ورجَّح هو الآخر أن المقصود الأمصار والقرى، ولكنه لم يحدِّد ما إذا كان المقصود منها التي على الأنهار أم لا.

واستشهد بما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالحَ ملك أيلة، وكتب إليه ببحره، يعني: ببلده.

ومثلهما قول البغوي في تفسيره، وأن فساد البحر يعني قحط المطر.

ووضَّح الشهاب الآلوسي ما غمض من ذلك على القارئ، في تفسيره "روح المعاني"، فقال: وأيًّا ما كان، فالبرُّ والبحر على ظاهرهما، وعن مجاهد: البرّ: البلاد البعيدة من البحر، والبحر: السواحل والمدن التي عند البحر والأنهار، وقال قتادة: البرّ: الفيافي ومواضع القبائل وأهل الصحارى والعمود، والبحر: المدن، والعرب تسمي الأمصار بحارًا لسعتها، ومنه قول سعد بن عبادة في عبد الله بن أبي ابن سلول: ولقد أجمع أهل هذه البحيرة – يعني المدينة – ليتوِّجوه. قال أبو حيان: ويؤيد هذا قراءة عكرمة «والبحور» بالجمع، ورويت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وجوَّز النحاسُ أن يكون البحرُ على ظاهره، إلا أن الكلام على حذف مضاف، أي: مدن البحر، فهو مثل: {وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ} [سورة يوسف: ٨٢].

أما الفساد نفسه، ففي معناه أقوال، وكلها متقاربة كما قال القرطبي في تفسيره، قال رحمه الله: اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر; فقال قتادة والسدي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد.

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: فساد البرِّ قتل ابن آدم أخاه، قابيل قتل هابيل. وفي البحر: بالملك الذي كان يأخذ كلَّ سفينة غصبًا.

وقيل: الفساد القحط وقلة النبات وذهاب البركة.

ونحوه [قول] ابن عباس، قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا.

قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية.

وعنه أيضًا: أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم.

وقال عطية: فإذا قلَّ المطر قلَّ الغوص عنده، وأخفق الصيادون، وعميت دوابُّ البحر.

وقال ابن عباس: إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ.

وقيل: الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش.

وقيل: الفساد: المعاصي وقطع السبيل والظلم; أي: صار هذا العمل مانعًا من الزرع والعمارات والتجارات.

والمعنى كله متقارب. ا.هـ.

وقال الآلوسي: كالجدب، والمَوَتان، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصَة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضارع.

ومن التفاسير الحديثة في ذلك، قول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير":

والفساد: سوء الحال، وهو ضدُّ الصلاح، ودلَّ قوله {فِي البَرِّ والبَحْرِ} على أنه سوء الأحوال فيما ينتفع به الناس من خيرات الأرض، برِّها وبحرها.

وقال أيضًا: وفساد البرِّ يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موَتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تُصاد من جراء قحط الأرض إلى أَرَضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه، من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان (فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب)، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس...

وقال: فذكرُ البرِّ والبحر لتعميم الجهات، بمعنى: ظهرَ الفساد في جميع الأقطار الواقعة في البرِّ والواقعة في الجزائر والشطوط. ا.هـ.

وفصَّل الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة ذلك في "معارج التفكر ودقائق التدبر" ١٦٨/١٥، مركزًا على معنى تلوث البيئة وإفساد الحياة الفطرية، من خلال تشويه بعض السنن الحياتية في الأرض والسماء.

فذكر أن ظهور الفساد في البرِّ والبحر والجوِّ هو لتدخل الناس في تغيير نظام الله في كونه، وضرب لذلك ستة أمثلة كنماذج، منها بإيجاز:

تدخل الناس في نظام الغابات، فقطعوا أشجارها بإسراف.

كما أسرف الناس في صيد الحيوانات بوسائل القتل الجماعي في أوقات التزاوج والتكاثر.

ثم الآلات الصناعية المستحدثة، وما نتج عنها من مخلَّفات مفسدة أو سامة، نتج منها تلوث في الهواء وفي الماء وفي باطن الأرض.

وكذا اكتشاف الناس للطاقة الذرية والأسلحة النووية، وما نتج عنه من تعريض شعوب ومدن كبرى لأمراض خطيرة جدًّا.

وأيضًا تدخل الناس في تغذية الحيوانات على خلاف نظام الله في كونه، ابتغاء التنمية الكثيرة والربح الوفير، وقد نتج عنه فساد في الأحياء، منها ما عُرف بجنون البقر، والفيروسات التي أصابت بعض الدواجن.

وكذا تدخل الناس في أنظمة الله الاجتماعية، منها نظام الأسرة...

قال رحمه الله: وجاء التعبير بالفعل الماضي بقوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} مع أنه لم يكن قد ظهر هذا الفساد إبّان تنزيل هذا البيان الربّاني، للدلالة على أن هذا الفساد سيظهر حتمًا في مستقبل الناس، فتحقُّقه في المستقل بالنسبة إلى العلم الربّاني بمثابة تحقُّقه في الماضي، لأن علم الله لا يختلف.

قال: وهذه الآية من معجزات القرآن الخبرية التي تحدَّثت عمّا سيكون، كالذي جاء في أوائل هذه السورة... ا.هـ.

ويرجِّح الأستاذ عبدالرحمن هنا معنى "البحر" على ما هو ظاهره، وهو ما يبدو من الآية الكريمة، من ذكر "البرّ" ثم "البحر"، كما هو في سائر الآيات بالقرآن الكريم.

والنتيجة، هي ما جاء في آخر الآية الكريمة.. {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

قال في المصدر السابق: دلَّ هذا البيان على أن الفساد الذي ظهر في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس، فيه مكاره للناس وآلام، هي من عقوبات الله لهم على تدخلهم في تغيير أنظمة الله في كونه، التي مكَّنهم من التغيير فيها، ليبلوهم فيما مكَّنهم منه.

والله عزَّ وجلَّ يذيق الناسَ آلام بعضِ ما كسبتْ أيديهم؛ رغبةً منه في أن يرجعوا عن تماديهم في تدخلاتهم المفسدات.

(ج)
سورة عظيمة

هناك حديث شريف رواه الصحابي الجليل عقبة بن عامر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أخرجه كثير من الرواة بألفاظ متقاربة، منهم ابن حبان في صحيحه، وأحمد، والحاكم بإسناد صحيح.

يقول عقبة: تَبعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب، فجعلتُ يدي على قدمه، فقلت: يا رسول الله، أقرئني إما من سورةِ هود، وإما من سورةِ يوسف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عُقبةَ بنَ عامر، إنَّكَ لنْ تَقرأَ سورةً أحبَّ إلى اللهِ ولا أبلغَ عندَهُ مِن أن تَقرأَ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، فإنِ استَطعتَ أن لا تَفوتَكَ في صلاةٍ فافعَل". واللَّفظُ لابن حبان.

وسورة الفلق سورة عظيمةٌ لمن تمعَّن في تفسيرها.

وقد أعجبني من بيان لفظ "الفلق" في قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير، فإن أكثر المفسرين يرون أن معناه "الصبح"، وتوسَّع في ذلك آخرون وانتصر لهم الفخر فقال ما ملخصه: الفلقُ عبارة عن كل ما يفلقه الله، كالأرْضِ عنِ النَّبات، والجبالِ عن العيون، والسَّحابِ عنِ الأمطار، والأرحامِ عنِ الأولاد، والبَيضِ عن الفرخ، والقلوبِ عن المعارف.

قال: فإذا فسَّرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال: قل أعوذ بربِّ جميع الممكنات، ومكوِّنِ كلِّ المحدَثات والمبدعات، فيكون التعظيم فيه أعظم، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى.

وقوله تعالى: {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}: أي: مِنْ شَرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ خَلقَهُ الله.

ومعنى: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}: ومِنْ شَرِّ القمَرِ إذا دخلَ في الخسُوف.

قالتْ عائشَةُ رَضيَ اللهُ عنها: نظرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى القمَرِ فقال: "يا عائشَة، استَعيذي باللهِ مِنْ شَرِّ هذا، فإنَّ هذا الغَاسِقُ إذا وقَب". رَواهُ الترمذيُّ والحاكمُ وأحمَدُ بإسنادٍ صَحيح.

ويورِدُ المفَسِّرونَ مَعنَى الآيَةِ بأنَّه: اللَّيلُ إذا أظلَم.

والظَّلامُ يَنتَشِرُ عندَ الخسُوفِ أيضًا، وخاصَّةً عندَ اكتِمالِ دُخولِهِ إلى مِنطَقَةِ ظِلِّ الأرْض، حيثُ يَخسِفُ كامِلُ قُرصِ القمَر.

وقوله تعالى: {وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} أي: ومِنْ شَرِّ السَّواحِرِ اللَّواتي يَعقِدْنَ العُقَدَ في الخُيوطِ ويَنفُخْنَ فيها، ليَضرُرْنَ النَّاسَ بسِحرِهنّ.

ومعنى {وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}: ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا أظهَرَ ما في نَفسِهِ مِنَ الحسَد، وأحَبَّ زَوالَ النِّعمَةِ عنْ غَيرِه، ولم يَرْضَ بما قسَمَ اللهُ له.

فهذا التجاء واعتصام بربٍّ عظيم، في سورة عظيمة ذكرها رسولُ ربِّ العالمين، يعصمكَ من شرور وفتن في هذه الدنيا، فاحرص على قراءتها، في الصلاة وغيرها، والله يحفظك.

(د)

فوائد غنية

من تفسير ابن عطية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فقد يسَّر الله عمل مستدرك على "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" للقاضي الأديب عبدالحق بن عطية الإشبيلي (ت ٥٤٢ هـ)، سميته "الهدية في الاستدراك على تفسير ابن عطية". وكانت تمرُّ بي أثناء تصفحه فوائد عزيزة، ذات أهمية، فأستفيد منها، وأقيدها، وأردت أن ينتفع بها القارئ أيضًا، ويضيفها إلى ثقافته الإسلامية، ومعرفته بكتاب ربِّه، من علوم وتفسير.

وهي هذه، في مقاطع وفقرات، كلها من تفسير المؤلف رحمه الله، لم أتصرف فيها.

ووثقت كل فقرة برقم الصفحة في آخرها، من طبعة دار ابن حزم ببيروت. والله الموفق.

- قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالى كالناظر في عين الشمس، لأنه تعالى ليس كمثله شيء، وإنما التفكير وانبساطُ الذهنِ في المخلوقات، وفي مخاوف الآخرة. (ص ٣٩٢).

- تكتب "إذاً" بالنون وبالألف، فالنون هو الأصل، كـ (عن) و(من)، وجاز كَتبُها بالألف لصحة الوقوف عليها، فأشبهت نون التنوين، ولا يصح الوقوف على (عن) و(من). (ص ٤٤٧).

- {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [سورة النساء: ٥٩].

والردُّ إلى الله: هو النظر في كتابه العزيز، والردُّ إلى الرسول: هو سؤاله في حياته، والنظر في سنته بعد وفاته عليه [الصلاة و] السلام. (ص ٤٥٠).

- تقول العرب: زعم فلان كذا، في الأمر الذي يَضعف فيه التحقيق، وتتقوّى فيه شبه الإبطال، فغايةُ درجةِ الزعم إذا قوي أن يكون مظنوناً. (ص ٤٥٠).

وقال في موضع آخر، عند تفسير الآية: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [سورة الأنعام: ٢٢].

الزعم: القول الأميل إلى الباطل والكذب، في أكثر كلامهم، وقد يقال: (زعم) بمعنى ذكر دون ميل إلى الكذب، وعلى هذا الحدّ يقول سيبويه: "زعم الخليل". ولكن ذلك إنما يستعمل في الشيء الغريب الذي تبقى عهدته على قائله. (ص ٦١٠).

وقال أيضًا:

{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة التغابن: ٧]: يريد قريشاً، ثم هي بعدُ تعمّ كل كافر بالبعث. وقال عبد الله بن عمر: الزعم: كنية الكذب، وقال عليه السلام: "**بئس مطيةُ الرجلِ زعموا**" [صحيح الجامع ٢٨٤٦]. ولا توجد "زعم" مستعملةً في فصيحٍ من الكلام، إلا عبارةٌ عن الكذب، أو قولٌ انفرد به قائله، فيريد ناقله أن يبقي عهدته على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم. وقول سيبويه: زعم الخليل، إنما يجيء فيما انفرد الخليل به. (ص ١٨٦٣).

- {وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى} الآية (١٤) من سورة المائدة.

علق كونهم نصارى بقولهم ودعواهم، من حيث هو اسم شرعي يقتضي نصرَ دين الله، وسموا به أنفسهم دون استحقاق ولا مشابهة بين فعلهم وقولهم، فجاءت هذه العبارة موبخة لهم، مزحزحة عن طريق نصر دين الله وأنبيائه. (ص ٥٢٦).

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [سورة المائدة: ٥١].

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة. وحكمُ هذه الآية باق. وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله

حظه من هذا المقت الذي تضمنه قوله تعالى: {فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}. وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملابسة فلا تدخل في النهي، وقد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودياً ورهنه درعه.

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} إنحاءٌ على عبدالله بن أُبيّ وكل من اتصف بهذه الصفة من موالاتهم، ومن تولاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقد ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. (ص ٥٥١-٥٥٢).

- يقال: فَقِه الرجل بكسر القاف: إذا فهم الشيء. وفَقُه بضمها: إذا صار فقيهاً له ملَكة، وفَقَه: إذا غلبَ في الفقه غيرَه. (ص ٦١١).

- {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الأنعام ٩٢].

{أُمَّ الْقُرَى}: مكة، سميت بذلك لوجوه أربعة، منها: أنها منشأ الدين والشرع، ومنها: ما روي أن الأرض منها دُحِيَت، ومنها: أنها وسط الأرض، وكالنقطة للقرى، ومنها ما لحق عن الشرع من أنها قبلة كل قرية. فهي لهذا كله أمّ، وسائر القرى بنات. وتقدير الآية: لتُنذر أهلَ أمِّ القرى، {وَمَنْ حَوْلَهَا} يريد أهلَ سائر الأرض. (ص ٦٤٤).

- قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} الآية، [سورة الأنعام: ١٠٨].

مخاطبة للمؤمنين والنبي عليه [الصلاة و] السلام، وقال ابن عباس: وسببها أن كفار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سبّ آلهتنا والغضّ منها، وإما نسبّ إلهه ونهجوه. فنزلت الآية.

وحكمها على كل حال باق في الأمة، فمتى كان الكافر في منَعة، وخيف أن يسبّ الإسلام أو النبي صلى الله عليه وسلم والله عزَّ وجل، فلا يحلُّ للمسلم أن يسبَّ دينهم ولا صلبانهم، ولا يتعرض ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه. (ص ٦٥٢).

- {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [سورة الأعراف: ٥٥].

يريد في الدعاء، وإن كان اللفظ عاماً، فإلى هذا هي الإشارة.

والاعتداء في الدعاء على وجوه، منها: الجهر الكثير والصياح، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوم – وقد رفعوا أصواتهم بالتكبير –: "أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً"، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلةُ نبيّ، أو يدعو في مُحال، ونحو هذا من التشطط. ومنها أن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك. (ص ٧١١).

- {وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف: ٨٦].

والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوات والشرائع بالإصلاح. (ص ٧٢٣).

- القرية: المدينة الجامعة للناس، لأنها تقرَّت، أي اجتمعت. (ص ٧٢٤).

- "مهما" أصلها عند الخليل "ما ما"، فبدلت الألف الأولى هاء. وقال سيبويه: هي "مه ما "، خلطتا وهي حرف واحد. وقال غيره: معناه "مَهْ وما" جزاء. ذكره الزجّاج. (ص ٧٣٥).

- قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ}... الآية [سورة الأعراف: ١٤٢].

المعنى: وقال موسى حين أراد المضيَّ للمناجاة والمغيب فيها. و {اخْلُفْنِي} معناه كن خليفتي. وهذا استخلاف في حياة، كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته، لا يقتضي أنه متمادٍ بعد وفاة. فينحلّ على هذا ما تعلق به الإمامية في قولهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم

استخلف علياً بقوله: "أنت مني كهارون من موسى"، وقال موسى: {اخْلُفْنِي}، فيترتب على هذا أن علياً خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما ذكرناه يحلّ هذا القياس. (ص ٧٤٠).

- قالَ في الآية الأولى من سورة الأنفال:

النفْل والنفَل والنافلة في كلام العرب الزيادة على الواجب، وسميت الغنيمة نفلاً لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله عز وجل. (ص ٧٧٤).

- قال أبو عمرو بن العلاء: الأسرَى هم غير الموثَقين عندما يؤخَذون، والأُسارَى هم الموثَقون ربطاً. (ص ٨١٨).

- قال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المساجد فحسّنوا به الظن. (ص ٨٣٢).

- {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة التوبة: ٤٠].

يريد: فعلوا من الأفاعيل ما أدى إلى خروجه. وأسند الإخراج إليهم إذ المقصود تذنيبهم. (ص ٨٤٦).

- {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [سورة يونس: ٢٠]. الآية.

يريدون بقولهم: {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}: آيةً تضطرُّ الناسَ إلى الإيمان. وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا هي المعجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضلَّ آخرون. (ص ٩٠٣).

- {هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ} [سورة يونس: ٢٢].

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسببيله من ركوب البحر، وركوبهُ وقتَ حُسنِ الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه، أو لتصرف

التجر، وأما ركوبه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأكثر، وغايةُ مُبيحهِ أن يقول: وتركهُ أحسن. وأما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع. (ص ٩٠٣).

- إذا أردتَ بـ (هود) اسم السورة لم ينصرف، كما تفعل إذا سميت امرأة بـ (عمرو) و(زيد)، وإذا أردت (سورة هود) صرفت. (ص ٩٣٠).

- وقوله: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة هود: ٥٦] يريد أن أفعال الله عز وجل هي في غاية الإحكام، وقوله الصدق، ووعده الحق؛ فجاءت الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عز وجل. (ص ٩٥٣).

- الحِلم: العقل إذا انضاف إليه أناة واحتمال. (ص ٩٦٠).

- التاء في {تَاللهِ} [سورة يوسف: ٧٣] بدل من واو، كما أبدلت في تراث، وفي التورية، وفي التخمة، ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى، لا في غير ذلك، لا تقول: تالرحمن، ولا تالرحيم. (ص ١٠٠٩).

- {خَاطِئِينَ} [سورة يوسف: ٩١] من خطىء يخطأ، وهو المتعمد للخطأ، والمخطىء من أخطأ، وهو الذي قصد الصواب فلم يوفق إليه. (ص ١٠١٧).

وفي موضع آخر: الخاطئ: متعمد الكذب، والمخطئ: الذي لا يتعمده. (ص ١٤٣٤).

- لا يقال للمزرعة (جَنَّة) إلا إذا خالطها شجرات. (ص ١٠٣٩).

- {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [سورة الرعد: ٢٨].

"طمأنينة القلوب" هي الاستكانة والسرور بذكر الله، والسكون به كمالاً به، ورضى بالثواب عليه، وجودة اليقين. (ص ١٠٣٩).

- قوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [سورة إبراهيم: ٣٤] يريد به النوع والجنس، المعنى: توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، فإن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة، وإن كانت من عاص فهي بصفة أخرى. (ص ١٠٥٨).

- {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة إبراهيم: ٣٦].

قوله: {وَمَنْ عَصَانِي} ظاهره بالكفر، بمعادلة قوله: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي}، وإذا كان ذلك كذلك فقوله: {فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} معناه: بتوبتك على الكفرة حتى يؤمنوا، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر، لكنه حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب – صلى الله عليه وسلم – قال قتادة: اسمعوا قول الخليل صلى الله عليه وسلم، والله ما كانوا طعّانين ولا لعّانين، وكذلك قال نبي الله عيسى: {وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[سورة المائدة: ١١٨]. (ص ١٠٥٨).

- {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الحجر: ٩٢-٩٣].

ضمير عام، ووعيد محض، يأخذ كل أحدٍ منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يُسأل عن (لا إله إلا الله)، وعن الرسل، وعن كفره وقصده به، والمؤمن العاصي يُسأل عن تضييعه، والإمام عن رعيته، وكل مكلف عما كلف القيام به. وفي هذا المعنى أحاديث. (ص ١٠٨١).

- قوله: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} [سورة النحل: ٦٩]. الضمير للعسل، قاله الجمهور: ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان، بل هو خبرٌ عن أنه يشفي، كما يشفي غيرهُ من الأدوية في بعضٍ دون بعض، وعلى حالٍ دون حال، ففائدة الآية إخبار منبه منه في أنه دواء، كما كثر الشفاء به، وصار خليطاً ومعيناً للأدوية في الأشربة

والمعاجين، وقد روي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو شيئاً إلا تداوى بالعسل، حتى إنه كان يدهن به الدمّل والقرصة، ويقرأ: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}. قال القاضي أبو محمد [ابن عطية]: وهذا يقتضي أنه يرى الشفاء به على العموم.

وقال مجاهد: الضمير للقرآن، أي فيه شفاء.

وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية إنما يراد بها أهل البيت ورجال بني هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة. وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي، فقال له رَجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم! فأضحك الحاضرين، وبُهت الآخر، وظهرت سخافة قوله. (ص ١١٠٤).

- و {أَرْذَلِ الْعُمُرِ} [سورة النحل: ٧٠] آخرُه الذي تَفسد فيه الحواس، ويختلّ النطق. وخصّ ذلك بالرذيلة وإن كانت حال الطفولية كذلك، من حيث كانت هذه لا رجاء معها، والطفولية إنما هي بدأة، والرجاء معها متمكن. وقال بعض الناس: أول أرذل العمر خمس وسبعون سنة، روي ذلك عن علي رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا في الأغلب، وهذا لا ينحصر إلى مدة معينة، وإنما هو بحسب إنسان وإنسان، والمعنى: منكم من يردُّ إلى أرذل عمره، وربَّ من يكون ابن خمسين سنة وهو في أرذل عمره، ورب ابن مائة وتسعين ليس في أرذل عمره. (ص ١١٠٥).

- {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل: ٩٠].

وهي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر، في آخر كل خطبة، لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهي. (ص ١١١٢).

- {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف: ٤٩].

قدم الصغيرة اهتماماً بها، لينبه منها، ويدلَّ أن الصغيرة إذا أُحصيت فالكبيرة أحرى بذلك، والعرب أبداً تقدم في الذكر الأقلَّ من كل مقترنين. (ص ١١٩٦).

- {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} [سورة مريم: ٧].

قال قتادة: سمي (يحيى) لأن الله أحياه بالنبوءة والإيمان، وقال بعضهم: سمي بذلك لأن الله أحيا له الناس بالهدى. (ص ١٢٢٠).

- وقوله: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة المؤمنون: ٩٦] الآية، أمرٌ بالصفح ومكارم الأخلاق، وما كان منها لهذا فهو حكمٌ باق في الأمة أبداً، وما كان فيها من معنى موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال. (ص ١٣٣٩).

- وكل تفضلٍ لله فهو بغير حساب، وكل جزاءٍ على عمل فهو بحساب. (ص ١٣٦٥).

- {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} [سورة الفرقان: ٧٤].

مدحَ المؤمنين حالَ الدعاءِ إليه في أن يقرّ العيونَ بالأهل والذرية. و "قرة العين" يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القرّ، وهو الأشهر؛ لأن دمع السرور بارد، ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أقرَّ الله عينك، وأسخن الله عين العدو. و "قرة العين" في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تعالى، قاله ابن عباس والحسن وحضرمي. (ص ١٣٩٢).

- والأنبياء من العرب أربعة هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام، وإسماعيل عليه السلام عربي اللسان سرياني النسب وهو أبو العرب الموجودين اليوم. ص ١٤٠٦.

- "الحدائق" مجتمع الشجر من الأعناب والنخيل وغير ذلك، قال قوم: لا يقال (حديقة) إلا لما عليه جدار قد أحدق به، وقال قوم: يقال ذلك كان جداراً أو لم يكن؛ لأن البياض محدق بالأشجار. (ص ١٤٢٦).

- قال العلماء: الميت من الأحياء هو الذي يلقى الله تعالى بكفره. (ص ١٤٢٨).

- {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ} [سورة القصص: ٤].

قوله {فِي الْأَرْضِ} يريد في أرض مصر وموضع مُلكه، ومتى جاءت {الْأَرْضِ} هكذا عامة، فإنما يراد بها الأرض التي تشبه قصة القول المسوق؛ لأن الأشياء التي تعم الأرض كلها قليلة. والأكثر ما ذكرناه. (ص ١٤٣٣).

- {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت:٦٤].

وصف الله تعالى الدنيا في هذه الآية بأنها {لَهْوٌ وَلَعِبٌ} أي: ما كان منها لغير وجه الله تعالى، فأما ما كان لله فهو من الآخرة، وأما أمور الدنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات، فإنما هو {لَهْوٌ وَلَعِبٌ}. وتأمل ذلك في المطاعم والملابس والأقوال والمكتسبات وغير ذلك، وانظر أن حالة الغني والفقير في الأمور الضرورية واحدة، كالتنفس في الهواء، وسدِّ الجوع، وستر العورة، وتوقِّي الحر والبرد، وهذه عظم أمر العيش. (ص ١٤٦٩).

- قيل لبعضهم: أتملُّ الحديث؟ قال: إنما يُمَلُّ العتيق. قال الفقيه الإمام القاضي: يريد القديم المعاد، لأن الحديث من الأحاديث فيه الطرافة التي تمنع من الملل. (ص ١٤٨٤).

- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة الأحزاب: ١].

قوله: {اتَّقِ} معناه: دُمْ على التقوى، ومتى أُمِر أحدٌ بشيء هو به متلبس، فإنما معناه الدوام في المستقبل، على مثل الحالة الماضية. (ص ١٤٩٩).

- {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [سورة الأحزاب: ٦].

قال بعض العلماء العارفين: هو أَولَى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة... (ص ١٥٠١).

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [سورة الأحزاب: ٤١].

أمر تعالى عباده بأن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل تعالى ذلك دون حدّ ولا تقدير، لسهولته على العبد، ولعظم الأجر فيه. قال ابن عباس: لم يُعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله، وقال: الكثيرُ أن لا تنساه أبداً. (ص ١٥١٦).

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [سورة الأحزاب: ٥٣].

قال ابن عباس: نزلت في ناس في المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يُدرَك، ثم يأكلون ولا يخرجون. وقال إسماعيل بن أبي حكيم: هذا أدبٌ أدَّب الله تعالى به الثقلاء. وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: بحسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم! (ص ١٥٢٠).

- {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا} [سورة فاطر: ٢].

من هذه الآية سمّت الصوفية ما تُعطاه من الأموال والمطاعم وغير ذلك "الفتوحات"! ومنها كان أبو هريرة يقول: مُطرنا بنَوء الفتح، وقرأ الآية. (ص ١٥٤٥).

- {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} [سورة ص: ٢٦].

لا يقال (خليفة الله) إلا لرسوله، وأما الخلفاء: فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله، فذلك تجوّز وغلوّ، كما قال ابن قيس الرقيات:

خليفة الله في بريته   جفت بذاك الأقلام والكتب

ألا ترى أن الصحابة رضي الله عنهم حرروا هذا المعنى، فقالوا لأبي بكر الصديق: خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهذا كان يُدعى مدته، فلما ولي عمر قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله، فطال الأمر، ورأوا أنه في المستقبل سيطول أكثر، فدعوه (أمير المؤمنين)، وقصر هذا الاسم على الخلفاء. (ص ١٥٩٨).

- آخر سورة الزمر: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

قوله: {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ختمٌ للأمر، وقولٌ جزمٌ عند فصلِ القضاء، أي: إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يُحمد عند نفوذ حكمه وإكمالِ قضائه.

ومن هذه الآية جُعلت {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} خاتمة المجالس والمجتمعات في العلم. وقال قتادة: فتح الله أول الخلق بالحمد، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [سورة الأنعام: ١]، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية. قال القاضي أبو محمد [ابن عطية]: وجعل الله {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة: ١] فاتحة كتابه، فبه يُبدأ كلُّ أمر، وبه يُختم، وحمدُ الله تعالى وتقديسهُ ينبغي أن يكون من المؤمن. {ص ١٦٢٦).

- {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [سورة الشورى: ٣٨].

مدح تعالى القومَ الذين أمرهم شورى بينهم، لأن في ذلك اجتماعَ الكلمة، والتحابّ، واتصال الأيدي، والتعاضد على الخير. (ص ١٦٧٠).

- {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [سورة الجاثية: ٢٣].

قال ابن عباس: ما ذكر الله هوى إلا ذمَّه. وقال الشعبي: سمي هوى لهويه بصاحبه. وقال النبي عليه [الصلاة و] السلام: "**والعاجز من أتبعَ نفسهُ هواها وتمنى على الله**". وقال سهل التستري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك. وقال سهل: إذا شككت في خير أمرين، فانظر أبعدَهما مِن هواك فأته. ومن حكمة الشعر في هذا قول القائل:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادكَ الـ ... ـهوى إلى كل ما فيه عليك مقال

(ص ١٧٠٢).

- {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [سورة الأحقاف: ٢٩].

قوله: {نَفَراً} يقتضي أن المصروفين رجال لا أنثى معهم. والنفر والرهط: القوم الذين لا أنثى فيهم. (ص ١٧١٥).

- {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد: ٣١].

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلنا، فإنك إن ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. (ص ١٧٢٦).

- {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [سورة الفتح: ٦].

(بالفتح) [يعني السَّوء]، رجحها الفراء، وقال: قلما تضمُّ العربُ السين. (ص ١٧٣٠).

- ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [سورة الطور: ٣].

الرَّق: الورقُ المعدة للكُتْب، وهي مرققة، فلذلك سميت رقاً. (ص ١٧٧٠).

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [سورة النجم: ٢].

الضلال أبداً يكون من غير قصد من الإنسان إليه. والغيّ كأنه شيء يكتسبه الإنسان ويريده، نفى الله تعالى عن نبيه هذين الحالين.

وغوى الرجل يغوي إذا سلك سبيل الفساد والعوج. ونفى الله تعالى عن نبيه أن يكون ضلّ في هذه السبيل التي أسلكه الله إياها، وأثبت له تعالى في [سورة] الضحى أنه قد كان قبل النبوءة ضالاً، بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها. (ص ١٧٧٨).

قال محمد خير: وللمقارنة أورد من تفسير ابن كثير قوله في الآية: وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق، العادل عنه قصداً إلى غيره. ا.هـ.

- يجتنبون: يدَعون جانبًا. (ص ١٧٨٣).

- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة الحديد: ٢٣] يدلُّ على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدى إلى الاختيال، والفخرُ بنعم الله المقترن بالشكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه، ولا حرج فيه. (ص ١٨٢٧).

- قال أبو يزيد البسطامي: قدم علينا شاب من بلخ حاجاً فقال: ما حدّ الزهد عندكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ! فقلت له: فما هو عندكم؟ فقال: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا. (ص ١٨٤٢).

- {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [سورة الصف: ٥ — ٦].

حكى عن موسى أنه قال: {يَا قَوْمِ}. وعن عيسى أنه قال: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، من حيث لم يكن له فيهم أب. (ص ١٨٥٣).

- قال أبان بن تغلب: سمعت أعرابياً يذمُّ رجلاً، فقال: "شرُّه طِباق، وخيره غيرُ باق". (ص ١٨٧٧).

- "ثمود" اسم عربي معرفة، فإذا أريد به القبيلة لم ينصرف، وإذا أريد به الحيّ انصرف، وأما "عاد" فكونه على ثلاثة أحرف ساكن الوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف. (ص ١٨٨٩).

- (أول سورة نوح): وصُرف (نوحٌ) مع عجمته وتعريفه لخفته وسكون الوسط من حروفه. (ص ١٩٠١).

- {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [سورة الجن: ١٨].

ولقد قعدتُ للقضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية مدة، ثم رأيت فيه من سوء المتخاصمين وأيمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه، فقطعت القعود للأحكام فيه. (ص ١٩٠٩).

- {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [سورة المزمل: ٤].

معناه في اللغة: تمهَّلْ وفرِّقْ بين الحروف لتبين. والمقصد أن يجد الفكرُ فسحةً للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرقّ القلب ويفيض عليه النور والرحمة. (ص ١٩١٢).

- قال ابن كيسان: ولا يقال (الكأس) إلا لما فيه نبيذ ونحوه، ولا يقال (ظعينة) إلا إذا كان عليها امرأة، ولا (مائدة) إلا وعليها طعام، وإلا فهي خُوان. (ص ١٩٢٩).

- {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [سورة النازعات: ٤٠].

"الهوى" هو شهوات النفس وما جرى مجراها، وأكثر استعماله إنما هو في غير المحمود، قال سهل التستري: لا يَسلَم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصدّيقين، وقال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه، وقال الفضيل: أفضل الأعمال خلافُ الهوى. (ص ١٩٤٦).

- {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [سورة الأعلى: ١٦].

أخبر تعالى الناس أنهم يؤثرون "الحياة الدنيا"، فالكافر يؤثرها إيثارَ كفرٍ يرى أنْ لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثارَ معصيةٍ وغلبةِ نفس إلا من عصم الله. (ص ١٩٧٠).

- {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [سورة الغاشية: ١٧].

(الإبل) في هذه الآية هي الجِمال المعروفة، هذا قول جمهور المتأولين. وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل، ليس في الحيوان ما يقوم من البروك بحمله سواه، وهو على قوته غايةٌ في الانقياد... وكان شريح القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكُناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت! (ص ١٩٧٣).

(هـ)

فوائد علمية من "فتح القدير"

الحمد لله العليّ القدير، والصلاة والسلام على البشير النذير، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قد منَّ الله عليَّ بالاستدراك على الإمام الشوكاني في تفسيره العظيم "فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير"، وكانت تمرُّ بي فوائد فيه أعجب لها وآنس بها فأدوّنها، وأردت أن يشاركني في الإفادة منها القارئ الكريم، فجمعتها ورتبتها في هذه المقالة، مكتفيًا بذكر الآية أولًا في الغالب، لتدلَّ على موضعها من التفسير، وقد أتبعها بذكر الجزء والصفحة، وقليلًا ما أقتصر على الأخير. والمقصود طبعة دار الكلم الطيب (ط٢، دمشق، بيروت، ١٤١٩ هـ). والله الموفق.

*** *** ***

١- {ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة البقرة: ١٥].

قال في تفسير أول الآية: أي: يُنزل بهم الهوان والحقارة، وينتقم منهم، ويستخفّ بهم؛ انتصافاً منهم لعباده المؤمنين.

٢- {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ} [سورة البقرة: ٩٨].

العداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله، والبغضُ لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه، وعدمُ التجاوز عنه، والمغفرةِ له.

٣- {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [سورة البقرة: ١٤٢].

السفهاء: جمع سفيه، وهو الكذَّاب البَهَّات المعتقد خلاف ما يعلم، كذا قال بعض أهل اللغة. وقال في الكشاف: هم خفاف الأحلام، ومثله في القاموس.

٤- {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً**} [سورة البقرة: ١٦٨].
سمي الحلال حلالًا لانحلال عقدة الحظر عنه. والطيب هنا هو المستلذ. (١/١٩٣).

٥- سمي السوء سوءًا لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته. (١/١٩٣).

٦- قال في طالوت عند تفسير قوله تعالى: {**قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ**} [سورة البقرة: ٢٤٧]:
{ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ} أي: اختاره، واختيار الله هو الحجة القاطعة. ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء: بأن الله زاده بسطة في العلم، الذي هو ملاك الإنسان، ورأس الفضائل، وأعظم وجوه الترجيح، وزاده بسطة في الجسم، الذي يظهر به الأثر في الحروب، ونحوها، فكان قوياً في دينه، وبدنه، وذلك هو المعتبر، لا شرف النسب. فإن فضائل النفس مقدّمة عليه. (١/٣٠٣).

٧- والتابوت: فعلوت من التوب، وهو الرجوع؛ لأنهم يرجعون إليه. (١/٣٠٣).

٨- {**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ**} [سورة البقرة: ٢٥٩].
وإنما قال: {يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} بناء على ما عنده، وفي ظنه، فلا يكون كاذباً، ومثله قول أصحاب الكهف: {قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} [سورة الكهف: ١٩]، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم في قصة ذي اليدين: " لم تَقصر ولم أنس". وهذا ما يؤيد قول من قال: إن الصدق ما طابق الاعتقاد، والكذب ما خالفه. (١/٣٢٠).

٩- قد اختلف أهل العلم في قوله: {**لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ**} [سورة البقرة: ٢٥٦] على أقوال:
الأوّل: أنها منسوخة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام، وقاتلهم، ولم يرض منهم إلا بالإسلام، والناسخ لها قوله تعالى:{يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ } [سورة التوبة: ٧٣، سورة التحريم: ٩]، وقال تعالى: {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة: ١٢٣]، وقال: {سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}[سورة الفتح: ١٦]، وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين.
القول الثاني: أنها ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يُكْرَهون على الإسلام إذا أدّوا الجزية، بل الذين يُكْرَهون هم أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، وإلى هذا ذهب الشعبي، والحسن، وقتادة، والضحاك.
القول الثالث: أن هذه الآية في الأنصار خاصة....

١٠- ما أحسن ما يحكى عن بعض العرب أنه قيل له: إنك تموت، وتُبعث، وترجع إلى الله، فقال: أتهددونني بمن لم أر الخير قط إلا منه؟ (١/٣٨١).

١١- {**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**} [سورة آل عمران ٣٨].
المعنى: أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم، أو في ذلك الزمان، أن يهب الله له ذرية طيبة، والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنَّة لمريم، وقد كانت عاقراً، فحصل له رجاء الولد، وإن كان كبيراً، وامرأته عاقراً، أو بعثه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء في الصيف، والصيف في الشتاء عند مريم؛ لأن من أوجد ذلك في غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر.

١٢- {**كُونُواْ رَبَّنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**} [سورة آل عمران: ٧٩].

في هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه، والإخلاص لله سبحانه. (٤٠٧/١).

١٣- {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ} [سورة آل عمران ١٧١]:

النعمة: ما يُنعم الله به على عباده. والفضل: ما يتفضل به عليهم، وقيل النعمة: الثواب، والفضل: الزائد، وقيل: النعمة الجنة، والفضل داخل في النعمة، ذُكر بعدها لتأكيدها. (٤٥٨/١).

١٤- {وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [سورة النساء: ٧٤].

وعد المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يقادر قدره، وذلك أنه إذا قُتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور، وإن غَلب وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله، مع ما قد ناله من العلوّ في الدنيا والغنيمة.

وظاهرُ هذا يقتضي التسوية بين من قتُل شهيداً، أو انقلب غانماً، وربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أجرهما مستوياً، فإن كون الشيء عظيماً هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيماً بالنسبة إلى ما هو دونه، وحقيراً بالنسبة إلى ما هو فوقه. (٥٦٢/١).

١٥- {أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا}؟ [سورة النساء: ٨٨].

للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجع فيه هداية البشر.

قوله: {فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} أي: طريقاً إلى الهداية. (٥٧٢/١).

١٦- {إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [سورة النساء: ١٤٢].

مخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع، من إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ومعنى كون الله خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم، ودماءهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار. (٦١٠/١).

١٧- {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ} [سورة المائدة: ٧٧].

أي: غلوًّا غيرَ غلوِّ الحق، وأما الغلوُّ في الحق، بإبلاغ كلية الجهد في البحث عنه، واستخراج حقائقه، فليس بمذموم. (٧٥/٢).

١٨- {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ} [سورة الأنعام: ٦].

القرن: يطلق على أهل كل عصر، سموا بذلك لاقترانهم... وقيل: القرن مدّة من الزمان، وهي ستون عاماً، أو سبعون، أو ثمانون، أو مائة، على اختلاف الأقوال.

١٩- {وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً} [سورة الأنعام: ٦].

المدرار: صيغة مبالغة تدل على الكثرة، كمذكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور، ومئناث للتي تلد الإناث.

٢٠- {حَتَّىٰ إِذَا جَاءوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَـٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ} [سورة الأنعام ٢٥].

الأساطير: قال الزجاج: واحدها أسطار. وقال الأخفش: أسطورة. وقال أبو عبيدة: أسطارة. وقال النحاس: أسطور. وقال القشيري: أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له، كعباديد وأبابيل، والمعنى: ما سطره الأوّلون في الكتب من القصص والأحاديث. قال الجوهري: الأساطير: الأباطيل والترّهات.

٢١- {وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ} [سورة الأنعام: ٥٠].

{وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّ مَلَكٌ} حتى تكلّفوني من الأفعال الخارقة للعادة مالا يطيقه البشر. وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء. وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية. بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، و"من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

٢٢- قيل: الروح إذا خرجت من البدن في المنام بقيت فيه الحياة، وقيل: لا تخرج منه الروح، بل الذهن فقط، والأَولى أن هذا أمر لا يعرفه إلا الله سبحانه. (١٤٢/٢).

٢٣- قال النحاس: والعرب تقول: "يوم مظلم" إذا كان شديداً، فإذا عظمت ذلك قالت: يوم ذو كوكب، أي: يحتاجون فيه لشدّة ظلمته إلى كوكب. (١٤٣/٢).

٢٤- {وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ} [الأنعام ٦٨].

في هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة، الذين يحرّفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه، فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرّمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذياتهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدّة عمره، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر. (١٤٦/٢).

٢٥- أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء. (١٥٥/٢).

٢٦- {وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ} [سورة الأنعام: ١١٦].
أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، وهم الطائفة التي لا تزال على الحق، ولا يضرّها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢٧- {**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**} [سورة الأعراف: ٢٧].
استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً، فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً.

٢٨- {**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**} [سورة الأعرف: ٣١].
ومن الإسراف: الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع.

٢٩- {**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**} [الأعراف:٣٢].
... ما أحسن ما قال ابن جرير الطبري: ولقد أخطأ مَن آثرَ لباسَ الشعر والصوف على لباس القطن والكتان، مع وجود السبيل إليه مِن حلّه، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البرّ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً مِن عارض الشهوة.
[وقال الإمام الآلوسي في تفسيره روح المعاني: ... وقد نص الفقهاء على أنه يستحب التجمل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "إن لله تعالى إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه". وقيل لبعضهم: أليس عمر رضي الله تعالى عنه كان يلبس قميصاً عليه كذا

رقعة؟ فقال: فعل ذلك لحكمة، هي أنه كان أمير المؤمنين، وعماله يقتدون به، وربما لا يكون لهم مال فيأخذون من المسلمين. نعم كره بعض الأئمة لبس المعصفر والمزعفر، وكرهوا أيضاً أشياء أخر تطلب من محالها].

٣٠- {**وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ**} [سورة الأعراف: ٤٧].

أصل معنى "تلقاء": جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة.

٣١- {**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**} [سورة الأعراف: ٥٤].

أصل "ستة" سدسة، أُبدلت التاء من أحد السينين، وأُدغم فيها الدال، والدليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة، وفي الجمع أسداس، وتقول: جاء فلان سادساً.

٣٢- {**وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ**} [سورة الأعراف: ١٨٠].

الإلحاد: الميل وترك القصد... والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه:

- إما بالتغيير، كما فعله المشركون، فإنهم أخذوا اسم (اللات) من الله، و(العُزَّى) من العزيز، و(مناة) من المنّان.
- أو بالزيادة عليها، بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها.
- أو بالنقصان منها، بأن يدعوه ببعضها دون بعض.

٣٣- {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون**} [سورة الأنفال: ٢٧].

سميت أمانات لأنه يؤمَن معها من منعُ الحق، مأخوذة من الأمن.

٣٤- {**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا**} [سورة التوبة: ٥١].

الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن، وأن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفّي الحسدة.

٣٥- {**وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ**} [سورة التوبة: ٦٨].

في هذه الآية دليل على أن "وعد" يقال في الشر، كما يقال في الخير.

٣٦- {**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُون**} [سورة التوبة ٨٤].

إنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، والكذب والنفاق والخداع والجبن والخبث مستقبحة في كل دين.

٣٧- المسرف في اللغة: هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس. (٤٨٨/٣).

٣٨- {**إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**} [سورة يونس ٤٤].

ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل، والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، وركّب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلَّى بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش تجني.

٣٩- {**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُون**} [سورة يونس: ٥٠].

وجه الإنكار عليهم في استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب، وتأباه الطبائع، فما المقتضى لاستعجالهم له؟

٤٠- {**أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْمَلُونَ**} [سورة يونس: ٦٨]

... يستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض.

٤١- {**مُرِيب**} [سورة هود: ٦٢].

الريبة: قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة.

٤٢- {**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ**} [سورة يوسف ٢٢].

كل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه. وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به. وهذا عام...

٤٣- {**نَبِّىْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ** } [سورة الحِجر: ٤٩-٥٠].

عندما جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير، صاروا في حالة وسط بين اليأس والرجاء، وخيرُ الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأنس والهيبة.

٤٤- {**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ**} التسخير لهذه الأمور، {**لَآيَةً**} واضحة {**لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**} [سورة النحل: ١٣].

فإن من تذكَّر اعتبر، ومن اعتبر استدلَّ على المطلوب.

٤٥- {**فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ**} [سورة مريم: ١١].

وهو مصلاه، واشتقاقه من الحرْب، كأنّ ملازمه يحارب الشيطان. وقيل: من الحرَب محركاً، كأن ملازمه يلقَى حرَباً وتعباً ونصباً.

٤٦- {**قَالَ هِيَ عَصَايَ**} [سورة طه: ١٨].

تعرّض قوم لتعداد منافع العصا، فذكروا من ذلك أشياء، منها قول بعض العرب: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي، ليتسع خطوي، وأثب بها النهر، وتؤمنني العثر، وألقي عليها كسائي، فتقيني الحرّ، وتدفيني من القرّ، وتدني إليّ ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي، وعلاقة إداوتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وأُورثها بعدي بنيّ.

٤٧- {وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٨].

الخشية: الخوف مع التعظيم، والإشفاق: الخوف مع التوقع والحذر.

٤٨- {وَتُوبُواْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ} [سورة النور: ٣١].

فيه الأمر بالتوبة، ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين.

٤٩- {أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ} [سورة الفرقان: ٤٣].

أي: أطاع هواه طاعة كطاعة الإله، أي: انظر إليه يا محمد، وتعجَّب منه. قال الحسن: معنى الآية: لا يهوى شيئاً إلاّ اتبعه.

٥٠- {نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة النمل: ٨].

حكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء.

٥١- {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً} [سورة النمل: ١٥].

في الآية دليل على شرف العلم، وارتفاعِ محله، وأن نعمة العلم من أجلِّ النعم التي ينعم الله بها على عباده، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومُنح شرفاً جليلاً.

٥٢- {إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا} [سورة النمل ٩١].

معنى {حَرَّمَهَا}: جعلها حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم، ولا يُظلم فيها أحد، ولا يُصطاد صيدها، ولا يُختلى خلاها.

٥٣- {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} [سورة الروم: ٣٨].

... قال مجاهد: لا تقبلْ صدقةً من أحد.

٥٤- {وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ} [سورة الروم: ٥٥].

أي: القيامة، وسميت ساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا.

٥٥- {ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [سورة الأحزاب: ٦].

أي: هو أحقُّ بهم في كلّ أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم، فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم. وبالجملة فإذا دعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدّموا ما دعاهم إليه ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم.

٥٦- {وَهُوَ خَيْرُ ٱلرزِقِينَ} [سورة سبأ: ٣٩].

رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة، بل على طريق المجاز، كما يقال في الرجل: إنه يرزق عياله، وفي الأمير: إنه يرزق جنده، والرازق للأمير، والمأمور، والكبير، والصغير، هو الخالق لهم، ومَن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله، فهو إنما تصرّف في رزق الله له.

٥٧- {وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ} [سورة يس: ٦٧].
المسخ: تبديل الخِلقة إلى حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة.

٥٨- {وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ} [سورة الشورى: ٣٩].
ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة، حيث قال: {وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون: ٨]، فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. قال النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىءَ عليهم السفهاء. ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته، كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} ...

٥٩- {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون} [سورة الزخرف:٢٣].
خصص المترفين تنبيهًا على أن التنعم هو سبب إهمال النظر.

٦٠- {يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنّ} [سورة الحجرات: ١٢].
الظنّ هنا هو مجرد التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأن مِن الظنِّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم، ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به، فارتفع عن الشكّ والتهمة.
قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءًا، فأما أهل السوء والفسوق، فلنا أن نظنّ بهم مثل الذي ظهر منهم.
قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءًا، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم.

وحكى القرطبي عن أكثر العلماء، أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح.

٦١- {**وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**} [سورة الإنسان: ٢٢].

أي: كان عملكم في الدنيا بطاعة الله مرضيًّا مقبولًا. وشكرُ اللهِ سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته.

٦٢- {**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ**} [سورة المطففين: ١].

قال الزجاج: إنما قيلَ للذي ينقصُ المكيال والميزان مطفِّف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف.

٦٣- {**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**} [سورة الطارق: ٢].

قال سفيان: كل ما في القرآن {وَمَا أَدْرَاكَ} فقد أخبره به، وكل شيء قال: {وَمَا يُدْرِيكَ} لم يخبره به.

***   ***   ***

فوائد

من تفسير التحرير والتنوير

الحمدُ لله الذي هدَى، والصلاةُ والسلامُ على الرسولِ المصطفى، وعلى الآلِ والأصحابِ ومن به اقتدَى، وبعد:

فقد وفقني الله تعالى للاستدراك على تفسير (التحرير والتنوير) للعلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمهُ الله (ت ١٣٩٤ هـ)، وهو تفسيرٌ موسَّع، من أجلّ التفاسيرِ الحديثةِ وأبرزها، وفيه فوائدُ غزيرة، تدلُّ على ثقافةِ المفسّرِ وعلمهِ الواسع. وكنت أحتفظُ ببعضها لإطلاعِ القارئ عليها أيضًا، فإنها تثير طلبة العلم، وتبعثُ على النشاطِ والمتابعة، أدعو الله تعالى أن ينفعَ بها.

××× ××× ×××

١- {**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**} [سورة البقرة: ٤٥].

الأمرُ بالاستعانةِ بالصبر؛ لأن الصبرَ ملاكُ الهدى، فإن مما يصدُّ الأممَ عن اتباعِ دينٍ قويمٍ إلفَهم بأحوالهم القديمة، وضعفَ النفوسِ عن تحملِ مفارقتها، فإذا تدرَّعوا بالصبرِ سهلَ عليهم اتباعُ الحق.

٢- {**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**} [سورة البقرة: ٦٩].

احتيج إلى تأكيد الصفرة بالفقوع - وهو شدة الصفرة - لأن صفرة البقر تقرب من الحمرة غالباً، فأكده بفاقع، والفقوع خاص بالصفرة، كما اختص الأحمر بقان، والأسود بحالك، والأبيض بيقق، والأخضر بمدهامّ، والأورق بخطباني، نسبة إلى الخُطبان - بضم الخاء، وهو نبت كالهليون -، والأرمك، وهو الذي لونه لون الرماد... والنصوع يعم جميع الألوان، وهو خلوص اللون من أن يخالطه لون آخر.

٣- {**وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ**} [سورة البقرة: ٩٢].

القرآن ليس مثل تأليف في علم يحال فيه على ما تقدم، بل هو جامع مواعظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات، نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة، فلذلك تتكرر فيه الأغراض لاقتضاء المقام ذكرها حينئذ عند سبب نزول تلك الآيات.

٤- {**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**} [سورة البقرة :١٠٢].

وأما ما يلزم في المسحور فخوَر العقل، وضعف العزيمة، ولطافة البنية، وجهالة العقل. ولذلك كان أكثر الناس قابلية له النساء والصبيان والعامة، ومن يتعجب في كل شيء.

وبابل بلد قديم من مدن العالم، وأصل الاسم باللغة الكلدانية (باب إيلو) أي: باب الله، ويرادفه بالعبرانية (باب إيل). وهو بلد كائن على ضفتي الفرات، بحيث يخترقه الفرات، يقرب موضعه من موقع بلد الحلَّة الآن، على بعد أميال من ملتقى الفرات والدجلة. كانت من أعظم مدن العالم القديم.

٥- {**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ**} [سورة البقرة:١٣٢].

وبنو إبراهيم ثمانية:

إسماعيل، وهو أكبر بنيه، وأمه هاجر.

وإسحاق، وأمه سارة، وهو ثاني بنيه.

ومديان، ومدان، وزمران، ويقشان، وبشباق، وشوح، وهؤلاء أمهم قطورة، التي تزوجها إبراهيم بعد موت سارة.

وليس لغير إسماعيل وإسحاق خبر مفصل في التوراة، سوى أن ظاهر التوراة أن مديان هو جد أمة مَدين أصحاب الأيكة، وأن موسى عليه السلام لما خرج خائفاً من مصر نزل أرض مديان، وأن يثرون أو رعوئيل (وهو شعيب) كان كاهن أهل مدين.

٦- {**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ**} [سورة البقرة: ١٤٠].

الأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غروراً ومن دون تدبر، اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل، واجتمعت في عقائدها المتناقضات.

٧- **{وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون}** [سورة البقرة: ٢٠٣].

{وَاتَّقُواْ اللّهَ}: وصية جامعة للراجعين من الحج، أن يراقبوا تقوى الله في سائر أحوالهم وأماكنهم، ولا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج كما كانت تفعله الجاهلية، فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغِيرون ويفسدون، وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان.

٨- **{فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}** [سورة البقرة: ٢٣٠].

حكمة هذا التشريع العظيم: ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق أزواجهم، وجعلهن لُعباً في بيوتهم، فجعل للزوج الطلقة الأولى هفوة، والثانية تجربة، والثالثة فراقاً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث موسى والخضر: فكانت الأولى من موسى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً. فلذلك قال له الخضر في الثالثة: {هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} [سورة الكهف: ٧٨].

٩- **{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}** [سورة البقرة: ٢٧٢].

الهُدى هنا بمعنى الإلجاء، لحصول الهدي في قلوبهم، وأما الهُدى بمعنى التبليغ والإرشاد، فهو على النَّبِي، ونظائر هذا في القرآن كثيرة.

١٠- **{وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ}** [سورة البقرة: ٢٨٦].

لم يؤت مع هذه الدعوات بقوله (ربَّنا)، إمّا لأنّه تكرّر ثلاث مرات، والعرب تكره تكرير اللفظ أكثر من ثلاث مرات، إلاّ في مقام التهويل، وإمّا لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله {رَبَّنَا} فروع لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استجيب تلك حصلت إجابة هذه بالأَولى.

١١- {**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**} [سورة آل عمران: ١٤].

التحذير من الغايات يستدعي التحذير من البدايات.

١٢- {**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُون**} [سورة آل عمران: ٤٤].

كان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وجعل اليهودُ الاقتراعَ بالأقلام التي يكتبون بها التوراة في المِدراس رجاء أن تكون بركتها مرشدة إلى ما هو الخير. وليس هذا من شعار الإسلام، وليس لإعمال القرعة في الإسلام إلاّ مواضع تمييز الحقوق المتساوية من كل الجهات، وتفصيله في الفقه .

١٣- {**أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين**} [آل عمران: ١٣٦].

سمي الجزاء أجرًا لأنه كان عن وعدٍ للعامل بما عمل.

١٤- {**ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً**} [آل عمران: ١٥٤].

الأمَنةُ ـ بفتح الميم ـ: الأمن، والنعاس: النوم الخفيف، أو أوّل النَّوم، وهو يزيل التعب ولا يغيّب صاحبه، فلذلك كان أمَنة، إذ لو ناموا نوماً ثقيلاً لأُخذوا، قال أبو طلحة الأنصاري، والزبير، وأنس ابن مالك: غَشيَنا نعاس حتَّى إنَّ السيف ليسقط من يد أحدنا. وقد استجدُّوا بذلك نشاطهم، ونسوا حزنهم، لأنّ الحزن تبتدىء خفَّته بعد أوّل نومة تعفيه، كما هو مشاهد في أحزان الموت وغيرها.

١٥- {**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون**} [آل عمران: ١٧٠].

في هذا دلالة على أنّ أرواح هؤلاء الشهداء مُنحت الكشفَ على ما يسرُّها من أحوال الذين يهمُّهم شأنهم في الدنيا، وأنّ هذا الكشف ثابت لجميع الشهداء في سبيل الله. وقد يكون خاصّاً الأحوال السارّة لأنّها لذّة لها، وقد يكون عامّاً لجميع الأحوال؛ لأنّ لذّة الأرواح تحصل بالمعرفة، على أنّ الإمام الرازي حَصر اللذّة الحقيقية في المعارف. وهي لذّة الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء، ولو كانت سيئة.

١٦- {**وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور**} [سورة آل عمران: ١٨٦].

العزم: إمضاء الرأي، وعدم التردد بعد تبيين السداد.

١٧- {**لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**} [سورة النساء: ١٤٨].

رخَّص الله للمظلوم الجهر بالقول السيّء ليشفي غضبه، حتّى لا يثوب إلى السيف أو إلى البَطش باليد، ففي هذا الإذن توسعة على من لا يمسك نفسه عند لحاق الظلم به.

١٨- {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**} [سورة المائدة: ٥١].

اتفق علماء السنَّة على أنَّ ما دون الرضا بالكفر وممالأتهم عليه من الولاية لا يُوجب الخروج من الربقة الإسلاميّة، ولكنّه ضلال عظيم، وهو مراتب في القُوّة، بحسب قوّة الموالاة، وباختلاف أحوال المسلمين.

١٩- {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ**} [سورة المائدة: ٨٧].

في الحديث الصحيح، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أمّا أنا فأقوم وأرقد، وأصوم وأُفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منّي".

والنهي إنّما هو عن تحريم ذلك على النفس. أمّا ترك تناول بعض ذلك في بعض الأوقات من غير التزام، ولقصد التربية للنفس على التصبّر على الحِرمان عند عدم الوجدان، فلا بأس به، بمقدار الحاجة إليه في رياضة النفس.

وكذلك الإعراض عن كثير من الطّيبات للتطلّع على ما هو أعلى، من عبادة أو شغل بعمل نافع، وهو أعلى الزهد، وقد كان ذلك سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصّةٍ من أصحابه، وهي حالة تناسب مرتبته ولا تتناسب مع بعض مراتب الناس، فالتطلّع إليها تعسير، وهو مع ذلك كان يتناول الطيّبات دون تشوّف ولا تطلّع. وفي تناولها شكر لله تعالى، كما ورد في قصّة أبي الدحداح، حين حَلّ رسولُ الله وأبو بكر وعمرُ في حائطه وأطعمهم وسقاهم.

وعن الحسن البصري، أنّه دُعي إلى طعام ومعه فَرقد السَبَخي وأصحابه، فجلسوا على مائدة فيها ألوان من الطعام، دجاج مسمَّن وفالَوْذ، فاعتزل فرقد ناحية، فسأله الحسن: أصائم أنت؟ قال: لا، ولكنّي أكره الألوان؛ لأنّي لا أؤدّي شكره، فقال له الحسن: أفتشرب الماءَ البارد؟ قال: نعم، قال: إنّ نعمةَ الله في الماءِ البارد أكثر من نعمته في الفَالَوْذ.

وليس المراد من النهي أن يلفظ بلفظ التحريم خاصّة، بل أن يتركه تشديداً على نفسه، سواء لفظ بالتحريم أم لم يلفظ به. ومن أجل هذا النهي اعتبر هذا التحريم لغواً في الإسلام، فليس يلزم صاحبه في جميع الأشياء التي لم يجعل الإسلام للتحريم سبيلاً إليها، وهي كلّ حال عدا تحريم الزوجة. ولذلك قال مالك فيمن حرّم على نفسه شيئاً من الحلال أو عمّم فقال: الحلال عليّ حرام، أنّه لا شيء عليه في شيء من الحلال، إلاّ الزوجة، فإنّها تحرم عليه...

٢٠- {**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**} [سورة المائدة: ٩٣].

قد يَلُوح ببادىء الرأي أنّ حال الذين تُوُفُّوا قبل تحريم الخمر ليس حقيقاً بأن يَسأل عنه الصحابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، للعلم بأنّ الله لا يؤاخذ أحداً بعمل لم يكن محرّماً من قبل فعله، وأنّه لا يؤاخذ أحداً على ارتكابه إلاّ بعد أن يعلم بالتحريم، فالجواب أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا شديدي الحذر ممّا ينقص الثواب، حريصين على

كمال الاستقامة، فلمّا نزل في الخمر والميسر أنّهما رجس من عمل الشيطان، خَشوا أن يكون للشيطان حظّ في الذين شربوا الخمر وأكلوا اللحم بالميسر وتُوفُّوا قبل الإقلاع عن ذلك، أوْ ماتوا والخمر في بطونهم مخالطة أجسادهم، فلم يتمالكوا أن سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حالهم لشدّة إشفاقهم على إخوانهم، كما سأل عبد الله بن أمّ مكتوم لما نزل قوله تعالى: {لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [سورة النساء: ٩٥]، فقال: يا رسول الله، فكيف وأنا أعمَى لا أبصر؟ فأنزل الله غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [سورة النساء: ١٤٣]. وكذلك ما وقع لما غُيّرت القبلة من استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة، قال ناس: فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يستقبلون بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [سورة البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتَكم. فكان القصد من السؤال التثبّت في التفقّه، وأن لا يتجاوزُوا التلقّي من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور دينهم.

٢١- {**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُون**} [سورة الأنعام: ١٠٠].

كان دين العرب في الجاهليّة خليطاً من عبادة الأصنام، ومن الصّابئيّة عبادة الكواكب، وعبادة الشّياطين، ومجوسيّة الفرس، وأشياء من اليهوديّة، والنّصرانيّة، فإنّ العرب لجهلهم حينئذٍ كانوا يتلقّون من الأمم المجاورة لهم والّتي يرحلون إليها عقائد شتّى، متقارباً بعضها ومتباعداً بعض، فيأخذونه بدون تأمّل ولا تمحيص لفقد العلم فيهم، فإنّ العلم الصحيح هو الذائد عن العقول من أن تعشِّش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة، فالعرب كان أصل دينهم في الجاهليّة عبادة الأصنام، وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجنّ والشّياطين ونحو ذلك. فكان العرب يثبتون الجنّ وينسبون إليهم تصرّفات، فلأجل ذلك كانوا يتّقون الجنّ، وينتسبون إليها، ويتّخذون لها المَعاذات والرُّقَى، ويستجلبون رضاها بالقرابين، وترك تسمية الله على بعض الذبائح. وكانوا يعتقدون أنّ الكاهن تأتيه الجنّ بالخبر من السّماء، وأنّ الشاعر له شيطان يوحي إليه الشّعر، ثمّ إذ أخذوا في تعليل هذه التصرّفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم

في ألوهيّة الله تعالى تعلَّلوا لذلك بأنّ للجنّ صلة بالله تعالى، فلذلك قالوا: الملائكة بنات الله مِن أمّهات سَرَوات الجنّ.

٢٢- {**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون**} [سورة الأنعام: ١١٦].

الأرض يطلق على جميع الكرة الأرضية، الّتي يعيش على وجهها الإنسان والحيوان والنّبات، وهي الدّنيا كلّها. ويطلق الأرض على جزء من الكرة الأرضيّة معهودٍ بين المخاطَبين، وهو إطلاق شائع، كما في قوله تعالى {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ} [سورة الإسراء: ١٠٤] يعني الأرض المقدّسة، وقولِه: {أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [سورة المائدة: ٣٣] أي: الأرض التي حاربوا الله فيها. والأظهر أنّ المراد في الآية المعنى المشهور، وهو جميع الكرة الأرضية، كما هو غالب استعمالها في القرآن. وقيل: أريد بها مكّة؛ لأنّها الأرض المعهودة للرّسول عليه الصلاة والسلام. وأيّاً ما كان، فأكثر من في الأرض ضالّون مضلّون، أمّا الكرة الأرضية فلأنّ جمهرة سكّانها أهل عقائد ضالّة، وقوانين غير عادلة... وسبب هذه الأكثرية أنّ الحقّ والهدى يحتاج إلى عقولٍ سليمة، ونفوس فاضلة، وتأمّل في الصّالح والضارّ، وتقديمِ الحقّ على الهوى، والرشدِ على الشّهوة، ومحبّة الخير للنّاس، وهذه صفات إذا اختلّ واحد منها تطرّق الضلال إلى النفس بمقدار ما انثلم من هذه الصفات. واجتماعها في النفوس لا يكون إلاّ عن اعتدال تامّ في العقل والنفس، وذلك بتكوين الله وتعليمه، وهي حالة الرسل والأنبياء، أو بإلهام إلهي، كما كان أهل الحقّ من حكماء اليونان، وغيرهم من أصحاب المكاشفات وأصحاب الحكمة الإشراقية، وقد يسمّونها الذوق، أو عن اقتداء بمرشد معصوم، كما كان عليه أصحاب الرّسل والأنبياء وخيرة أممهم.

٢٣- {**وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**}. [سورة الأنعام: ١٢١]

في حكم التسمية على الذبيحة: مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال: أحدها أنّ المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمَّد ترك التّسمية استخفافاً أو تجنّبا لها لم تؤكل، وهذا مثل ما يفعله بعض الزنوج من المسلمين في تونس، وبعض بلاد الإسلام،

الذين يزعمون أنّ الجنّ تمتلكهم، فيتفادَون من أضرارها بقرابين يذبحونها للجنّ، ولا يسمّون اسم الله عليها، لأنّهم يزعمون أنّ الجنّ تنفر من اسم الله تعالى خِيفة منه، وهذا متفشّ بينهم في تونس ومصر، فهذه ذبيحة لا تؤكل.

٢٤- {**يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**} [سورة الأعراف: ٢٧].

في الآية إشارة إلى أنّ الشّيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدم؛ لأنّه يسرّه أن يراه في حالة سوء وفظاعة.

... {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ}: الأجسام الخفيّة عن الحواس، وهي المسمّاة بالمجرّدات في اصطلاح الحكماء، ويسمّيها علماؤنا الأرواح السفليّة.

٢٥- {**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ**} [سورة الأعراف: ١٣٨].

القوم هم الكنعانيون، ويقال لهم عند العرب: العمالقة، ويعرفون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين .

٢٦- {**وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا**} [سورة الأعراف: ١٤٥].

{بِأَحْسَنِهَا} وصف مسلوب المفاضلة، مقصود به المبالغة في الحُسن، فإضافتها إلى ضمير الألواح على معنى اللام، أي بالأحسن الذي هو لها، وهو جميع ما فيها، لظهور أن ما فيها من الشرائع ليس بينه تفاضل بين أحسن ودون الأحسن، بل كله مرتبة واحدة فيما عيِّن له، ولظهور أنهم لا يؤمنون بالأخذ ببعض الشريعة وترك بعضها، ولأن الشريعة مفصّل فيها مراتب الأعمال، فلو أن بعض الأعمال كان عندها أفضلَ من بعض، كالمندوب بالنسبة إلى المباح، وكالرخصة بالنسبة إلى العزيمة، كان الترغيب في العمل بالأفضل مذكوراً في الشريعة، فكان ذلك من جملة الأخذ بها، فقرائن سلب صيغة التفضيل عن المفاضلة قائمة واضحة،

فلا وجه للتردد في تفسير الأحسن في هذه الآية، والتعزب إلى التنظير بتراكيب مصنوعة أو نادرة خارجة عن كلام الفصحاء.

٢٧- {**نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ**} [سورة الأنفال: ٤٨].
المقصود من ذكر العقبين تفظيع التقهقر؛ لأنّ عقب الرجل أخسُّ القوائم، لملاقاته الغبار والأوساخ.

٢٨- {**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**} [سورة التوبة: ٣١].
... وإنما خُصَّ الحَبرُ بعالِمِ اليهود؛ لأن عظماءَ دينِ اليهوديةِ يشتغلون بتحريرِ علومِ شريعةِ التوراة، فهم علماءُ في الدين، وخُصَّ الراهبُ بعظيمِ دينِ النصرانية؛ لأن دينَ النصارى قائمٌ على أصلِ الزهدِ في الدنيا، والانقطاعِ للعبادة.

٢٩- {**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ**} [سورة التوبة: ٨٧].
الخوالف جمع خالفة، وهي المرأة التي تتخلّف في البيت بعد سفر زوجها، فإن سافرت معه فهي الظعينة، أي: رضوا بالبقاء مع النساء.

٣٠- {**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} [سورة يونس: ١٠].
لا يقالُ للمخلوقِ هو الربُّ معرَّفاً، إنما يقال: ربُّ كذا، مضافاً، لأن الألفَ واللامَ للتعميم، وهو لا يملكُ الكلّ.

٣١- {**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوب**} [سورة هود: ٧١].
...لأنّها ما ضحكت إلاّ بعد أن بشّرها الملائكة بابن، فلمّا تعجبت من ذلك بشّروها بابن الابن زيادة في البشرى. والتّعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتّى يولد لابنها ابن،

وذلك أدخل في العجب؛ لأن شأن أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لا يعيشون غالباً إلاّ معلولين، ولا يولد لهم في الأكثر، ولأن شأن الشيوخ الذين يولد لهم أن لا يدركوا يفع أولادهم، بله أولاد أولادهم .

٣٢- {**وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُون**} [سورة يوسف: ١٦].

إنما اصطنعوا البكاء تمويهاً على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السّلام، ولعلّهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد. ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة. وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكماً، وإنما يناط الحكم بالبينة.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبطلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف عليه السّلام أباهم عشاء يبكون وهم ظلَمة كذَبَة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق.

قال ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدلُّ على أن بكاء المرء لا يدلُّ على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنُّعاً. ومن الخلق من لا يقدر على ذلك، ومنهم من يقدر. قلت: ومن الأمثال: "دموع الفاجر بيديه"، وهذه عبرة في هذه العبرة.

٣٣- {**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ**} [سورة يوسف: ٤٣].

التعريف في {الْمَلِكُ} للعهد، أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا ملكاً ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكاً لمصر أيامَ حَكَمَها الهِكسوس، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البَدو. وقد ملكوا بمصر من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح عليه السّلام.

٣٤- {**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**} [سورة الرعد: ٢٣].

الواو في {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ} واو المعية، وذلك زيادة الإكرام، بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لَحِق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقُوا هم به، فلهم الفضل في الحالين. وهذا كعكسه في قوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات: ٢٢] الآية؛ لأن مشاهدة عذاب الأقارب عذابٌ مضاعف.

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلف صالح، أو زوج صالح، ممن تحققت فيهم هذه الصلاة، أنه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه، وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى، كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [سورة الطور: ٢١]. والآباء يشمل الأمهات على طريقة التغليب، كما قالوا الأبوين.

٣٥- {**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**} [سورة النحل: ٨٠].

القباب من أدم، والخيام من منسوج الأوبار والأصواف والأشعار، وهي ناشئة من الجلد، لأن الجلد هو الإهاب بما عليه، فإذا دُبغ وأزيل منه الشّعر فهو الأديم.

٣٦- {**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**}. [سورة النحل: ١٠٣].

اللسان: الكلام، سمي الكلام باسم آلته.

٣٧- {**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**} [سورة الكهف:٩].

الكهف: الشق المتسع الوسط في جبل، فإن لم يكن متسعًا فهو غار.

٣٨- {**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**} [سورة طه: ١١٨-١١٩].

جُمع له في هذا الخبر أصولُ كفاف الإنسان في معيشته، إيماء إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلة، لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعاراً بخصائص المكوّن في مقوماته، كما ورد في حديث الإسراء من توفيق النبي صلى الله عليه وسلم لاختيار اللبن على الخَمر، فقيل له: لو اخترت الخمر لغَوَتْ أمَّتك.

٣٩- {**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ**} [سورة الفرقان: ٥٣].

البحر: الماء المستبحر، أي الكثير العظيم.

٤٠- {**وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى**} [سورة القصص: ٢٠].

الظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه، فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المدن توقياً من الثورات والغارات، لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف، وقد قيل: الأطراف منازل الأشراف.

٤١- {**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون**} [سورة الروم: ٥٥-٥٦].

في هذا أدب إسلامي، وهو أن الذي يسمع الخطأ في الدين والإيمان لا يقرُّه، ولو لم يكن هو المخاطَب به.

٤٢- {**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**} [سورة الأحزاب: ٧].

هذا الميثاق مجمل هنا بيَّنته آيات كثيرة. وجُماعها: أن يقولوا الحق، ويبلّغوا ما أُمروا به دون ملاينة للكافرين والمنافقين، ولا خشيةٍ منهم، ولا مجاراةٍ للأهواء، ولا مشاطرة مع أهل الضلال في الإبقاء على بعض ضلاله. وأن الله واثقهم ووعدهم على ذلك بالنصر.

٤٣- {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**} [سورة الأحزاب: ٥٣].

في هذه الآية دليل على أن سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على الفعل الواقع بحضرته إذا كان تعدياً على حق لذاته لا يدل سكوته فيه على جواز الفعل؛ لأن له أن يسامح في حقه، ولكن يؤخذ الحظر أو الإباحة في مثله من أدلة أخرى، مثل قوله تعالى هنا: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ}، ولذلك جزم علماؤنا بأن من آذى النبي صلى الله عليه وسلم بالصراحة أو الالتزام يعزَّر على ذلك، بحسب مرتبة الأذى والقصدِ إليه، بعد توقيفه على الخفيّ منه، وعدم التوبة مما تقبل في مثله التوبة منه.

٤٤- {**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**} [سورة فاطر: ١١].

غلب في هذه الأجيال أن يكون الموت بين الستين والسبعين فما بينهما، فهو عُمر متعارف، والمعمَّر الذي يزيد عمره على السبعين، والمنقوص عمره الذي يموت دون الستين. ولذلك كان أرجح الأقوال في تعمير المفقود عند فقهاء المالكية هو الإبلاغ به سبعين سنة من تاريخ ولادته.

٤٥- {**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوب**} [سورة فاطر: ٣٥].

من فضل الله أن جعل لهم الجنة جزاء على الأعمال الصالحة؛ لأنه لو شاء لما جعل للصالحات عطاء، ولكان جزاؤها مجرد السلامة من العقاب، وكان أمر مَن لم يستحق الخلود في النار كفافاً، أي: لا عقاب ولا ثواب، فيبقى كالسوائم.

٤٦- {**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِين**} [سورة الصافات: ١١٣].

فيه تنبيه على أن الخبيث والطيّب لا يجري أمرهما على العِرق والعنصر، فقد يلد البَرُّ الفاجرَ والفاجرُ البرَّ، وعلى أن فساد الأعقاب لا يُعدُّ غضاضة على الآباء، وأن مناط الفضل هو خصال الذات، وما اكتسب المرء من الصالحات، وأما كرامة الآباء فتكملة للكمال، وباعث على الاتّسام بفضائل الخِلال، فكان في هذه التكملة إبطال غرور المشركين بأنهم من ذرية إبراهيم، وإنهّا مزية لكن لا يعادلها الدخول في الإِسلام وأنهم الأوْلى بالمسجد الحرام.

٤٧- {**وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون**} [سورة الصافات: ١٤٧].

الظاهر أن الرسول إذا بُعث إلى قوم مختلطين بغيرهم أن تعمَّ رسالته جميعَ الخليط؛ لأن في تمييز البعض بالدعوة تقريراً لكفر غيرهم، ولهذا لما بعث الله موسى عليه السلام لتخليص بني إسرائيل دعا فرعون وقومه إلى نبذ عبادة الأصنام، فيحتمل أن المقدَّرين بمائة ألف هم اليهود، وأن المعطوفين بقوله {أَوْ يَزِيدُونَ} هم بقية سكان نينوَى. وذُكر في كتاب يونس أن دعوة يونس لما بلغت ملكَ نينوَى قام عن كرسيه، وخلع رداءه، ولبس مِسحاً، وأمر أهل مدينته بالتوبة والإِيمان.. الخ. ولم يذكر أن يونس دعا غير أهل نينوَى من بلاد أشور مع سعتها.

٤٨- {**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَاب**} [سورة ص: ٢٠].

عن أبي الأسود الدؤلي: {فَصْلَ الْخِطَاب} هو قولُه في خطبه: "أما بعد"، قال: وداود أول من قال ذلك. ولا أحسب هذا صحيحاً؛ لأنها كلمة عربية، ولا يعرف في كتاب داود أنه قال ما هو بمعناها في اللغة العبرية. وسميت تلك الكلمة (فصل الخطاب) عند العرب لأنها تقع بين مقدمة المقصود وبين المقصود، فالفصل فيه على المعنى الحقيقي، وهو من الوصف بالمصدر، والإِضافة حقيقية. وأول من قال "أما بعد" هو سحبان وائل خطيب العرب.

٤٩- {**لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار**} [سورة الزمر :٤].

... فتكون {لَوْ} هنا هي الملقبة (لو) الصهيبية، أي: التي شرطها مفروض فرضاً على أقصى احتمال، وهي التي يُمثلون لها بالمثل المشهور: "نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه". فكان هذا إبطالاً لما تضمنه قوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [سورة الزمر: ٣].

٥٠- {**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم**} [محمد: ٢٢-٢٣].

في الآية إشعار بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما.

٥١- {**وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم**} [سورة التغابن: ١٤].

العفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها، ولو مع توبيخ. والصفح: الإعراض عن المذنب، أي: ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ. والغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته.

٥٢- {**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوه**} [سورة الحاقة: ٣٢].

الذَّرع كيلُ طولِ الجسم بالذراع، وهو مقدار من الطول مقدَّر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء، مثل الذراع، والأصبَع، والأنملة، والقَدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء، مثل الشِبْر، والفِتْر، والرَّتَب – بفتح الراء والتاء–، والعَتَب، والبُصْم، والخُطوة.

٥٣- {**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**} [سورة نوح: ٢٢].

أي: كبيراً جداً، وهو وارد بهذه الصِّيغة في ألفاظ قليلة، مثل: طُوَّال، أي: طويل جداً، وعُجَّاب، أي: عجيب، وحُسَّان، وجُمَّال، أي: جَميل، وقُرَّاء: لكثير القراءة، ووُضَّاء، أي: وضِيء، قال عيسى بن عمر: هي لغة يمانية.

٥٤- {**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**} [سورة القيامة: ١٤].

أي: مبصر، والهاء للمبالغة... وتكون تعدية {بَصِيرَة} بـ {عَلَى} لتضمينه معنى الرقيب.

٥٥- {**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**} [سورة النبأ: ٤٠].

المرء اسم للرجل، إذ هو اسم مؤنثُه امرأة. والاقتصار على المرء جَريٌ على غالب استعمال العرب في كلامهم، فالكلام خرج مخرج الغالب في التخاطب؛ لأن المرأة كانت بمعزل عن المشاركة في شؤون ما كان خارجَ البيت.

٥٦- {**فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ**} [سورة عبس: ١٣].

قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب (سِفْر) بكسرِ السين، وللكاتب (سَافر)؛ لأن معناه أنه يبيّن الشيءَ ويوضِّحه، يقال: أسفرَ الصبح، إذا أضاء، وقاله الفراء.

٥٧- {**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ**} [سورة الانشقاق: ١٠].

أي: يُعطَى كتابه من خلفه فيأخذه بشماله؛ تحقيراً له، ويناوَلُ له من وراء ظهره إظهاراً للغضب عليه، بحيث لا ينظر مُناوِلُه كتابَه إلى وجهه.

(و)

خطأ في تفسير الإمام الطبري

من أوله حتى آخره!

[هذا مختصر مقال نما بين جوانحي سنوات، يخبو تارة ويثور تارة... ثم لم يهدأ أخيرًا.

وقد حاولتُ أن أقتنع بالإشكال كما هو فلم ينفع، وبقيت الغيرة على كلام الله تلازمني حتى أخرجته.

وقد يكون لآخرين مقال في مقالي.. والمهم أن أبرئ الذمة، وأن أبرز ما أظنه حقًّا.. والله المستعان].

الحمد لله العليم الحكيم، والصلاة والسلام على النبي المعصوم، وعلى الآل والصحب أجمعين، وبعد:

فإن الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت ٣١٠ هـ) من أعلام الدنيا، وهو إمام في التفسير خاصة، وكل من أتى بعده من المفسرين استفاد منه، فإن لم يستفد من تفسيره مباشرة، استفاد ممن استفاد منه!

وكنت أنظر كثيرًا في تفسير هذا الإمام الجليل، للحاجة إليه، وللاستفادة منه..

وقد لفت نظري، منذ سنوات، تكراره لجملة تسبق تفسير آيات، كقوله: "يقول تعالى ذكره"، ثم يورد تفسير الآية. أو عبارات قريبة منه.

وهي كثيرة، بل كثيرة جدًّا!!

وهذه أمثلة منها، من سورة البقرة:

- يقول في تفسير الآية (١٤٧) منها: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}:

"يقول تعالى ذكره: اعلم يا محمد أنّ الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى".

ثم يقول: "يقول تعالى ذكره له: فاعمل بالحقّ الذي أتاك من ربِّك يا محمد، ولا تَكونَنَّ من الممترين".

- ويقول في تفسير الآية (١٦٨) من السورة: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}:
"يقول تعالى ذكره: فلا تنتصحوه أيها الناس، مع إبانته لكم العداوة، ودعوا ما يأمركم به...".

- ويقول في الآية (١٧٠): {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}:
"يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تَتَّبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمرُكم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئًا...".

- وفي الآية (٢٥٣): {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} يقول:
"يقول تعالى ذكره: هؤلاء رسلي فضلت بعضهم على بعض...".

وهكذا.. حتى آخر تفسيره، وليس في أوله وحده، أو في سورة منه.
فيقول في الآية الأولى من سورة الناس: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد: أستجير {بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ}...".
وبعبارات أخرى له كما قلت، مثل: "يقول عزَّ ذكره"، ولفظ: "يقول" فقط.
بينما يقول في عبارات أخرى لا غبار عليها: "يعني جلَّ ثناؤه بذلك"، و"يعني تعالى ذكره بقوله..".
فهل يجوز مثل قوله الأول، وهو أن يقول لكلامه الشخصي، وتفسيره، وبيانه: "يقول الله تعالى ذكره"؟
فهذا كلامه، وليس كلام الله تعالى!
التفسير كلام المفسر، وليس من قول الله سبحانه!

كلام الله تعالى يخص ذاته سبحانه، وهو وحي، وليس مخلوقًا أصلًا، فكيف يقال للتفسير إنه قول الله تعالى؟!!

ثم إن هذا التفسير قد يكون صوابًا أو يكون خطأ، وقد استدرك كثير من المفسرين على الإمام الطبري، ولم يأخذوا ببعض اختياراته، مثل ابن كثير نفسه!

فكيف يورد هذا الكلام وأنه قول الله تعالى؟!

لا شك أن الإمام الطبري يعني تأويل الآية وتفسيرها، ولا يعني أنه كلام الله تعالى بذاته أبدًا، ولكن التعبير به هو الخطأ، ولا شكّ أنه قال ذلك في تساهل ودون تمحيص، ولو روجع فيه لرجع.

فإنه يقال عند التفسير، كما أوردنا له عبارات أخرى: "يعني جلَّ ثناؤه بذلك"، و"يعني تعالى ذكره بقوله..".

أو يقول: يقول الله تعالى ما معناه، أو ما تفسيره، أو عبارة (أي)، وما إلى ذلك، مما يفهم أنه تفسير لقول الله تعالى، وليس كلامَ المفسِّر.

فالتفسير شيء، والقرآن شيء آخر.

التفسير شرح للقرآن، وليس هو نفسه حتى يقال: "يقول تعالى ذكره".

وحتى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم منعوا رواية نصه بالمعنى، إلا بشروط، فإذا دُفع الراوي أو الناقل إلى حكاية معناه، أو لم يتأكد من لفظه، قال: "أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم".

فلا يجوز أن تقول: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ثم تورد الحديث بمعناه وليس بلفظه، فالذي أوردتَهُ ليس من لفظه عليه الصلاة والسلام، بل هو من لفظك، وإنما أردتَ أن تبيِّن معناه وتشرحه، فتقول إذًا: "وشرح الحديث هو كذا"، أو "معنى الحديث كذا".

وبعض الأحاديث لا يجوز تغيير أي كلمة منها، كالتشهد، وما ورد في أسماء الله تعالى وصفاته..

فكيف بكلام الله تعالى؟

فلا يجوز أن تؤلف كلامًا من عندك وتقول: "قال الله تعالى"، ولو كان قولًا صحيحًا، ولو كان من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن يكون قرآنًا أُنزل عليه، أو حديثًا قدسيًّا نسبه إلى الله تعالى.

فهذا مما لا يستساغ قوله أبدًا، والعبارات الواردة في ذلك ليست سليمة، ولا مقبولة، ولا تقال إلا عند النقل، توثيقًا له.

وهو خطأ عقدي، أو يقال عند حسن الظن بصاحبه لعدم تعمده: إنه خطأ أدبي.

وقد يتكرر مثل هذا ربما سهوًا عند مفسرين آخرين، كقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف: "وقوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ}: يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المتعدِّين حدَّه في حلالٍ أو حرام...".

وقد ترددت كثيرًا في نقد الإمام ابن جرير رحمه الله في هذا الجانب، للفارق بين إمام في علمه وطالب علم ينقل منه، ولكن قول الحق أولى، وتصويب الأخطاء في الدين والعقيدة خاصة واجب... فكل يصيب ويخطئ.

والله الهادي.

××× ××× ×××

وقد عُرض هذا المقال على بعض الإخوة قبل نشره، فذكروا أن قول الإمام الطبري في ذلك جائز، وأن صحابة وعلماء كثيرين استعملوا كلمة (يقول) بمعنى (يعني)، وأوردوا أمثلة عديدة من التفاسير على ذلك، وفيها لفظة (يقول) فقط، دون التعرض إلى غير ذلك مما أوردت.

وبغضِّ النظر عن المعنى اللغوي لكلمة (يقول)، فإن العلماء إذا استعملوها بالمعنى المذكور فهم أعلم، لكن يكون ذلك (تجاوزًا)، وليس حقيقة وجردًا وتحريرًا، ويبقى ما ذكرته من أمور أخرى واردًا في غير كلمة (يقول) وحدها، ولا أرى جواز قول: "يقول الله تعالى ذكره" ثم لا يكون القولُ كلامَ الله تعالى، بل يكون كلامَ بشر.

وكيف يفرِّق من لا يحفظ القرآن بين كلام الله وغير كلامه إذا جاءت قبله جملة: "يقول الله تعالى ذكره"؟ وخاصة إذا كان ذا ثقافة عادية، أو مقبلًا على العلم؟

وكيف إذا تُرجمت الجملة إلى لغات أخرى والقارئ غير عربي أو غير مسلم، لا يعرف لفظ القرآن أصلًا؟ ألا يظن أن ما ورد هو كلام الله وليس كلام البشر؟

وأين يبقى ما ذكرته من أن التفسير لو كان (خطأً) وقد سبقه قوله: "يقول الله تعالى ذكره"؟ فأين وكيف يكون الله تعالى قد قاله؟ أليس من غَيرة على هذا الأسلوب الذي يؤدي إلى تلك النتيجة القبيحة؟

وأين ما ذكره علماء الحديث من عدم جواز رواية كلام النبي صلى الله عليه وسلم بمعناه إلا بشروط قاسية؟ فكيف لا يجوز هذا لكلام الرسول ويجوز لكلام الله تعالى؟!

إنه غير مقبول ولا مرغوب، وإذا ورد مرات فيكون في حدود ضيقة، وقليلًا، يعني على غير القياس، وعلى غير الأصل، وقد يُقبَل (تجاوزًا)، وليس حقيقة كما قلت، فالحقيقة الأكيدة أن القول ليس قول الله تعالى، وأما إذا كان بمعناه فيبين قبله بما يدلُّ على ذلك، وليس باللفظ نفسه الذي يكون دالًّا على قول الله تعالى، منعًا للالتباس على الأقل، وتقديرًا وإكرامًا لما اختُصَّ الله به من ذلك، وهو أن يكون قولُه كلامَهُ حقًّا إذا قيل: "يقول الله تعالى".

وإذا قال شخص: "يقول الله تعالى ذكره" ونيَّته تفسير كلامه تعالى، لا إيراد كلامه سبحانه، فإنه يثبت ذلك كتابة، والنية وحدها لا تكفي. ويحكم على ما هو مكتوب وواضح، لا على ما نواه الشخص ولم يكتبه.

وكون بعض علمائنا الأفاضل قد نطقوا به لا يعني أنه حجة في الاستعمال بدون حرج، أعني في صحة التعبير بظاهر معناه اللغوي، فإنه يُنظَر إلى الاستعمال لا فيمن استعمله، ولا يبدو ظاهره مرغوبًا، وليس هو الأَولَى، بل الأفضل والصواب هو العودة إلى صحة الاستعمال، والجواز جانبٌ من الاستعمال لا يوافق السمع، ولا يُطمئن القلب.

والقارئ غير معتاد على أن (يقول) بمعنى (يعني)، فهذا يسبب التباسًا، ولكنه متعود على أنه إذا سمع أو قرأ: "يقول الله تعالى"، أن يرى بعده كلام الله تعالى بذاته، وليس كلام غيره.

وإذا جاز هذا في عادة الناس عندما ينقلُ بعضهم كلامَ بعض، فإنه لا يجوز في كلام الله تعالى. والله أعلم.

(٢)
التلاوة

(أ)
التلاوة المفيدة

عندما يتلو المسلم كتاب ربِّه لا يحصِّلُ أجرًا فقط، بل يستفيد أيضًا، لدنياه وآخرته، فتتهذَّب نفسهُ، وتُشفى من أمراضها وأوضارها، وتنحلُّ عُقَدها. يقول ربُّنا الكريم {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة الإسراء: ٨٢].

أي: ننزِّل من القرآنِ ما يكونُ شفاءً وعلاجًا لأمراضِ النفسِ والقلب، من ضلالةٍ وجهالة، ووسوَسةٍ وشكّ، وزيغٍ وقلَق، وهَوًى وطمع، وانحرافٍ وزلل، فيُسَكِّنُ النفس، ويُطَمْئنُ القلب. وهو رحمة، ففيه الإيمانُ الصحيح، والدَّليلُ إلى الحقّ، والثَّباتُ عليه، والرَّغبةُ في الخيرِ والعملِ الصَّالح، والتَّمهيدُ إلى رِضَى الله ودخولِ جنَّته. (الواضح في التفسير للكاتب).

فالقلب يطمئنُّ بتلاوة القرآن ويهدأ {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [سورة الرعد: ٢٨] فترتاح له النفوس المؤمنة، دون غيره من الأمور الدنيوية.

ومن أهمِّ ما يفيده المرءُ لنفسه ولمجتمعه هو العظة والعبرة التي يجنيها من قراءة القرآن، وهذا لا يأتي إلا من الفهم والتدبُّر في كتاب الله {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [سورة ص: ٢٩].

أي: هذا كتابُ الله للناس، كثيرُ الخيرِ والمنفَعةِ لهم، في أمورِ دينِهم ودنياهُم، ليَتفكّروا في آياتِهِ ويَتفهَّموا حِكَمَها وأسرارَها، وليتَّعظَ بها أصحابُ العقولِ النيِّرة.

فالمسلم يقرأ عاقبة أقوام سابقين عصوا الله ورسوله، وأبوا أن يؤمنوا ويطيعوا، فيعتبر ولا يعصي، حتى لا يغضب الله عليه، ولئلا يعاقَب في الآخرة. {...وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [سورة البقرة: ٦١].

كما يستفيد من الأمثال التي ضربها الله لبني آدم، فيقارن ويتفكر؛ ليسير على هدى واستقامة.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...} [سورة الحج: ٧٣].

ولا ينسى قصة أصحاب البستان، الذين أقسموا ألا يطعموا منه فقيراً، فأهلكه الله وجعله كالزرع المحصود، فيعتبر القارئ، ولا ينسى الفقراء مما رزقه الله من مال ومتاع.

وفي آخر الآيات من القصة: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة القلم: ٣٣].

أي: هكذا يكونُ العذابُ لمن خالفَ أمرَ اللهِ وكفرَ بنعمتِه، والعقوبةُ في الآخرةِ أشدُّ وأبقَى، ولو كانوا من أهلِ العلمِ والفهمِ لعَلِموا ذلك.

وإذا مرَّ بآيات النداء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ...} استمع وتدبَّر، ونظر في أمر الله فنفذه، فإن في ذلك خيراً لنفسه وللآخرين.

ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا يتبع خطواته، ويعتبر مما جرى لأبينا آدم معه، وقد حلف له أنه ناصح له، فخدع آدم، وعوقب بالنزول من الجنة.

{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ...} [سورة الأعراف: ٢٧].

ويعتبر من تقلبات أهل الكتاب وانحرافهم وقسوة قلوبهم بعد طول الأمد، فيتعوذ بالله من قلب لا يخشع، كما يتعوَّذ به سبحانه من أن يكون من الفاسقين.

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد: ١٦].

وينظر في الثواب الذي أعدَّه الله لعباده المؤمنين الصالحين المتقين فيتبع خطواتهم.

{فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ} [سورة المائدة: ٨٥].

ويقرأ عن الجهاد وأجره الكبير، فيطلب من الله أن يكرمه بالشهادة في سبيله {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ

حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ١١١].

ويقرأ الحثَّ على التوبة، فيتوب قبل أن يمرض أو يُقبض.

{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [سورة الزمر: ٥٤].

ويبتعد عن النفاق والشرك الذي يبطل الأعمال كلها، ويجعل مصير صاحبها إلى النار.

{إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [سورة النساء: ١١٦].

وينظر في الآداب والأخلاق الكريمة التي أثنى عليها ربُّ العزَّة فيتخلق بها، ويبتعد عن الفواحش والمنكرات التي تفسد المجتمع...

{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل: ٩٠].

ويقرأ عن تمجيد الربِّ نفسه وذكر عظمته، فيمجِّده ويسبِّحه ويعظِّمه..

{مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [سورة لقمان: ٢٨].

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} [سورة الإسراء: ٤٤].

ويقرأ قوله سبحانه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [سورة البقرة :١٥٢].

فيذكره في أحيانه كلها ولا ينساه.

وينظر في كتاب ربِّه فيرى حثَّه على التفكر والاعتبار مما في خلق السماوات والأرض، فيتمثَّل قوله سبحانه: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [سورة آل عمران: ١٩١].

وهكذا يكون المسلم.. يقرأ.. ويعتبر.. ويستفيد.. ويؤجر..

(ب)
داخل المسجد وحوله

في المسجدِ أولادٌ يحضرون حلقاتِ تحفيظِ القرآنِ الكريم،
ويجتهدون في تلاوتهِ وحفظه،
وتتردَّدُ أصواتهم الجميلةُ النقيةُ في أنحاءِ المسجدِ كدويِّ النحلِ أو تغريدِ الطير،
ويلتقون بزملائهم وأساتذتهم وقد ملأتْ وجوهَهم الابتسامةُ والرضى،
فينشؤون على حبِّ القرآن، ويتأدَّبون بأدبِ الإسلام.
وفي الوقتِ نفسهِ أولادٌ حولَ المسجدِ يلعبون،
يركبون الدراجات،
ويلعبون بالكرة،
ويتحادثون ويتصايحون،
وينتظرون الذين بداخلِ المسجدِ ليلعبوا معهم إذا خرجوا،
فتذهبُ أوقاتُهم هدرًا وهم في سنِّ الطلب.
هؤلاءِ كأنهم ليس لهم آباءٌ أو أمهات،
ولا يسألون عن تربيتهم،
وكأنهم لم يسمعوا بحلقاتِ التحفيظِ وأثرها الإيماني والتربوي!
كيف لا يوجهون أولادهم لحضورها ليتعلموا تلاوةَ كتابِ ربهم وحفظَه؟
لماذا لا يقولون لأولادهم: ادخلوا المسجدَ مع الداخلين،
وادرسوا القرآن مع من يدرسونهُ ويحفظون؟
ألا يعلمون أنهم مسؤولون عن أبنائهم وتربيتهم،
وأن الله سيحاسبهم على إهمالهم ولامبالاتهم،
وأن أبناءهم قد يكونون غدًا نهبًا لأفكارٍ واتجاهاتٍ منحرفة؛
لأنهم لم يتعلموا دينهم، ولم يعرفوا كتابَ ربِّهم؟

(٣)
مباحث قرآنية

(أ)
دار المصاحف

(المسلمون والتقصير في خدمة كتاب الله؛ ١-٣)

للأثرياء لغة لا أتقنها، ولذلك لا أزورهم، حتى لا أزعجهم بلغة العلم، ولا يزعجوني بلغة المال!

لكن الذي حدث أنني قمت بزيارة لأحد كبارهم، وكان ذلك رغماً عني، فقد جاء بأخ لي شقيق لي لم أره منذ ربع قرن كامل، فقدم إلى البلد الذي أقيم فيه بواسطته، ليراني فقط ثم يرجع، فكان علي أن أقدم له واجب الشكر على الأقل، ولو لم أطلب منه استقدامه، بل ما كنت أطلب منه ذلك ولو لم أره حتى وفاتي!

وبدا لي في الجلسة القصيرة أن أكافئه ببضاعتي وأرد له شيئاً من المعروف يكون له فيه أجر كبير، وسنَّة حسنة، فأقبلت إليه باشاً وقلت: جزاك الله خيراً على المكتبة التي أنشأتها أيها الشيخ، فلا شك أن الرواد يستفيدون منها، ولكن ما ميزة مكتبتكم بين المكتبات الموجودة في البلد؟

فعدد مناقبها، وذكر وظائفها، وأشار إلى الآلات الحديثة والسريعة التي اقتناها مما أفرزتها التقنية الحديثة للمكتبات ومراكز المعلومات، وبيَّن أسعارها الغالية، وما إلى ذلك...

فقلت: هذا شيء طيب تشكرون عليه، ويرتاح له المراجعون إن شاء الله، ولكن كنت أود أن تذكر لي الميزة التي تميَّزت بها مكتبتكم، مما لا يوجد منه في المكتبات الأخرى.

فصار يذكر مجموعات المخطوطات والكتب النادرة التي أحضرها، والدوريات القديمة والبرديات والوثائق التي قد لا يوجد في مكتبات أخرى...

وما إن بدأت بذكر سؤالي بصيغة أخرى حتى لا أحرجه، إذا به يخرج عن خُلقه ويرفع صوته ويقوم من مجلسه وهو غاضب، ويقول: أنت جعلت من المسألة ألف ليلة وليلة، حتى نام شهريار وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح، ليأتي مرة أخرى و...

فسكت، وعلمت أن بضاعتي غير مرخصة عنده، ولغتي غير مرحَّبٍ بها في مجلسه، وتجرَّعت كأس الصبر دقائق أخرى عنده لأجل شقيقي الحنون... وأجلت الحديث عن المشروع المقترح، ليكبر ويستقل، ويكون فيه خير أكثر، ويهب الله تنفيذه لمن أراد له مثوبة أكبر...

لقد أحببت أن اقترح عليه **مشروع مكتبة خاصة بالقرآن الكريم**، يمكن أن تسمَّى "**دار المصاحف**" يُجمع فيها ما يمكن من مخطوطا ت المصاحف الشريفة، وتصوير ما لا يمكن منها، ورقياً أو ميكروفيلمياً أو نسخًا على الأقراص المدمجة، ويدخل في المخطوط منها ما وجد على أوراق البردي، والجلود، والعظام، والأحجار، وقشور البيض، وما إلى ذلك...

إضافة إلى جمع طبعات المصاحف منذ بدء الطباعة حتى تاريخه، سواء كانت طبعات قيمة أم مزيفة، في الشرق أو الغرب، ولو نسخة واحدة من كل منها، ويكون هذا مهمة هذه المكتبة. ويمكن أن يكون هذا قسماً في مكتبة كبيرة.

وفائدة هذه المكتبة المتخصصة تاريخية توثيقية علمية، وهي مفيدة للعلماء والباحثين، في دراساتهم وبحوثهم القرآنية، وللرد على شكوك المشككين والمرجفين في شبهات عقيمة لهم حول تاريخ تدوين القرآن الكريم وأطواره.

وأزعم أنها إضافة إلى فائدتها العلمية المذكورة، ستكون تحفة إسلامية وسابقة ثقافية تراثية لا تقدَّر، ولا يجاريها متحف أو مكتبة في تخصصات أخرى، لمكانة القرآن الكريم أولاً، ولافتخار مسلمين وتباهيهم بما يملكونه أو يرثونه من مصاحف مخطوطة، أو أنواع وأشكال نادرة منها. ويكون من بينها ما لا يخطر على البال، فهناك مصاحف صغيرة جداً لا تتجاوز السنتمترَ الواحد!

وقد عرض أكبر مصحف في العالم في "معرض المصحف الشريف" الذي أقيم هذا العام (١٤٢٩هـ) في طرابلس الغرب، الذي شارك في كتابته (٥٨) خطاطاً، إلى جانب عرض مصحف ذهبي يزن (٥٠٠ كغ) من الذهب! كما عرضت نسخة منه صنعت في روسيا من الذهب الخالص بنسبة ٩٩,٩٪ ومحفورة على ١٦٢ صفحة، وتبلغ قيمتها المالية نحو (٥,٦) مليون دولار! ولعله السابق أو غيره.

وهناك معارض أخرى للمصاحف تنظم، في بلدان إسلامية وغير إسلامية، فقد نظم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض عرضًا خاصًّا بالمصاحف النادرة منذ سنوات قليلة، كما نظمت اليمن هذا العام (١٤٢٩هـ) معرضًا لصور نوادر المخطوطات القرآنية الموجودة منها في اليمن وحدها، ابتداء من القرن الهجري الأول، مما كان قبل التنقيط، وما بعده.

ولعل القارئ يستصعب جمع هذه المخطوطات، التي لا يتخلى عنها أصحابها، أو هي غالية جداً بعضها لا يقدَّر بثمن.

وأقول إن هذا المشروع طيب مبارك، هو الآخر لا يقدَّر بمال، والعزم عليه والبدء به يفتح أبواباً وطرقاً كثيرة لجمع مادته، فسماسرة المخطوطات، والورثة الجدد الذين تختلف هواياتهم عما كان عليه آباؤهم، وأصحاب المتاحف الشخصية، والتجار... كل هؤلاء وأمثالهم يمكن

الاعتماد عليهم في جمع الكثير مما يُرغب فيه، وبعد عقد من الزمن يكون ما جمع مما لم يكن متوقعًا حين البدء به.

والمشاريع الجديدة لهذا وأمثاله لا تتوقف، فمنذ أيام قليلة (ذو القعدة ١٤٢٩ هـ) افتتحت قطر أكبر متحف إسلامي، وفيه من التحف والآثار الإسلامية ما هو نادر جدًا ولم يعرض من قبل في أية جهة!

ومن نافلة القول أن أذكر أن الهدف من اقتراح هذا الموضوع هو لفائدة علمية ومعلوماتية، وليست آثارية تراثية صرفة، فيمكن تصوير ما يلزم لهذه الدار دون التركيز على ضرورة اقتناء أصله، فالفائدة متحققة علمياً بذلك، وتعمل الفهارس اللازمة لإبراز ما في الدار ليستفيد منها الباحثون...

هذا، ولا أعرف مكتبة متخصصة في جمع مخطوطات المصحف الشريف وحده، أو تجمع طبعاته القديمة والجديدة، أو أية مؤسسة تقوم بذلك، أو حتى أفراد!

وفي المنامة وغيرها مراكز أو "بيوت" خاصة بالمصاحف لعلها تكون جزءاً من المشروع العام هذا. والله الموفِّق.

(ب)

بنك معلومات عن القرآن الكريم

(المسلمون والتقصير في خدمة كتاب الله؛ ٢-٣)

مما يؤسف له أن لا يوجد حتى الآن مجمع أو مركز علمي فيه كل المعلومات مما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه.

إن الإجلال العظيم والتقدير الكبير الذي يكنه المسلمون لكتاب ربهم شيء لا يُحَدّ ولا يتصور، وإن كل خدمة تقدم لكتاب الله تعالى تعود فائدتها إليهم، فهو دستورهم، ونظام حياتهم وزادهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ولا شك أن ما كتب عن القرآن الكريم كثير، منذ القرن الهجري الثاني وحتى يومنا هذا، وقد تنوعت علومه وموضوعاته ورتبت وكتب فيها جميعًا، وهي في ازدياد مستمر، وقد أوصل الإمام السيوطي أنواعه إلى ثمانين نوعًا في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، فزاد وفصَّل مسائل لم توجد في البرهان للزركشي.

ومن أشهر علومه: جمع القرآن، أسباب نزوله، إعرابه، غريبه، بلاغته، ناسخه ومنسوخه، أحكامه، مجمله ومبينه ومؤوله، محكمه ومتشابهه، وجوهه ونظائره، مقدمه ومؤخره، منطوقه ومفهومه، مطلقه ومقيده، تفسيره، ترجمته، تجويده وقراءاته، أمثاله وقصصه، فضائله، أدعيته، آدابه، خواصه...

وله أنواع دقيقة ونادرة، مثل: جدله، حضريه وسفريه، نهاريه وليليه، ما تكرر نزوله، صيفيه وشتائيه، فراشيه ونوميه، أرضيه وسماويه، ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه...

واستحدثت علوم أخرى له في عصرنا، مثل الإعجاز العلمي فيه، والتفسير الموضوعي له، وكذا التفسير الأدبي، والعلمي، والنفسي، ومخطوطاته، وترجماته،... ولعل آخرها علم الأصوات فيه، وهو غير التجويد، وإن تعلق به.

إن ما كتب في هذه الموضوعات وغيرها قديمًا وحديثًا كثير جداً، وبخاصة إذا أضيف إلى الكتب البحوثُ والدراسات وأوراق الأعمال المقدمة إلى المؤتمرات والندوات والملتقيات، بالإضافة إلى المقالات المتنوعة... ما نشر منها وما لم ينشر.

وهي مشتَّتة مبعثرة بين المخطوطات، والمطبوعات، والجرائد والمجلات، ومنها ما هو مفقود لا يعرف له أثر، أو هو في التراث المخبوء من التركات أو عند التجار وسماسرة الكتب والتراثيات...

ولا شك أن القيام بجمع هذه المعلومات وتخزينها بواسطة الآلات الإلكترونية الحديثة مطلوب وضروري، فإن كل دولة تجمع تراثها وتاريخها وآثارها وتجند علماء وخبراء لتصنيف أوعية معلوماتها وفهرستها وترتيبها ونشرها وتوزيعها والدعاية لها، وكذا الجماعات الفكرية والمذهبية والدينية والأحزاب والمراكز المتخصصة علميًا وأدبياً، وهكذا الأفراد الذين يهتمون بنتاجهم وتتابعها نقاباتهم ورابطاتهم وما إليها...

وكتاب الله تعالى أولَى من كل هذا، لأنه الكتاب السماوي الصحيح الوحيد على وجه الأرض، ولأنه كتاب للعالمين جميعًا، فهو موجَّه للناس كلهم، وليس لأفراد أو جماعة أو قومية أو زمان معين، وهذا يحفز إلى أن يكون الاهتمام به على قدر جلاله وعالميته وأهميته، فهو أكبر وأعظم وأجلُّ من كل كتاب وشخص وجماعة ودولة، وما لم يكن كذلك فإن التقصير فيه واضح، والمسؤولية فيه قائمة.

وليتذكر المسلمون كم تحمَّل الصحابة رضوان الله عليهم مسؤوليته حتى حافظوا عليه ودونوه وبلَّغوه، من عند أنفسهم وبتكليف ومتابعة من أعلى منصب في الدولة، وعلينا أن نكمل ما قامت به الأجيال المسلمة السابقة في خدمة هذا الكتاب العظيم، ونستشعر مسؤوليتنا حقيقة تجاه ذلك، وهذا العمل جزء من العمل المطلوب منا تجاهه وليس كله.

إنها لخيبة وحسرة وألم ألاّ يوجد حتى الآن مجمَّع معلومات يرصد كل ما يتعلق بكتاب الله الجليل، الذي يلزم أن ينهض به ويتحمَّل مسؤوليته المسلمون بطبيعة الحال، وخاصة علماؤهم ومسؤولوهم وأثرياؤهم. وفي القيام بهذا العمل خير كثير وفوائد لا تحصى في حياة المسلمين، بل هو ضروري لهم، وهم مقصرون جداً في تأجيله، والخير والنفع بيد الله وفي كتابه والاشتغال به...

وليتصور المرء مثلاً قارئًا أو كاتبًا أو باحثًا يريد أن يعرف موضوعاً في القرآن الكريم هل كتب فيه، وأين يجده، وكم عقبة سيصطدم بها حتى يصل إلى مقصوده، هذا إذا وصل، فإذا وصل كم معلومة تفوته من أصل ما هو موجود؟

وأقرب من هذا طلاب الدراسات العليا في الجامعات، الذين إذا اختاروا موضوعًا اشترطوا عليهم ألاّ يكون كتب فيه من قبل، ويلزمون بالبحث والتأكد من ذلك، ويكُلّفون بذكر الموضوعات المشابهة لما يكتبون فيه، وذكر الفارق بينه وبينها. فكم هي المعاناة التي يجدونها حتى يُحصّلوا أمثال هذه المعلومات.

ومثل ذلك تحقيق كتاب تراثي، ونسخه المشتتة، وتحصيلها...

هناك فرق كبير بين أن يبحث كل من يلزمه أمر في القرآن فيسأل ويبحث وقد يسافر وينفق المال والجهد حتى يحصل على ما يريد، أو جزء مما يريد، وبين أن تكون هناك مؤسسة تجمع هذه المعلومات وتوفر جهود آلاف الساعات، وتكون المعلومات فيها أشمل وأكثر تنويعًا على الغالب.

ولا يتصور أن يكون هذا عملاً مستحيلاً، أو كبيرًا بحيث لا يمكن حصره وجمع نواحيه، فإن الهمة والعزيمة مطلوبة، ولا يوجد يأس في حياة المسلم إذا كان متوكلاً على الله، والمشروع الذي يبدأ فيه ينمو ويكثر بإذن الله، ويصير بعد عقد من الزمن كشجرة طيبة مباركة، تؤتي ثمارها لكل الناس، والله يوفق من أخلص في عمله ويبارك فيه.

ويمكن الاستفادة من أعمال جاهزة سبق أن قام بها أفراد أو مؤسسات، ثم يكمل ما بعده.

فقد قامت مؤسسة آل البيت في عمّان بعمل شامل طيب من خلال إصدار فهرس عام يشمل بيانات جميع مخطوطات علوم القرآن في العالم، بالاستفادة من الفهارس العامة المطبوعة للمخطوطات في بلدان عديدة، وتلزم متابعة العمل وبذل الجهد لإضافة ما استجد من فهارس المخطوطات الجديدة، وبخاصة التي أصدرتها مؤسسة الفرقان في لندن...

وبالنسبة للكتب المطبوعة فإن هناك "معجم مصنفات القرآن الكريم" الذي سبق صدوره في أربعة أجزاء منذ زمن، ويشمل المخطوط والمطبوع، ولعله صار ضعف حجمه، وسبق أن

أعلنت جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت عن عزمها على طبعه بزياداته الجديدة إن أمكن، ولم يصدر.

والأفضل هو القيام بعمل جديد، من خلال متابعة الببليوجرافيات الوطنية التي تصدرها كل دولة، وتخزنها في أقراص.

وأشير إلى عمل آخر يُستفاد منه، وهو تصنيف ما أثير من شبهات حول القرآن الكريم من خلال الكتب والدراسات التي ألفها الملحدون والعلمانيون وأهل الكتاب والمناوئون عامة، والخروج بكتاب مرجعي شامل يرد على جميع هذه الشبهات ونشرها بلغات عالمية وتوزيعها على مستوى دولي، حتى لا تبقى حجة لأحد في عدم اتباع كتاب رب العالمين، وليكون تبرئة لذمة المسلمين وتبليغًا منهم لكتاب ربهم. ويكون هذا جزءًا من مشروع إسلامي عالمي لإخراج إصدارات موسوعية شاملة في الموضوعات المهمة التي تخص دينهم، فهم مسؤولون عن تبليغ دين التوحيد وتوصيله إلى الناس بلغاتهم.

إن جمع هذه المعلومات وتخزينها في وسائط إلكترونية، ومتابعة ما يستجد منها بالتعاون مع الجامعات والمراكز والجمعيات والمؤسسات الثقافية والمكتبات ومراكز المعلومات ودور النشر وما إليها، وتجنيد الخبراء في مجال المكتبات والمعلومات والإعلام والدعاية والنشر لأجل ذلك، وتصميم مواقع وإصدار دوريات ومتابعة نشاطات في هذا الشأن... كل هذا يساعد على نشر ثقافة إسلامية وقرآنية عامة، وعلاقات ثقافية بين الشعوب الإسلامية خاصة، من خلال التنبيه إلى ترجمة الأعمال العلمية الرصينة التي كتبت في التفسير وعلوم القرآن إلى لغات عالمية، كما أن قيام مجموعة من المتخصصين بتصنيف هذه المعلومات موضوعياً يبرز النقص الحاصل في هذا المجال، مثل معرفة التفاسير التي ترجمت، واللغات التي لم تترجم معاني القرآن إليها بعد، ويبعث الأمر على نشاطات فكرية وثقافية جديدة، من خلال ما تطرق إليه بلغات دون أخرى، والمعلومة تقدح المعلومة فتثيرها، والعلمُ يزيد بين اثنين.

إن إنشاء بنك معلومات عن القرآن الكريم تأخر كثيرًا في ظل الثورة العلمية والثقافية التي تنامت مع الاختراعات الجديدة في الطباعة والتخزين إلكترونيًا، وسهل لنا ما لم نحلم به قبل سنوات، ولنقارن ما كان يقوم به أجدادنا من نسخ مخطوطات في شهور وسنوات، وهو في يومنا هذا لا يحتاج إلى أكثر من النسخ واللصق في ثوان.

إننا أمة علم وإيمان، وأصحاب دعوة ورسالة، ودعاة إصلاح وتغيير، وعلينا أن نثبت أننا كذلك علمياً وعملياً... وهذا اقتراح "معلوماتي" يتعلق بمصادر العلم والثقافة، والمعلومات جمع معلومة، والمعلومة من العلم، والعلم نحن له إن شاء الله، وهو في دعوتنا قائم على الحق والعدل، والتوحيد والنصح لكل الناس.

وقد أشير أخيرًا إلى أمر لئلا يلتبس على القارئ أمره، وهو " المركز العالمي للقرآن الكريم" الذي أسسه أحمد صبحي منصور، وهو مؤسس فرقة القرآنيين بمصر، ومنكر للسنة النبوية، أنشأه بأمريكا بعد تدريسه في جامعة هارفارد بسنة واحدة، ويُعتبر هاربًا من ملاحقات قضائية بمصر، حيث كان أستاذًا في جامعة الأزهر، ثم طرد منها لإنكاره السنَّة.

أما كان على أهل السنة أن يكونوا سبَّاقين إلى إنشاء مركز عالمي لكتاب ربهم بحق؟

أدعو الله تعالى أن يلهم هذا المشروع القرآني عقولاً، ويحمس نفوسًا، ويثيرَ عزائم، لإيجاده على خريطة الواقع قريبًا إن شاء الله.

(ج)
التفسير الصحيح للقرآن الكريم
(المسلمون والتقصير في خدمة كتاب الله؛ ٣-٣)

مدخل

هل هناك تفسير صحيح لكتاب الله تعالى؟

من المؤسف أن أقول للقارئ إنني لا أعرفُ له وجوداً، حتى عام ١٤٢٠ هـ على الأقل!

وهذا أمر يدعو إلى العجب حقاً، على الرغم من الاهتمام العظيم بالقرآن الكريم، ومن كثرة أهل العلم والتفسير على مدى قرون طويلة!

وعلى الرغم من أهمية هذا النوع من التفسير من بين جميع التفاسير التي وجدت، المأثورة المسندة، وتفاسير الرأي، والنحوية، والبلاغية، والفقهية، والإشارية... والبسيطة، والوسيطة، والموجزة...

فأنواع التفاسير معروفة لدى القارئ، وكلها فيها الصحيح وغيره، وآراء وأقوال وروايات متعدِّدة، وفيها ما هو متباين ومخالف لبعضها البعض، وإذا أضيف إليها أسباب النزول، وفضائل الآيات والسور، ووجوه من القراءات، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك مما يورده المفسرون، كثر الضعيف وربما الموضوع.

ولست بصدد بيان أهمية التفسير الصحيح من بين الأنواع الأخرى منه، فالماء الزلال الذي يأتي من عين صافية غير الماء الذي يجري ويختلط به الطين وغيره، وتزود المسلم بالمعلومات الصحيحة دون غيرها يشكل شخصيته الثقافية القوية غير المضطربة وغير المعوجَّة، ما عدا التأثير السيء لآراء وأفكار قد لا تكون سديدة، ولا يَخفى ما للإسرائيليات والخرافات والأحاديث الموضوعة من تأثير على عقيدة المسلمين، حيث يتناقلها بعضهم على أنها من الدين، فيكون من واجب العلماء الذَّود عن دين الله وتفسير كتابه، وتصفية ما شابه مما ليس منه.

والمطلع على التفاسير القديمة خاصة يعلم ما فيها من إسرائيليات وغيرها، كما تتعدد أقوال المفسرين في بيان معاني آيات، ويوردون آثار التابعين وأتباعهم بكثرة حتى يضيع القارئ بينها!

المقصود بالصحيح:

إن المقصود بالصحيح هو ما ذكره المفسرون والعلماء من أن أفضل وأصح تفسير هو تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة النبوية الكريمة، ثم بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم، الذين نهلوا من معين السنة وأخذوا العلم من رسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم، ثم بأقوال تابعيهم رحمهم الله، الذين تعلموا على أيديهم، ورووا عنهم علوم الإسلام.

فهل هناك تفسير شامل مقتصر على ما ذُكر؟

إن الأمر ليس بهذه السهولة!

أ- فتفسير آيات القرآن يجب أن تكون صحيحة حتى تفسَّر بآياتٍ من مثلها، والآيات المشابهة قد تكون من باب المبيِّن للمجمَل، يعني تفصيلاً للموجز، وقد تكون هناك دلالات إضافية في الآية لمناسبة ما، لما فيها من زيادة كلمة أو كلمتين عن مثيلتها فتحتمل زيادة معنى، وقد يكون التفسير قابلاً لهذا أو ذاك، أو لكليهما. فاحتمال أكثر من وجه وارد في الآيات، لهذا السبب أو غيره، بل أعتبر ذلك من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فقد تدلُّ الآية على معنيين يكون كلاهما صحيحًا. فقوله تعالى: {وَلا تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [البقرة: ١٩٦] يعني حتَّى يبلغَ الهديُ مكان ذبحه، وهو للمُحصَرِ في المكان الذي حُصِرَ فيه، ولغير المحصَر في مِنى. فالآية شملت المعنيَين. وقد أورد العلماء تفصيلاً في هذا، وذكروا أن الحقّ لا يتعدَّد، وأن الصحيح معنى منه، وما إلى ذلك..

ب- أما التفسير بالسنة، فينبغي ألا يلتفت إلى غيره إذا صحَّ الحديث، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بكتاب الله تعالى، وتفسيره له وحي من الله، فيكون أصحَّ شيء. ولا يُستبعد أن يقوم المفسر بتفسير آيات على غير ما فسَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يكن مطلعًا على قوله عليه الصلاة والسلام. فقوله تعالى {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [الفلق: ٣] معناه: ومن شرِّ القمر إذا دخل في الخسوف. دليله ما قالته عائشة رضي الله عنها: نظر النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى القمرِ فقال: "يا عائشة، استَعيذي بالله من شرِّ هذا، فإن هذا الغاسقُ إذا وقب". رواه الترمذي والحاكم وأحمد بإسناد صحيح. لكن المفسرين

يوردونها بمعنى (الليل إذا أظلم)، وأصرَّ بعضهم على هذا المعنى بعد اطلاعه على تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، وذكرَ أن هذا التفسير لا يتعارض مع تفسيره عليه الصلاة والسلام! قلت: الظلام ينتشر عند الخسوف أيضاً، وخاصة عند اكتمال دخوله إلى منطقة ظل الأرض، حيث يخسف كامل قرص القمر، لكن المعنى الصحيح الأول هو ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام، والتوسع فيه قد يكون ممكنًا، ولكن يورد الأصل الذي لا شك فيه على أنه هو المقصود، وهو قوله عليه الصلاة والسلام. ويذكر هنا أيضًا الحديث أو الحادثة التي تورد عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤].

والذي يسدُّ نقصًا في هذا هو أن سنته صلى الله عليه وسلم مبيِّنة للقرآن وإن لم يذكر أنها تفسير للآية كذا، فتفاصيل الصلاة والصوم والحج وغيره موجودة في السنة الصحيحة. وقد أحسن ابن كثير والقرطبي في تفسيريهما وغيرهما من مفسري المأثور والأحكام في هذا المجال خاصة.

وتبرز هنا مشكلات:

الأولى: أنه لم يصح من تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا القليل. وقد كانت لي جولة مبدئية بين ما صحَّ من تفسيره عليه الصلاة والسلام في الصحيحين وسنن أخرى، فكان في نحو مئة آية، وقد استخرجت منها "الأربعين التفسيرية"، وهي إحصاء مبدئي محدود، فيكون أكثر بالبحث والدراسة إن شاء الله.

الثاني: أنني وقفت على أكثر من عنوان باسم "تفسير النبي صلى الله عليه وسلم" ولكن لم أجده مخطوطاً ولا مطبوعاً، فلعله من المفقود.

الثالث: أنه مثل غيره من الأحاديث، الذي فيه الصحيح وغيره، فلا بدَّ من فرزه وتصفيته ليعتمد الصحيح منه.

وإن أهم عمل في هذا هو جمع ما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من التفسير.

ج- وبالنسبة لأقوال الصحابة رضوان الله عليهم في التفسير، فينبغي أن تخرَّج كذلك، ليُعلمَ الصحيح منه، ويعتمد بعد تفسير رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ويركز من بينها على تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، فهو حبر الأمَّة، وأعظم مفسِّر في الصحابة. وقد لاحظت أن

مفسرين يوردون قوله ثم يختارون لتفسير الآية قولاً آخر ليس هو من أقوال الصحابة أصلاً، حتى عند ابن كثير رحمه الله، وهو أحيانًا. ولا يعني هذا أن تفسيره رضي الله عنه مقدس لا يتجاوز إلى غيره، ولكن يؤخذ في الاعتبار جيداً، فقد دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم كما يأتي تخريجه، وهو أعلم الصحابة بالتفسير. ونحن هنا في مجال اختيار الصحيح والأَولى.

د- ثم يأتي تفسير التابعين... وهو كثير، ومفيد، لو أنه نُخِل. ويُعتمد بعد تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، مع تفصيل للمتخصصين في ذلك.

وإذا سألنا عن تفسير أو تفاسير جمعت كل هذه الشروط، أعني تفسير القرآن بالقرآن، وما ورد من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين في التفسير، فالجواب أنها موجودة مع زيادات أتباع التابعين وغيرهم، وأولها تفسير ابن جرير الطبري، ولعل آخرها "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي رحمه الله. وهذا النوع يسمى التفسير بالمأثور، وفيه ما هو مسند وما هو غير مسند. ولكن المشكلة تكمن في أن فيها الصحيح والضعيف والموضوع، والمطلوب في هذا الاقتصار على الصحيح منه.

المشكلة والحل في كتب التفسير المأثور:

لقد تبيَّن للقارئ أن التفسير بالمأثور -الذي يكون هو المعتمد- يحتاج إلى فرز الصحيح من بين رواياته.

فأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في التفسير مبثوثة في كتب الأحاديث والتفسير وغيرهما، وأقوال الصحابة فيها وفي كتب السيرة والتاريخ والفقه والزهد.. وأقوال التابعين كذلك، وقد ذكرنا أن الإمام السيوطي جمعها في تفسير "الدر المنثور"، ولا شك أنه يستدرك عليه كما يستدرك على غيره، فقد بحثت عن أقوال صحابة وتابعين في هذا التفسير فلم أجدها فيه.

فالأمر يحتاج إلى متابعة، وتخريج ما يلزم. وقد صدر تفسير السيوطي المذكور محققاً بإشراف أو تحقيق الأستاذ عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وفيه تخريج وحل لمشكلة ومشكلات منه لكن التخريج ليس لكله، فبعضها غير مسند، والحكم على الحديث والأثر والخبر يكون من خلال السند. وتفسير ابن كثير كذلك... ثم إن هذا وذاك ليس فيه اقتصار على الصحيح، بل فيه ما هو دون الصحيح ودون الضعيف.

فالأمر يحتاج إلى خطوات، من الجمع الشامل، ثم التحقيق والتخريج الوافي، ثم فرز الصحيح منه.

ولا شك أن هناك اعتراضات في طريق ما هو صحيح أيضاً، من حيث تعدد الروايات عن شخص واحد في التفسير نفسه، كما يروى عن ابن عباس وغيره. وأحياناً من حيث الاختلاف في حكم الحديث والأثر. ثم اختلاف بعض الصحابة والتابعين في تفسير آيات عديدة. وقبل هذا وجود آيات مشكلة ومتشابهة، وإذا كان بعض المفسرين قد خاضوا فيها، وبعضهم قرَّب المعنى، فإن بعضها لا يمكن التأكيد على معناها، مثل الحروف المقطَّعة الواردة في أوائل بعض السور.

هذا بالإضافة إلى آيات كثيرة لم يرد في تفسيرها أحاديث ولا أقوال الصحابة ولا التابعين، وبعضها غير واضح وغير كاف، ولذلك (انبسط) الشيخ ابن عاشور في تفسيره كثيراً من صنيع أصحاب "معاني القرآن" في تفسير ألفاظ وآيات كثيرة في القرآن لغويًّا ونحويًّا، مما يساعد على فهم المقصد والمعنى من آيات كثيرة، وهو يدخل ضمن التفسير بالرأي.

المشروع المقترح:

أشير أولاً إلى أنه لا مطمع لنا في تفسير شامل للقرآن يحكم عليه بالصحة مطلقاً، نظراً لعدم وجود تفسير كامل من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم له، وفي ذلك حكمة، وحتى التفسير المأثور عنه عليه الصلاة والسلام قليل كما ذكرت، وهذا القليل فيه الصحيح وما دونه. وكذلك أقوال الصحابة لو جمعت لما كان لكامل القرآن، و"تفسير ابن عباس" المطبوع قديماً ليس هو تفسيره بحق، وأقوال التابعين تقاس على ما سبق.

الأمر الآخر هو اختلاف الاتجاهات تبعاً للمدارس والمذاهب التي ينتمي إليها المسلمون، فإن بعضهم لا يقبل تفسير آياتٍ ولو كانت من عند ابن عباس رضي الله عنهما، الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "اللهمَّ فقِّههُ في الدِّين، وعلِّمهُ التأويل". (رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه وصححه لهما الشيخ شعيب). ثم آيات الأحكام في القرآن التي اختلف الفقهاء في كثير منها، فصارت هناك مذاهب، أكثر من الأربعة التي يعرفها القارئ.

كما أن هناك علومًا كثيرة للقرآن الكريم يمكن إدراجها ضمن التفسير ليزداد وضوحاً عند القارئ، مثل أسباب النزول وغيرها...

وهذا الذي أذكره لأخلص إلى أن التفسير المقترح ينبغي أن يجتمع له أعلام وتخصصات متنوعة، فالتفسير فيه أنواع من العلوم، من فقه ونحو وقراءات... ويعني هذا أن قيام شخص واحد بهذا العمل يكون صعباً جداً، فلا بدَّ من جهد جماعي له، وهذه الجماعة تكون مختارة من أفضل العلماء وأكثرهم خبرة في التفسير أولاً، ثم في تخصصات أخرى تدخل في التفسير.

ومشكلة الآيات التي لم تفسَّر من قبل السلف، يمكن حلها باختيار ما اتفق عليه المفسرون أو أكثرهم، أو ما يناسب العصر مما تَحقَّق منه أو ثبت علميًّا، وفي كلام المفسرين اتفاق أو تقارب شديد في آيات كثيرة، فإن أكثر القرآن واضح يفهم منه المسلمون حتى لو لم يكونوا علماء، بل إن التعمق في معنى آيات وتبسيطها أذهب جمال تفسيرها السهل ومدلولها الواضح الذي لا غبار عليه.

أما في مجال العقيدة واختلاف بعض المسلمين في تفسير آيات تتعلق بها، مثل الأسماء والصفات، فإما أن تبقى على ظاهرها ويذكر فيها ما ذكره معظم المفسرين، أو يورد قول الصحابة والتابعين فيها وإن بدا فيها الاختلاف، فإن اطلاع القارئ على ذلك يخفف عليه ما يسمعه من تشديد في الأمر، والاختلاف وارد، ولا يمكن إزالته كله. ومن المؤسف أن لا يطيق بعضهم إيراد وجوه من التفسير أو التأويل التي صحت عن ابن عباس أو غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، لمجرد أنها لا توافق مذهبهم العقدي! فالصحيح يُذكر، سواء أُخِذَ به أم لم يؤخَذ.

والآيات المتشابهات يقال فيها ما ذُكر أيضاً، وإذا فسِّرت بما ذكره أكثر المفسرين، فإنه يذكر للقارئ أن تفسيرها هذا ظني، وأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وكذلك الأمر في الحروف المقَّطعة، التي مال معظم المفسرين –وخاصة في عصرنا– إلى أنها تدل على أن القرآن مكون من هذه الحروف وأمثالها، التي يكتبها ويتكلم بها الناس، ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، دليلاً على إعجازه. وهو ظني كما لا يخفى، فلم يرد في تفسيرها حديث صحيح.

والأفضل أن يكون التفسير الصحيح المقترح في حجمين، مبسوط، ووسيط أو موجز، يكون الأول للعلماء وطلبة العلم والمثقفين المتعلمين، والآخر عام للجميع، فيكون ملائماً لهذا العصر، سهلاً واضحاً في كلماته ومعانيه ومدلولاته، ليناسب أهله ولغتهم ومستواهم، الذين يغلب عليهم قلة العلم بالإسلام.

ونخلص إلى أن التفسير الصحيح يكون:

- بتفسير القرآن بالقرآن.
- وتفسير القرآن بالسنة.
- وتفسير القرآن بأقوال الصحابة، وخاصة ابن عباس رضي الله عنهما.
- وبتفسير التابعين تلامذة الصحابة رضي الله عنهم.
- وما لم يفسَّر مما سبق يؤخذ ما اتفق عليه المفسرون أو ما كان عليه أكثرهم، بعناية وتحقيق، فلا بأس من الاستدراك والتعقيب، وخاصة ما يتعلق بالأمور العلمية وما إليها، فإن المفسرين ينقل بعضهم من بعض حتى يظن أحيانًا أنه قول جمهورهم، فليسوا جميعًا عارفين بموضوعات القرآن كلها، فينقلون ما قصر فهمهم فيه، وما لم يبلغه علمهم منه، ربما هكذا دون تمحيص، مثل القول بأن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني، فقد قرأت في تفسير حديث أنه قول جمهور المفسرين، أي عامتهم، ولهذا أورده هو أيضًا على أنه هو المعتمد، وهو قول لا يُعتمد ألبتة، فالمقدوني من تلامذة أرسطو الفيلسوف اليوناني المعروف، وتذكر الكتب الأجنبية أنه كان يعبد الأصنام ويذبح لها القرابين. وذو القرنين قبله بقرون... حاكم مؤمن صالح.
- وآيات الأحكام يختار الأصح مما اختلف فيه الفقهاء، ويؤخذ بعين الاعتبار اختلافات الفقهاء، ويبين ذلك في التفسير الكبير، مراعاة للمذاهب الإسلامية المنتشرة في العالم.

اللجنة المكلفة بالتفسير والأمل في صدور تفسير صحيح للقرآن الكريم:

إن اللجنة المكلفة بالتفسير تكون مختارة من تخصصات شتى في العلوم الإسلامية كما قلنا، وأبرزها التفسير والعلوم المتصلة بالقرآن مباشرة، وهم كثر بحمد الله، ويشار إليهم بالبنان من خلال مؤلفاتهم ودروسهم وخبراتهم الطويلة في هذا، ولا يكتفى بشخص واحد من كل تخصص، بل يكونون عدة أشخاص، حتى لا يطغى عليه صبغة العمل الفردي أو القريب منه.

والتفسير المأمول صدوره من هذه اللجنة هو أن يكون صحيحاً غير مخالف لما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وتضع هذه اللجنة الأسس والشروط والقواعد الملائمة لذلك، وقد أشير إلى بعضها.

وقد يستغرب القارئ أن لا تكون هناك جهة قد اضطلعت بهذا الأمر حتى الآن، على الرغم من أهمية هذا التفسير في حياة المسلمين كلهم!

أقول: لا شك أن جهات قامت بقريب من هذا الأمر المقترح، وهي لا تقدم على عمل تفسير إلا بهدف أن يكون صحيحاً، لكنها قد لا تستطيع أن تسميه بهذا الاسم، لما ذكرنا من الاختلافات الواردة في التفاسير، ولم أطَّلع على التفاسير التي كتبت في اللغات الأخرى، واطلعت على مجموعة طيبة منها بالعربية، وليس كلها. من ذلك تفسير موجز أصدرته وزارة الأوقاف بالسعودية، وهو مختصر جداً.

وتفسير آخر أصدرته الوزارة نفسها في مصر، يبدو أنه كان في عهد وزارة محمد الأحمدي أبو النور، فقد صدر تحت إشرافه وطبع بعنوان: "المنتخب في تفسير القرآن الكريم"، ووصفه بقوله: "كتب بأسلوب علمي، يعتمد على أصول التفسير وقواعده"، وذكرت لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية أن المجلس "شكل لجاناً علمية من جهابذة العلماء وفطاحل الباحثين والمفكرين ليتوفروا على تأليف هذا التفسير بأسلوب عصري سهل مبسط واضح العبارة، وجيز لا يخل ولا يمل، بعيد عن الخلافات المذهبية والمصطلحات الفنية والحشو والتعقيدات اللفظية، حتى يكون على حالة مرْضية من الصلاحية لترجمته".

ويبدو أنه لاقى قبولاً، فقد طبع طبعات عديدة، رأيت منها الطبعة الثانية عشرة الصادرة سنة ١٤٠٦هـ.

ولا شكَّ أنه عمل طيب، ولكن لو وجِّه هذا الجهد إلى تتبع ما هو صحيح من التفسير لكان أفضل.

وهناك توجيه آخر في إمكانية القيام بهذا العمل، فلا يشترط أن تكون اللجنة قائمة في مكان معين وتتابع جهدها لسنوات، بل يمكن أن يوزع العمل على المتخصصين في جهات عملهم.

وقد قام أستاذ التفسير القدير مصطفى مسلم بعمل شبيه بهذا، فقد اقترح وأشرف من خلال اهتمامه بالتفسير الموضوعي وتدريسه لسنوات، على تفسير موضوعي للقرآن الكريم بأسلوب

علمي، وذلك من خلال توزيع هذا العمل على أساتذة جامعيين في أكثر من دولة، وتجمعت لديه أعمالهم، وقام بمراجعتها أساتذة متخصصون، ويبدو أنه تحت الطبع وأنا أكتب هذا المقال (أواخر ١٤٢٩هـ) أو أنه صدر؟ وذكر أن هذا تفسير موضوعي لسور القرآن، وأنه في المرحلة القادمة سيكون هناك تفسير موضوعيٌّ آخر شاملاً للقرآن الكريم وليس لكل سورة على حدة. وكان ذلك بتمويل من كلية الشريعة بجامعة الشارقة.

ومع جلالة هذا العمل وما يليه، وفائدته التي لا تنكر، إلا أن هذا الجُهد لو وجِّه إلى عمل تفسير صحيح للقرآن الكريم لكان أفضل وأكثر قبولاً وانتشارًا، وأكثر فائدة بالتأكيد، فإنه يعتمد الأهم، ثم يعمل في المهم وما يليه. والتفسير الموضوعي وغيره يجب أن يكون قائماً على أسس صحيحة، فما الذي يختاره الأساتذة الذين وضعوا هذا التفسير من بين التفاسير، وكيف عرفوا أن ما اختاروه هو التفسير الصحيح المختار؟ فلا بد من معرفة الصحيح أولاً، ثم التفنن في تبويبه.

أما بالنسبة للأعمال الفردية، أعني ما اهتم منها بالصحيح منه فقط، فلا أعرف سوى عمل الأستاذ القدير حكمت بشير ياسين، أستاذ التفسير بالمدينة المنورة، الذي علمت منه أولاً أنه يجمع ما ورد من روايات عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في التفسير، ولعله الصحيحُ منها، واقترحت عليه أن يسميه "تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم"، لكن يبدو أنه توسَّع في عمله فجمع إليه الروايات الصحيحة للصحابة ومن بعدهم من التابعين في التفسير، وصدر عمله المبارك هذا بعنوان "التفسير الصحيح: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور" الذي صدر سنة ١٤٢٠ هـ في أربعة أجزاء. ثم اختصره وصدر بعنوان: "التفسير المختصر الصحيح من موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور" الذي صدر سنة ١٤٢٦ هـ في ٦٤٠ ص. لكن يبدو أنه نُقد في عمله هذا من قبل أساتذة الحديث الشريف، فالأمر كله يتوقف على المهارة في التخريج والتمكن منه، بعد جمع الروايات، والتخريج ليس سهلاً.

هذا ويمكن لمن يعمل في المشروع المقترح المبارك أن يستفيدوا كثيراً من التفاسير التالية: تفسير ابن جرير الطبري، ثم تفسير ابن كثير، ثم الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، الذي صدر بتحقيق جيد كما ذكرت. وكذلك من رسائل جامعية عديدة قام أصحابها بتحقيق

وتوثيق وتخريج أقوال السلف في التفسير، وهي موزعة ومشتتة في مباحث وموضوعات عدة، بين الحديث والتفسير وغيره.

وأدعو إلى مراجعة العمل الذي قام به الأستاذ حكمت بشير من قبل اللجنة العلمية المكلفة بالمشروع المقترح، فإذا وافقت عليه، فإنه يمكن اعتماده والعمل على نشره عالميًا، أو تعديل ما يلزم منه، أو الزيادة عليه، وقد يعتبر هذا العمل الجليل الرائد في مجاله. والعمل الجماعي يفضل على الفردي هنا، ففرق بين عقل وعقول تجتمع على التفسير، وكتاب الله أعظم من أن يحيط بعلمه شخص واحد، ولذلك لا يخلو تفسيره من نظرات.

إن كتاب الله تعالى يجب أن يكون أول اهتمام المسلمين وعلمائهم ومفسريهم، وإن الاجتماع على عمل تفسير صحيح له هو أهم ما يقومون به، والعزيمة تأتي بعد النية الصادقة، والإخلاص في العمل. والله الهادي.

(د)
صراحة القرآن

توطئة

هناك آياتٌ واضحةٌ صريحةٌ في القرآنِ الكريم، لا تحتاجُ إلى مناقشةٍ ولا تأويلٍ، فيها توجيهٌ وتذكير، تبدو من خلال المواقفِ والموضوعاتِ التالية، وإنما هي نماذجُ أذكرها، فالقرآنُ كلُّهُ بيانٌ للناس.

وأعني بصراحةِ القرآنِ صريحه، وهو لفظٌ مستَخدَمٌ أو شائع.

صراحة مع الإنسان

الإنسانُ الذي كرَّمه الله وجعلَ له شأنًا في هذا الكون، ليسَ كاملَ الصفات، بل فيه صفاتُ نقص، وهو يبدو من خلالِ تصرُّفاتهِ متسرّعًا، ويقدِّمُ نفسهُ أحيانًا كثيرة على أنه مهيَّأٌ ومستعدٌّ لخوضِ أصعبِ المشاريع، وبأحسنِ ما يكون، ولو كان في ذلك هلاكه!

- وبدا هذا واضحًا عندما عُرضتْ عليه فكرةُ تحمُّل (الأمانة)، التي تعني الفرائضَ والتكاليف، وحُسنَ الطاعةِ والانقياد، وعدمَ الإخلالِ بها، فإذا قامَ بحقِّها أُثيب، وإنْ ضيَّعها عُوقب. فقَبِلَ حملَها، وبيَّنَ استعدادَهُ للالتزامِ بها، والمحافظةِ عليها، وأدائها كما يجب، فكانَ بذلكَ ظالماً لنفسهِ، مُبالِغًا في الجهلِ بما قَبِلَه، مُعتَدًّا بنفسهِ عندما وافقَ على شروطِ هذهِ الأمانةِ الصَّعبة، وقد عُرضتْ من قبلُ على السماواتِ والأرضِ فأبتْ أن تحملَ هذهِ الأمانة، خوفًا من أنْ لا تقومَ بحقِّها. يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} (سورة الأحزاب : ٧٢).

ويقولُ الله تعالَى في موضعٍ آخرَ من كتابهِ الكريم: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ} (سورة الأنبياء: ٣٧).

أي: خُلِقَ الإنسانُ مطبوعًا على العجلةِ والتسرُّع، فهو قليلُ الصَّبر، لا تكادُ تنفكُّ عنهُ العجَلة، ولو كانَ فيما يطلبهُ مضرَّةٌ له!

- وهو (مجادلٌ) أيضًا: **{وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}** (سورة الكهف: ٥٤).

أي أنَّ الإنسانَ بحسَبِ طبعهِ كثيرُ المخاصَمةِ والمجادلة.

- وهو بخيلٌ، يقول الله تعالَى في حقِّه: **{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً}** (سورة الإسراء: ١٠٠).

تفسيرها: قلْ لهؤلاءِ المعاندينَ المكابرين، الذين لا يزالونَ يُطالبونَ بالمعجزاتِ كما يوافقُ أهواءَهم: لو كنتُم تملكونَ خزائنَ رزقِ اللهِ ونِعمهِ الكثيرة، لبَخِلتُم بها على عبادِ الله، وامتنعتُم من إنفاقِها خوفًا من أن يُصيبَكمُ الفقر، وكانَ الإنسانُ بخيلاً، قليلَ الإنفاق.

قالَ ابنُ كثيرٍ رحمَهُ الله: اللهُ تعالَى يَصِفُ الإنسانَ من حيثُ هو، إلاّ من وفَّقَهُ اللهُ وهداه، فإنَّ البخلَ والجزَعَ صفةٌ له...

- ويوصَف في القرآن أيضًا بأنه (كفور). فيقول عزَّ من قائل: **{وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً}** [سورة الإسراء: ٦٧].

أي أن سجيَّتهُ هذا، ينسَى النِّعمَ ويجحدها، إلا من عصمَ الله. كما يقولُ ابنُ كثير رحمهُ الله.

وفي معناهُ قولهُ تعالى: **{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}** (سورة العاديات: ٦). أي أنَّ الإنسانَ جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عليه، مُنكِرٌ لفضلِه، **{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** (الآية ٧) أي: إنَّهُ لشاهدٌ على جُحودِهِ بما يَصنع، وبما يظهَرُ من أثرِهِ عليه.

ولعلَّ السببَ هو حبُّه الشديدُ للمال، وفي الآيةِ الثامنةِ من السورةِ نفسها: **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** ويعني بالخيرِ هنا: المال. وتأكيدهُ في قولِه تعالَى: **{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً}** (سورة الفجر: ٢٠) أي: تُحبُّونَ جمعَ المالِ حُبًّا كثيرًا طاغيًا.

ولكنْ ليتنبَّهِ الإنسان، فإنه إذا غنِيَ بطرَ وطغَى، فقد وردَ في القرآنِ الكريم: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى}** (سورة العلق: ٦) أي: كلاّ لمنْ كفرَ بنعمةِ الله. إنَّ الإنسانَ ليَتجاوزُ حدَّه، ويستَكبِرُ فيَكفرُ بربِّه، ويَستَغرِقُ في حُبِّ الدُّنيا، **{أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}** (الآية ٧) أي: إذا رَأى نفسَهُ غنيًّا، فكثُرَ مالُه، وزادتْ آثارُ النِّعمةِ عليه، ونسيَ المُنعِمَ عليه.

فتنبَّه، فإنَّ وراءها حسابًا: **{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}** (الآية ٨) أي: إنَّ إلى ربِّكَ المرجِعُ والمصيرُ لا إلى غيرِه، فيُحاسِبُكَ على مالِكَ وأعمالِك.

ويقولُ سبحانهُ فيما يشاكلهُ هنا: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** (سورة الأعلى: ١٦).

تفسيرها: بل تُقدِّمونَ الدُّنيا على الآخرة، حُبًّا للعاجِل، وجهلاً بالباقي. والكافرُ يُعرِضُ عن الآخرةِ كُفرًا بها، والمسلمُ إذا فعلَ فلإيثارِ معصيةٍ وغلَبةِ نفس، وقبلَ ذلك لضَعفٍ في الإيمان.

{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (الآية: ١٧). أي: معَ أنَّ تقديمَ الآخرةِ هو الذي فيهِ النَّفعُ والفَلاح، فنَعيمُها أفضل، وأبقَى دوامًا وعافية، والدُّنيا شَهواتُها مُكدَّرَة، ولذّاتُها فانية، وعليها حسابٌ وتَبِعات.

- والإنسانُ في ابتلاءٍ مستمرّ، قال سبحانه: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** (سورة الملك: ٢).

أي: الذي أوجدَ الموتَ والحياةَ في الحياةِ الدُّنيا ليَختبركم أيُّكم أفضلُ عمَلاً وأحسنُ طاعةً لربِّه.

- وفي حقِّهِ يقولُ ربُّنا تباركَ وتعالَى: **{فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}** (سورة الفجر: ١٥).

فإذا اختبرَ اللهُ الإنسانَ بالغِنَى والعافية، فأكرمَهُ بالمال، ونعَّمَهُ بما وسَّعَ عليه من زينةِ الدُّنيا، وجعلَ لهُ وَجاهَةً أو مَنصِبًا، اعتقدَ أنَّ ذلكَ إكرامٌ من اللهِ له. وليسَ كذلك، بل هو ابتلاءٌ وامتحانٌ منه، ليَنظُرَ هل يَشكرُ أم يَكفُر، وهل يَعدِلُ أم يَظلِم، وهل يُطيعُ اللهَ أم يَعصيه؟

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} (الآية ١٦) أي: وأمَّا إذا ضيَّقَ اللهُ عليه، فابتلاهُ بالفقر، اعتبرَ ذلكَ عقوبةً لهُ ومَهانَة، وأنَّ اللهَ لو لم يُرِدْ إهانتَهُ لَما ضيَّقَ عليه في رزقه! وإنَّما أرادَ امتحانَه، ليَنظُرَ هل يكونُ مؤمنًا صابرًا راضيًا بقضاءِ الله، أم متضجِّرًا جَزوعًا يائسًا، ضعيفَ الإيمانِ ساخطًا؟

- ويذكِّرُ القرآنُ العبادَ بأصلِ خلقهم ليعرفوا من هم أصلاً، ولئلاّ يتكبَّرو ويتعالَوا على الحقّ، في آيات كثيرة، مثاله: **{قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}** أي: لُعِنَ المكذِّبُ بالبَعثِ والنُّشورِ ما أشدَّ كُفرَه!

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}: من أيِّ شيءٍ مَهينٍ خلقَه؟ ما أصلُهُ وما مبدَؤهُ حتَّى يتكبَّرَ ويُعرِض؟

{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} (سورة عبس: ١٧- ١٩): خلقَهُ من نُطفةٍ ضعيفة، ثم قدَّرَهُ أطوارًا إلى أن تمَّ خلقُه، وهيَّأهُ لِما يَصلُحُ له.

- كما يذكِّرهم القرآنُ بأنهم إذا ظلموا فإنَّ عاقبةَ ظلمهم تعودُ إليهم **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** (سورة يونس: ٢٣)

يا أيُّها النَّاس، اعقِلوا واحذَروا، فإنَّ هذا الظُّلمَ الذي تُمارسونَه، والفسادَ الذي تنشُرونَه، والدِّماءَ التي تَسفِكونَها، والإعلامَ المُضَلِّلَ الذي تبثُّونَه، إنَّما هو جنايةٌ على أنفسِكم، فوَبالُهُ

يعودُ عليكم، وعاقبتهُ تَرجِعُ عليكم، ولا تضرُّونَ اللهَ به شيئاً، وما أنتم فيه متاعٌ قليل، ولذَّةٌ فانية، وحياةٌ قصيرة، ثمَّ تعودونَ إلينا يومَ الحِساب، فنُخبركم بجميعِ ما كسَبتُموه، ونُحاسبُكم عليه ونُوفِيكم حَقَّه، فانتظروا ذلك اليوم.

الدعوة بالرفق

يلاحظُ قارئ كتابِ الله في دعوةِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ لأقوامهم الرفقَ واللطفَ بكلِّ معناه، وحتى التهديدُ والوعيدُ يكونُ مشفوعًا بالشفقة، وفي بيانٍ وتذكيرٍ فقط، مما يؤكدُ دورهم في التبليغِ وحده، والله يتولَّى أمرهم بعد ذلك.

فعندما قالَ قومُ نوحٍ له: **{إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}**

كان جوابهُ لهم هادئًا غيرَ مهيّج: **{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}**

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}

أي: أبلِّغكم ما أمرني اللهُ بتبليغهِ إليكم، وأنا ناصحٌ لكم بأمانةٍ وإشفاق، فأتحرَّى ما فيه خيرُكم وصلاحُكم، وأرغِّبكم في قبولِ أوامرِه، وأحذِّرُكم من نواهيه، حتَّى لا يُصيبَكم عقابُه، وأنا أعلمُ أشياءَ لا علمَ لكم بها، فاتَّقوا ربَّكم، واسمَعوا نصيحتي، ولا تكونوا من الكافرينَ المتكبِّرين.

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}

[سورة الأعراف : ٦٠- ٦٢]

ولماذا تتعجَّبونَ وتستبعدونَ مجيءَ موعظةٍ وبيانٍ من ربِّكم، يُوحي بهِ على رجلٍ من جنسِكم، ليُحَذِّرَكم من العذابِ والهلاكِ إذا عصيتُم، ولتتَّقوا بذلكَ نقمتَه، وليَرحمَكم ويُحسِنَ إليكم إذا آمنتُم واتَّقيتُم؟!.

ومثلهُ قولُ عادٍ لهودٍ عليه السلام: **{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}**.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}... [سورة الأعراف :٦٦-٦٧]

وانظرْ إلى شفقةِ نبيِّ الله صالحٍ عليه السلام على قومهِ بعد أن داهمهم العذاب: **{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}** [سورة الأعراف: ٧٩]

أي: فأعرضَ عنهم صالحٌ وهو مُتَحسِّرٌ على ما فاتَهم من الإيمان، وخاطبَهُم كما خاطبَ رسولُنا صلى الله عليهِ وسلم موتَى المشركينَ في غزوةِ بدر: يا قوم، لقد أبلغتُكم رسالةَ ربِّي كما طلبَ منّي، وكانَ فيها فوزُكم ونجاتُكم لو أطعتُم ولم تُعانِدوا، ونصحتُكم كما ينبغي، وأنا مُشفِقٌ عليكم، ووددْتُ لو آمنتُم عن آخِرِكم، ولكنَّكم لا تَوَدُّون الناصحين، وتُعادونَ المخلِصين، فكانَ هذا جزاءَكم، وفي الآخرةِ عذابٌ أشدُّ وأبقَى.

وحتَّى لو كانوا جاهلينَ ومرتكبينَ للكبائر، فإن الداعي لا يخرجُ عن حِلمه، حتى لا يؤدِّي جوابهُ أو تصرُّفهُ إلى مفسدةٍ أكبر.

وهذا أحدُ مواقفِ قومِ موسى الشديدةِ مع نبيِّهم: **{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}**.

قولهم: اجعلْ لنا تِمثالاً نعبده، يَعني نُعَظِّمهُ ونتقرَّبُ بتعظيمهِ إلى الله! كما يفعلُ هؤلاء.

فقالَ لهم موسى عليه السلام: إنَّكم قومٌ تجهلونَ عظمةَ اللهِ وربوبيَّتَهُ وتوحيدَه.

{إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}

إنَّ هؤلاءِ العاكفينَ على هذه الأصنامِ هالِكٌ ما هُم فيه، وباطلٌ زائلٌ عملُهم، وإن قَصدوا بذلك التقرُّبَ إلى الله، فلا ينفعُهم عَملُهم هذا أصلاً.

{قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة الأعراف: ١٣٨- ١٤٠]

قالَ لهم موسَى عليهِ السَّلام: هل أطلبُ لكم معبوداً يستَحقُّ العبادةَ غيرَ اللهِ وهو الربُّ المعبود، وقد فضَّلكم على العالَمينَ في زمانِكم، فهل الذي تطلبونَهُ الآنَ يوافقُ مكانتَكمُ المفضَّلةَ ويناسبُ سؤالَكم؟!

وليتفكَّرِ القارئ في أسلوبِ الردِّ، موضوعِ الحديث.

صراحة الأنبياء مع أقوامهم

دعوةُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ لأقوامهم واضحةٌ جليَّةٌ بيِّنة، فهم يدعونهم إلى توحيدِ الله وعبادتهِ وحده، ونبذِ الشركِ وأهله، وتركِ الفواحشِ والبعدِ عن المنكرات، والنهي عن الظلم. وهم في كلِّ مرةٍ يؤكدون بشريَّتهم، ويذكرونَ لهم مهمَّتهم في التبليغ، مع تأييدهم بالمعجزاتِ القاهرةِ التي لا يقدرُ عليها البشر، ولكنَّ أكثرهم يجادلو ويأبَون الإيمان، ويطلبون المزيدَ من الآيات!

يأمرُ الله تعالَى نبيَّهُ محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقولَ لقومه: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [سورة الأنعام: ٥٠]

قل أيُّها النبيُّ للمُشركينَ من قومِك، وهم يقترحونَ من الآياتِ ما يقترحون: إنَّني لا أملِكُ خزائنَ ربِّي، ولا أقدِرُ على التصرُّفِ فيها كما أشاء، ولا أن أرزقَكُم منها ما تُريدون، ولا أقولُ

لكم إنِّي أعلمُ الغيبَ فأخبرُكمْ بما غابَ ممّا مضَى وبما سيكون، ولا أعلمُ من ذلكَ سِوَى ما أطلعني اللهُ عليه، ولا أدَّعي أنِّي من الملائكة، بل واحدٌ من البشرِ أنعمَ اللهُ عليَّ بالوحي لأنذِرَكم به. ولا أخرجُ عمّا يوحَى إليَّ، فما أفعلهُ بتوجيهٍ من اللهِ وتسديدٍ منه.

وقالَ الكافرونَ لأنبيائهم: **{إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}** (سورة إبراهيم: ١٠)

قالوا لهم: ما أنتم سِوَى بشرٍ مثلِنا، كأيِّ واحِدٍ من بني آدم، ولا فضلَ لكم علينا بشيء، وإنَّما تريدونَ بدعوتِكم إلى التَّوحيدِ أن تَصرِفونا وتمنَعونا من اتِّباعِ الدِّينِ الذي كانَ عليهِ آباؤنا من غيرِ داعٍ لتركه، فأتُونا بمعجزةٍ ودليلٍ خارقٍ على صحَّةِ دعواكمْ.

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (إبراهيم: ١١).

قالت لهم رسُلهم: حقًّا إنَّا بشرٌ مِثلُكم في الصِّفاتِ الآدميَّة، ولكنَّ اللهَ يتفضَّلُ على عبادٍ له ويُنعِمُ عليهم بنِعَمٍ غيرِ موجودةٍ عند آخَرين، وقد فضَّلَنا عليكم بأن أوحَى إلينَا بالنبوَّةِ وأمرَنا بتبليغِ رسالتِهِ إليكم، ولا مقدرةَ لنا على الإتيانِ بالمعجزاتِ والخوارقِ التي تطلبونَها إلاّ بأمرِ اللهِ ومشيئتِه، فهو وحدَهُ الذي يخلقُها ويُقَدِّرُها. وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتمدِ المؤمنونَ إذا أرادوا التوكُّلَ عليه، فهوَ الذي يحفظُهم من كيدِ الأعداء، وشرِّ الأشرار.

التصريح بحجج الكافرين

يتحرَّجُ بعضُ الكتَّابِ والمفكرين في إيرادِ حججِ خصومِ الإسلامِ وتمويههم حتى لا تثيرَ الشبهَ وتبلبلَ الأفكارَ عند المسلمين، والحقُّ أن هذا لا يُخشَى منه، فالإسلامُ دينُ اللهِ الحقّ، ويستطيعُ ردَّ جميعَ الشبهِ مهما كانت مثيرة، وقد أوردَ القرآنُ حُججَ وشُبَهَ الكافرين وردَّ عليها،

وفيها صراحةٌ كبيرة، ولو كانت إلحادًا وكفرًا بالذاتِ الإلهية، واستهزاءً بالرسلِ وأتباعهم من الفقراءِ والعبيد، وتهكمًا بإيمانهم باليومِ الآخر، وفيها دفاعهم عن الباطل، وتحدِّيهم وثباتهم على عقيدتهم الباطلة.

وذلك مثلُ كلماتُ فرعونَ النابية، المليئةِ بالكفرِ والطغيان، والكِبْرِ والبهتان **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}** (سورة القصص: ٣٨).

و **{قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}** (الشعراء: ٢٧).

وقال المشركون: **{أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ}** [سورة البقرة: ١٣].

أي أنهم قالوا في غرورٍ وبَلَه: أنؤمنُ كما آمنَ هؤلاءِ السفهاءُ –يَعْنُون الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهم– ونَصِيرُ وهم بمنزلةٍ واحدة؟! لكنَّ الحقَّ أنَّهُمُ همُ الجهلاءُ...

وأنكرَ الكافرونَ يومَ القيامةِ وتحدَّوا! مثالهُ في سورة يس: **{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}** (الآية ٧٨).

أي: ضربَ هذا الكافرُ بالبعثِ مثَلاً لنا، ونَسيَ بَدْءَ خَلقِنا له، فجاءَ إلى الرسولِ صلى الله عليه وسلم وفي يدهِ عظمٌ قديم، ففتَّتَهُ أمامَهُ وقال له: أتزعُمُ أنَّ اللهَ يبعثُ هذا بعدما أَرِم؟

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "**نعَم، يَبْعَثُ اللهُ تعالَى هذا، ويُميتُك، ثمَّ يُحييك، ثمَّ يُدخِلُكَ نارَ جهنَّم**". رواهُ الحاكمُ وصحَّحه.

{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} (٧٩).

قلْ لهم أيُّها الرسُول: سيُحيي العظامَ الذي أَوجدَها أوَّلَ مرَّةٍ وهيَ لا شيء، وهوَ العليمُ بجميعِ المخلوقات، وأجزائها وعظامِها المتفتّتةِ والمتفرِّقةِ في أنحاءِ الأرض.

وقولهم: **{أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}** (سورة النمل :٦٧- ٦٩).

يقولُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ الله ما ملخَّصه: استبعدَ الكفّارُ إعادةَ الأجسادِ بعدَ صيرورتها عظامًا ورُفاتًا وترابًا، وقالوا: مازلنا نسمعُ بهذا نحن وآباؤنا ولا نرَى له حقيقةً ولا وقوعًا، وهو كلامٌ أخذهُ قومٌ عمَّن قبلهم وليسَ صحيحًا.

والردّ: قل يا محمَّد لهؤلاء: سيروا في الأرضِ وانظروا كيف كانت عاقبةُ المكذِّبينَ بالرسل، وما جاؤوا به من أمرِ المعادِ وغيره، كيفَ حلَّتْ بهم نِقَمُ الله وعذابهُ ونَكاله، ونجَّى الله من بينهم رسلهُ الكرامَ ومن اتَّبعهم من المؤمنين، فدلَّ ذلك على صدقِ ما جاءتِ به الرسل.

الردّ على شُبه الكافرين

يوردُ القرآنُ الكريمُ شُبَهَ الكافرينَ ولو كانت تافهة، ويردُّ عليها ولو كان دحضها سهلاً واضحًا، والهدفُ عدمُ تركِ حجَّةٍ لهم في تخلُّفهم عن الإيمان. ويعني هذا أن القرآنَ صريحٌ معهم للغاية!

وهذه أمثلة، ومثلها كثير:

- قولهُ تعالَى: **{وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}** (الكهف: ٤)

أي: وليُنذِرَ اللهُ بهذا القُرآنِ مَنْ أشركَ بهِ وجعلَ لهُ ولدًا، كالمشركينَ الذين عبدوا الملائكةَ وقالوا إنَّها بناتُ الله، وأهلِ الكتابِ الذين قالوا عن أنبياءَ أو غيرِهم إنَّهم أبناءُ الله! سبحانَهُ وتعالَى.

{مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً} (الآية: ٥).

وليسَ لهم علمٌ بهذا الذي يقولونَهُ أبدًا، ولا لآبائهم وأجدادِهم، عَظُمَت كلمةً مُنكَرَةً ومُستَبشَعَةً تَصدُرُ عن أفواهِهم، ما يقولونَ إلاّ كلامًا فاسِدًا لا مُستندَ لهُ ولا صِحَّةَ فيه، بل هو كَذِبٌ واختلاقٌ من عندِهم.

- ومن أينَ يأتي الولدُ إذا لم تكنْ هناكَ امرأةٌ تلد؟

{أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٠١].

أي: كيفَ يكونُ له ولَدٌ ولم تكنْ لهُ صَاحبة، والولدُ يَكونُ مُتولِّداً من شيئينِ مُتناسِبَين، ولا مناسِبَ لله، ولا شبيهَ له، فلا ولدَ له، وهو الخالقُ الذي أوجدَ الكونَ ومَنْ فيه، مِنْ والدٍ ووَلَد، وهوَ عليمٌ بكلِّ شيءٍ عِلماً تامّاً، أزَلاً وأبَداً، مَخلوقاً كانَ ذلكَ الشَّيءُ أم لم يكنْ مَخلوقاً.

- وصارحهم ربُّهم بإفكهم من جعلِ بناتٍ له: **{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً}** (سورة الإسراء: ٤٠).

أي: كيفَ تقولونَ إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ أيُّها المشركونَ الجاهِلون؟ فهل اختارَ لكم ربُّكم أولادًا ذكورًا واتَّخذَ لنفسهِ من الملائكةِ إناثًا؟ كيفَ تجعلونَ لربِّكم شيئًا تَكرهونَهُ لأنفسِكم؟ إنَّكم تقولونَ قَولاً مُستَنكَرًا من أساسِه، عظيمًا في جُرأتهِ وشناعته.

- ويوردُ ربُّنا جوابًا مقنعًا لمن أشركَ به، يتأدَّبُ به العقلاءُ وينتهي عنه ذوو الألباب: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}** (سورة المؤمنون: ٩١).

أي: لم يَتَّخذِ اللهُ ولدًا، فلا يُشبِهُهُ أحد، وليسَ هو بحاجةٍ إلى أحد، ولم يكن لهُ شَريكٌ في الأُلوهيَّة، ولو كانَ هناكَ إلهانِ أو أكثر، لانفردَ كلُّ إلهٍ بنصيبِهِ من الخلقِ واستقلَّ بهِ عن الآخَر، وتفرَّدَ بالتصرُّفِ فيه، ولَمَا وُجِدَ هذا التَّنظيمُ والتناسقُ الشَّاملُ في الكونِ كلِّه.

ثمَّ إنَّ الأمرَ لا يبقَى هكذا دون تنافسٍ وتخاصُم، فسيَعلو إلهٌ على آخرَ ويحاربهُ ويُغالِبهُ ليَقضيَ عليه ويستأثرَ بمُلكِه، كما هو الشَّأنُ في ملوكِ الدُّنيا. فتَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ عمَّا يصفونَهُ به من دعوَى الولدِ والشَّريك.

- ومن مصارحةِ القرآنِ مع عبدةِ الأصنام، ما وردَ في الآيات ١٩١-١٩٥ من سورةِ الأعراف: **{أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ}** .

أي: أيُشرِكونَ باللهِ تعالَى أصناماً من حجرٍ، لا تَقدِرُ على الحركة، ولا على الضَّررِ والنَّفع، ولا هي قادرةٌ على أن تَخلُقَ شيئاً، وعابِدوها أقدرُ منها وأسمعُ وأبصَر!! وهذه الأصنامُ مصنوعةٌ ومُشَكَّلةٌ بأيديهم؟! {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} (سورة الصافات: ٩٥)؟

وفي موضعٍ آخرَ من القرآنِ الكريم: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً}** (سورة فاطر: ٤٠).

أي: قلْ للمُشركينَ أيُّها الرسول: أرأيتُم هذهِ الأصنامَ التي تدَّعونَ أنَّها آلِهَة، وتَعبدونَها من دونِ الله، أَرُوني ولو شيئًا قليلاً خلقوهُ في الأرضِ ممَّا يراهُ النَّاس، حتَّى يستحقُّوا أن يُسَمَّوا آلِهَةَ! أم أنَّ لهم شراكةً مع اللهِ في خَلقِ السَّماواتِ حتَّى يستحقُّوا ذلك؟ أم أنزلنا عليهم كتابًا

تُخبِرُهم فيهِ بأنَّهم شركاءُ لنا فهم على حُجَّةٍ ظاهرةٍ من ذلك؟! لا يوجدُ شيءٌ من ذلك كُلِّه، إنَّما اتَّبعَ المشركونَ أهواءَهمُ الزَّائغة، وأفكارَهمُ المنحرفَة، حيثُ غرَّرَ الأسلافُ بالأخلاف، وأضلَّ الرؤساءُ أتباعَهم، وكانوا جميعًا في بُطلانٍ وغرور.

تتمةُ الآياتِ من سورةِ الأعراف: {وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ}

أي: ولا تَقدِرُ هذه الأصنامُ على الانتصارِ لمن يَعبُدها، كما لا تستطيعُ الدفاعَ عن نفسِها إذا ضُرِبتْ أو كُسِرت.

{وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ}

وإنْ تَدْعُوا -أيُّها المشركونَ- هذه الأصنامَ لتُرشِدَكم إلى أمرٍ فيهِ مصلحةٌ لكم، لَمَا سمعتْكم ولا استجابتْ لكم، ولا حقَّقتْ مرادَكم، وسواءٌ عندها مَن ناداها أو لم يُنادِها، فإنَّها لا تَسمعُ أصلاً، فهيَ جمادٌ من حجرٍ أصمّ، لا تُحِسُّ ولا تَسمع.

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}

إنَّ هذه الأصنامَ التي تَعبدونَها من دونِ الله، ما هي سِوَى مخلوقات، مثلَ عابِديها المخلوقين، وأنتم وهم مملوكونَ للهِ مُسخَّرونَ لأمرِه، وها هي عندكم، فارفعوا أيديَكم إليها لتَجلُبَ لكم نَفعاً أو تدفعَ عنكم ضُرًّا، إذا كنتُم صادقينَ في أنَّها آلهةٌ تَقدِرُ على ما لا تَقدِرونَ عليه؟!

{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ} [سورة الأعراف: ١٩١- ١٩٥].

هل لهذهِ الأصنامِ -التي تدَّعونَ أنَّها آلِهةٌ- أرجلٌ يمشُونَ بها ليُعَدُّوا أحياءً لهم قدرةٌ على الحركة، ليُسعِفوكم ويخلِّصُوكم من مُعضلةٍ تقعونَ فيها؟

أم لهم أيدٍ يستطيعونَ أن يأخُذوا شيئاً ما بقوَّةٍ ويُفيدوكم بها، أو يدفعوا عنكم أذًى يَلحَقُكم؟

أم لهم أعينٌ يُبصِرونَ بها ليُبَصِّروكم أشياءَ لا قدرةَ لكم على رُؤيتها، أو يشكُروا لكمْ على ما تُقدِّمونَ لهم من ذبائحَ وقرابين؟

أم لهم آذانٌ يسمعونَ بها دعاءَكم وعبادتَكم لها؟

إنَّهم لا يتمتَّعونَ بصفةٍ من تلكَ الصِّفات، ولا بحاسَّةٍ من تلكَ الحواسّ، ولا فائدةَ منهم ألبتَّة.

فحاجِجْهم أيُّها النبيُّ، وقل لهم: هاتوا آلهتَكمُ المزعومةَ هذه، واستَعينوا بها عليّ إنْ كانت قادرةً على إلحاقِ ضررٍ بي، واجتهدوا في ترتيبِ كلِّ ما تَقدِرونَ عليهِ من مكرٍ وكيدٍ، ولا تُمهِلوني ولا تُشعِروني بما ستَفعلونَه، فإنِّي لا أبالي بكم ولا بأصنامِكم أصلاً!

- وضربَ لهم خليلُ الله إبراهيمُ عليه السلام مثلاً عمليًا ليفهموا جيدًا أن الأصنامَ لا تقدرُ على فعلِ شيءٍ من ضرٍّ أو نفع. فبعدَ أن نسفَ أصنامهم كلَّها أبقَى أكبرَ صنمٍ بينها، ليقولَ لهم إنه هو الذي كسرَ هذه الأصنام؛ ليرجعوا إلى عقولهم ويقولوا فطرة وبداهةً إنها لا تقدرُ على فعلِ ذلك: **{قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ}**. (سورة الأنبياء: ٦٢-٦٣)

{فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} (الآية: ٦٤).

فُوجِئوا بهذا الجواب، بل أُفحِموا ولم يعرفوا كيفَ يردُّونَ عَليه. وعندما تدبَّروا أنَّ قولَهُ حقّ، وأنَّ هذه الآلِهةَ المزعومةَ ما هي سِوَى أحجارٍ صمَّاءَ لا قدرةَ لها على الحركةِ والكلام، ولا الدِّفاعِ عن نفسِها، قالوا فيما بينهم: بل أنتمُ المخطِئونَ بعبادةِ مَنْ لا يتكلَّمُ ولا يَفهم، ولا يَضرُّ ولا يَنفع.

{ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ} (الآية: ٦٥).

ثمَّ أطرقوا رؤوسَهم وهم في خيبةٍ وحَيرة، وقالوا في عنادِ الكافرِ ومَنطقِ المهزوم: لقد علمتَ يا إبراهيمُ أنَّ هذهِ الآلِهةَ لا تتَكلَّم، وأنَّنا كنّا نَعبُدُها معَ علمِنا بذلك!

{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ} (الآية: ٦٦).

قالَ لهم عليه السَّلام: إذا كانتْ هذه الأحجارُ لا تَنطِق، ولا تستطيعُ الدِّفاعَ عن نَفسِها، فكيفَ تُسَمُّونَها آلِهة، وكيفَ تعبدونَها من دونِ الله، وهي لا تنفعُكم بشيء، ولا تضرُّكم بشيء؟!

{أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (الآية: ٦٧).

تُبًّا لكم على إصرارِكم وتشبُّثِكم بالباطِل، وعبادتِكم لهذهِ الجماداتِ التي تدَّعونَ أُلوهيَّتَها وقد صنعتُموها بأيديكم، وهي غيرُ قادرةٍ على إفادتِكم ولا الإضرارِ بكم، أفلا تتفكَّرون فيما أنتم فيه من ضلالٍ وجهل، وتتدبَّرونَ فيمَنْ يَستحِقُّ العبادةَ حقًّا؟

- وهذه صراحةٌ أخرى ملفوفةٌ بأدبِ القرآن، مع أهلِ الكتابِ هذه المرة، للنصارَى المتشبّثين بألوهية المسيح، فيقول لهم الله سبحانهُ وتعالَى: **{مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [سورة المائدة: ٧٥].

أي: المسيحُ عيسَى بنُ مريمَ ما هو إلا عبدٌ رسولٌ وليسَ بإله، وقد سبقَهُ رسلٌ من أمثالِهِ كانوا بشراً كذلك، ولم يكونوا آلهة. وإذا كانَ أُوتيَ مُعجِزاتٍ خارقة، فإنَّ مَنْ سبقَهُ من الرسُلِ كذلكَ أُوتوا مُعجِزاتٍ خارقة، وإذا كان قد خُلِقَ من غيرِ أب، فإنَّ هناكَ مَنْ خُلِقَ من دونِ أبٍ ولا أمّ، وهوَ آدمُ عليه السَّلام، ولم يكنْ إلهاً.

وأمُّهُ مريمُ كذلكَ كسائرِ النِّساء، كانت وليَّةً طاهرة، مؤمنةً بابنِها نبيًّا ورسولاً، مُصدِّقةً لهُ فيما يُبَلِّغُ عن ربِّه، ولم تكنْ إلهة. وكانَ كلاهما يَجوعانِ ويَعيشانِ بالغِذاءِ كسائرِ الآدَميين،

ويَتخلَّصانِ من فَضلاتِهما كما يَتخلَّصُ منها البشَر. فكيفَ يجوعُ الإلهُ ويَهلِكُ إذا لم يأكل؟ وكيفَ يَتغوَّطُ الإله؟! بل هذهِ كلُّها صفاتُ آدميِّينَ كما تُرَى.

فانظرْ كيفَ نُبيِّنُ لهمُ الأدلَّةَ والحُجَج، والبراهينَ المقنِعةَ الواحدةَ تِلْوَ الأخرَى، وانظرْ بعدها كيفَ يَنصرفونَ عن الحقّ، وعلى أيِّ مذهبٍ ضالٍّ يُقيمون؟!

تشبيه الكافرين بالدوابّ

ويصرّحُ القرآنُ الكريمُ بأن الكافرينَ مثلُ الحيوانات، ولو كان بعضهم في مستوى علميٍّ (مرموق).

والنظرةُ إليهم هنا نظرةٌ عقدية، وليست من ناحيةٍ عمليةٍ أو موهبية، فقد أعطى الله تعالى مواهبَ للكافرينَ كما أعطاها للمؤمنين، ومنحهم قدرةً على العمل والتفنُّنِ فيه كما هو عند المؤمنين، بل قد يفوقونهم في هذا المجالِ إذا اكتشفوا موازين الطبيعة وما سخَّرَ الله لهم فيها والمسلمون راقدون!

يقولُ ربُّنا سبحانه: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}** (سورة الأعراف: ١٧٩).

أي: لقد خلقنا للنارِ وهيَّأنا لها كثيراً من الإنسِ والجنّ، وهمُ المصرُّونَ على الكفرِ والضَّلال، الرافضونَ للحقّ رغمَ وضوحِه، فلهم قلوبٌ لم يستعملوها لمعرفةِ الخيرِ والهُدَى، ولا ليَفقَهوا دلائلَ الإيمان. ولهم أعينٌ لم يستَعملوها لتبصُّرِ آياتِ اللهِ الكونية، ولا لمعرفةِ خالقِ الشَّواهدِ الحسّية، ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها كلامَ اللهِ الحقّ، ولا مواعظَهُ وزواجِرَهُ في كتابهِ الكريم، الذي أنزلَهُ لهدايةِ عبادِه. فأولئكَ كالحيوانات، قد عطَّلوا ما وهبَهمُ اللهُ من الحواسّ

المُدرِكة، ولم يستخدموها لوظائفها الحقيقيَّة، فصاروا كالحيواناتِ التي لا تَعقِل، بل هم أضلُّ منها، فهيَ تميِّزُ بين كثيرٍ من المضارِّ والمنافع، فلا تُقدِمُ عليها حتَّى لا تَهلِك، وهؤلاءِ الكفّارُ غفلوا عمّا يُصلِحُهم في الدُّنيا ويُخلِّصُهم من وعيدِ اللهِ وعقابِهِ في الآخرة.

ويعجبُ المرءُ من بعضِ هؤلاءِ الذينَ أمضَوا عمرهم في المختبرات والمراكزِ العلمية، البحتةِ والتطبيقية، كيف أنهم يفسّرونَ الظواهرَ الكونية وتكوينَ الأحياءِ والنباتاتِ كلها بما يصرفُ المرءَ عن خالقها جميعًا، بينما لو ذكرتَ لهم أنكَ رأيتَ أربعةَ أعواد وخشبةً دائريةً شكَّلتْ كرسيًا أو طاولةً بنفسها، لألصقوا بكَ تهمةَ الجنون! ألا يستحقونَ هم أن يوصَموا بأنهم مثلُ الدوابِّ ما داموا يرفضون إثباتَ خالقٍ للكون؟! **{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [الأنفال: ٥٥].

وسيعترفون بأنفسهم يومَ القيامةِ أنهم لو كان لهم عقلٌ لما كانوا من أهلِ النار: **{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** (الملك: ١٠).

أي: قالوا معترفينَ بذنبِهم: لو كنَّا نَسمَعُ منَ الرسُلِ ما أنزلَ اللهُ منَ الحقّ، أو كانت لنا عُقولٌ نُمَيِّزُ بها ونَنتَفعُ منها، لما كُنَّا في عِدادِ أهلِ النَّار.

فالعقلُ الذي لا يَزجرُ صاحِبَهُ عن المعاصي والجرائمِ والمنكرات، ليسَ عقلاً مستقيمًا ولا سليمًا.

صراحة الكافر

يُسألُ الكافرونَ يومَ القيامةِ وهم في جهنَّم: **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}** أي: ما الذي أدخلَكم جهنَّم؟

فيكونُ جوابُهم صريحًا للغاية، إذ لا مصلحةَ لهم في الكذبِ والمواربةِ هنا: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} (الآيات ٤٢-٤٧).

قالوا: لم نكنْ نُصلِّي للهِ الصَّلواتِ المفروضةَ علينا،
ولم نكنْ نُعطي حقوقَ الفقراءِ لهم، ولا نُطعِمُ مسكينَهم،
وكنَّا نتكلَّمُ في الباطل، وفيما لا يَعنينا، وفيما لا نعلم، مع هؤلاءِ الذين لا يزالونَ يتكلَّمونَ صباحَ مساءَ في أفكارٍ ونظريَّاتٍ وأمورٍ شتَّى، ولا يُبالونَ فيها بحقٍّ ولا باطل، فنَميلُ معهم حيثُ مالُوا، ولا نُبالي.
وكنَّا نكذِّبُ بالبعثِ بعدَ الموت، والحسابِ والجزاء،
حتَّى أتانا الموتُ الذي لا بدَّ منه.

مواقف مع أهل الكتاب

أهلُ الكتابِ إذا لم يُسلموا يصنَّفونَ على أنهم منحرفونَ ضالُّون، مشركونَ كافرون، ، وأنهم أعداءٌ لله ودينه، لأنهم يرفضونَ الحقّ، ويحاربونَ العقيدةَ الصحيحةَ التي يدعو الله الإنسانَ إليها، ولذلك فهم يُدعَونَ إلى الإسلام، ويُحارَبونَ إذا أبَوا، يقولُ الله تعالَى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

أي: قاتلوا أيُّها المؤمنونَ أهلَ الكتابِ المنحرفينَ عن دينِ اللهِ -وكانَ ذلك تمهيداً لغزوِ الرُّومِ وعمّالِهم من النَّصارَى العربِ- الذين لا يؤمنونَ باللهِ ولا بيومِ القِيامةِ إيمانًا صَحيحًا، فقد قالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله، وقالت النصارَى المسيحُ ابنُ الله، وهذا لا يكونُ إيماناً بالله، بل هو آراءٌ فاسِدةٌ وأهواءٌ زائغة.

ولا يحرّمونَ ما حرَّم اللهُ ورسولهُ كما أوحَى اللهُ به، فأحلُّوا الرِّبا، وأكلوا أموالَ الناسِ بالباطل، وأحلُّوا لحمَ الخنزيرِ، والخَمر...

ولا يتَّبعون الدِّينَ الثابتَ الذي أمرَ اللهُ به، وهو الإسلام، فهم لا يتعاملونَ بشريعةِ الله، بل يتلقَّونَ الأحكامَ من أحبارِهم ورهبانِهم.

فقاتلوهم، فهم حربٌ على دينِ اللهِ الصَّحيح. وهم ظالمونَ مُعتَدونَ حَقيقةً، فهم يَعتَدونَ على أُلوهيَّةِ اللهِ الخالقِ العظيم، وهم يَعتدونَ على عبادِ اللهِ بتعبيدِهم لغيرِ الله. والمعتَدي يُقاوَمُ ويُحارَب.

فقاتِلوهمْ حتَّى يُعلِنوا استِسلامَهم ويدفعوا الجزيةَ المستَحقَّةَ عليهم عن انقيادٍ وطاعةٍ وهم أذلَّةٌ مَقهورون، ومَن أسلمَ منهم عن اختيارٍ فلا تُؤخَذُ منهُ الجزية، بل صارَ كأيِّ مُسلِم، لهُ ما لَه، وعليهِ ما عليه. ثمَّ لا يُكْرَهُ أحدٌ على الإسلام، فمن شاءَ آمن، ومَن شاءَ بقيَ على دينهِ ودفعَ الجِزية، وهوَ مبلغٌ قليلٌ يُؤخَذُ منهم مقابلَ حمايتِهم.

وأمرُ الجهادِ مَوكولٌ إلى الإمامِ واجتهادِه، لأنَّهُ أعرَفُ بحالِ النَّاس، وبحالِ العدوّ ونِكايَتِهم.

المنافقون طبقة خاصة

يصرّحُ القرآنُ الكريمُ بأن المنافقينَ طبقةٌ خاصةٌ تعيشُ في المجتمعِ الإسلامي، لا ينتمونَ إلى المسلمين، ولا إلى الكافرين **{مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء}** [سورة النساء: ١٤٣].

إنهم متحَيِّرونَ ومتأرجِحونَ بين الكُفرِ والإيمان، ومترَدِّدونَ بين الكافرينَ والمؤمنين، فلا هم منسوبونَ إلى المؤمنينَ حقيقةً لإضمارِهمُ الكُفر، ولا هم يُظهرونَ الكُفرَ ليُقالَ إنَّهم كفّار، بل ظاهِرُهم مع المؤمنينَ وباطنُهم مع الكافِرين.

ولا يُقبَلُ إيمانهم إنْ كان فيهم إيمان، كما لا يُقبَلُ إيمانُ كلِّ مَن آمنَ ببعضِ الإسلامِ وكفرَ ببعضه. يقولُ سبحانهُ وتعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [سورة النساء: ١٥٠- ١٥١]

إنَّ الذين تَقودُهمْ مذاهبُهم وآراؤهم إلى الكفرِ باللهِ ورسلِه، وهم يقولونَ إنَّهم مؤمنون، ويريدونَ أن يفرّقوا في هذا الإيمان، فيؤمنونَ باللهِ ويكفرونَ برسُلِه، ويقولون: نؤمنُ ببعضِ الأنبياءِ ونكفرُ ببعضِهمُ الآخَر، ويُريدونَ أن يتَّخِذوا بين الإيمانِ والكفرِ مسلكاً يَسلُكونَه، مع أنَّ الإيمانَ لا يَختلِف، والحقَّ لا يَتعدَّد، فهؤلاءِ كفرُهم مُحقَّق، ولا عبرةَ بما ادَّعوا من إيمانٍ وسلكوا مِنْ مَسلك، وقد أعتدْنا لهؤلاءِ الكافرينَ وأمثالِهم عذاباً مُذِلاًّ، جزاءَ كفرِهمُ الذي ظنُّوا به عِزَّة.

الصراحة مع الأنبياء

أنبياءُ الله المصطَفون صلواتُ الله وسلامهُ عليهم هم أفضلُ الخلقِ وأكرمهم، وأعلمهم، وآدبهم، ومع ذلك فإن الله تعالَى عاتبهم في مواضعَ من كتابهِ الكريم، ليعلِّمَ البشرَ أن الحقَّ فوقَ كلِّ شيء، فوقَ الخلقِ وفوقَ الأنبياءِ أجمعين، ويُصرَّحُ بقولِ الحقّ لهم كلِّهم.

- مثالهُ مع آدمَ عليه السلام: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (طه: ١٢١).

أي: عصَى آدمُ ربَّهُ بأكلِ الشَّجرة، فأخطأ الطريقَ وضلَّ عن مطلوبه عندما اغترَّ بقولِ العَدوِّ، وطلبَ الخلودَ بأكلِ ما نُهِيَ عنه، فخابَ ولم يحقِّقْ هدفَه.

- ومع يونسَ عليه السلام: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} (القلم: ٤٨).

أي: فاصبِرْ أيُّها الرسولُ على أذَى قَومِكَ وتكذيبِهم لك، ولاتكنْ كالنبيّ يونُسَ في الضَّجرِ والعجلة، الذي وعدَ قومَهُ بالعذاب، ثمَّ هجرَهم وهو غاضِبٌ عليهم، منتظرًا أن يَحِلَّ بهم ما وعدهمُ اللهُ به، قبلَ أن يأذنَ اللهُ لهُ بالخروج، ولم يَصبرِ الصَّبرَ اللَّازم، فركِبَ البحر، وابتلعَهُ الحوت، ودَعا ربَّهُ —وهو مملوءٌ غمًّا– أن يغفرَ لهُ ويتوبَ عَليه. **{لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ}** (الآية: ٤٩): ولو لم تُدْرِكْهُ رحمةٌ من ربِّهِ ولم يستجبْ دعاءَه، لطُرِحَ بأرضٍ خالية، وهوَ يُلامُ على ذنبه.

- أما إبراهيمُ خليلُ الله عليه الصلاةُ والسلام، فقد جاءتِ الآياتُ صريحةً عندما طلبَ أن يجعلَ الله من ذرِّيتهِ أئمةً: {**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**} [البقرة: ١٢٤].

أي: واذكرْ أيُّها النبيُّ شأنَ هذا النبيّ العظيم، الذي اختبرَهُ اللهُ بأوامرَ وشرائعَ ونَواهٍ، فقامَ بها كلِّها، فجزاهُ اللهُ خيراً على ما فعل، وقالَ له: سأجعلُكَ قُدوةً وإماماً للناسِ يقتدونَ بكَ في التوحيد، ويَحذونَ حَذْوَك، فسألَ عليهِ السلامُ أن تكونَ هذهِ الإمامةُ في ذُرِّيَّتِهِ أيضاً، فأُجيب: سيكونُ منهم مَنْ لا يَفِي بالأوامرِ والتكاليف، بل يظلِمُ ويَفْسُق، ولن يكونَ عهدُ الإمامةِ لأمثالِ هؤلاء، فشأنُها عظيم، بل هوَ لمن يختارُهمُ اللهُ من أهلِ الإيمانِ والصَّلاح.

- ومن عتاب الله تعالَى لنبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم: لمَّا جاءَهُ الصَّحابيُّ الأعمَى ابنُ أُمِّ مكتوم رضيَ الله عنه، فجعلَ يقولُ له: يا رسولَ اللهِ أرشدني، وعندَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رجلٌ من عُظماءِ المشرِكين، فجعلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُعرِضُ عنهُ ويُقبِلُ على الآخَر، وقد طَمِعَ في إسلامِه، فعاتبهُ ربُّه بقوله: **{عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى}** ... (الآيات ١–٧).

- ومنها: {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} (سورة التحريم: ١)

شَرِبَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم عسلاً عندَ إحدَى زوجاتِه، فاتَّفقتْ عائشةُ وحفصةُ رَضيَ اللّهُ عنهما على أنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا دخلَ على أيَّتِهِنَّ فلتَقُلْ له: إنِّي أجدُ منكَ ريحَ مَغافير، وهوَ شَبيهٌ بالصَّمغ، فيهِ حلاوةٌ ولهُ رائحَةٌ كريهة، فقالتْ لهُ إحداهُنَّ ذلك، فقالَ صلى الله عليه وسلم: "**لا، بلْ شَرِبتُ عسَلاً عندَ زَينبَ بنتِ جَحش، ولنْ أعُود**". فنزلَت. ولفظُ قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من صحيحِ البخاريّ.

أيُّها النبيُّ الكريم، لماذا تُحرِّمُ على نفسِكَ طعامًا أحلَّهُ اللهُ لك، أتُريدُ بذلكَ أنْ تُرضيَ بعضَ زوجاتِك؟ لقد غفرَ اللهُ لك، واللهُ كثيرُ المغفرة، واسعُ الرَّحمة.

- ومنها في قصةِ زواجهِ صلى الله عليه وسلم من ابنةِ عمَّته زينبَ بنتِ جحش، التي كانت أولاً تحتَ (حِبِّهِ) زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان قد تبنَّاهُ قبلَ النبوَّة:

{**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**} (سورة الأحزاب: ٣٧).

أي: واذكرْ قولكَ لمولاكَ زيدٍ، الذي أنعمَ اللهُ عليهِ بالإسلام، وأنعمتَ عليهِ بالعتقِ مِن الرِّقِّ ومزيدِ القُرب: أَبْقِ على زوجتِكَ زينب، واتَّقِ اللهَ في أمرِها، ولا تُطلِّقْها. وكان قد اشتدَّ لسانُها عليه، رضيَ اللهُ عنهما. وتُسِرُّ في نَفسِكَ أيُّها الرَّسولُ ما اللهُ مُظهِرُه، وهو أنَّ زيدًا سيُطَلِّقُها وتتزوَّجُها بعدُ، وتخافُ من اعتراضِ النَّاسِ ولومِهم، لكونِكَ

تزوَّجتَ زوجةَ مَنْ تبنَّيتَهُ سابقًا بعد طلاقِها منه، واللهُ أحقُّ وأولَى أن تخافَهُ في كلِّ أمر.

فلمَّا قضَى زيدٌ حاجتَهُ منها وطلَّقَها، جعلناها زَوجةً لك، حتَّى لا يَبقَى حرجٌ على المؤمنينَ في الزَّواجِ من زوجاتِ أدعيائهمُ الذين تبنَّوهم من قبل، بعد طلاقِهِنَّ وانقضاءِ عِدَّتِهِنّ، وكان أمرُ اللهِ وحكمُهُ نافِذًا وحاصِلاً لا محالة.

وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قد تبنَّى زيدَ بنَ حارثةَ قبلَ النبوَّة، فكانَ يُقالُ لهُ "زيدُ بنُ محمَّد" فنزلَ الوحيُ بمنعِ التبنِّي، كما مرَّ في الآيتينِ الرَّابعة والخامسةِ من هذهِ السُّورَة.

- ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم أكرمُ خلقِ الله على ربِّه، وهو الذي أرسلهُ رحمةً للعالمين، وجعلهُ على خُلقٍ عظيم... ومع ذلكَ فإن ربَّهُ حذَّرَهُ في آياتٍ كثيرة، وذكرَ بعضَ ما كان يحدِّثُ به نفسه.. وإن كان المفسِّرون يرونَ في ذلك تحذيرًا لأمتهِ بالأولى.

مثاله: **{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}** [سورة البقرة: ١٢٠].

أي: إذا تابعتَهُم في آرائهمُ الزائفة، ومقولاتِهِمُ الفاسدة، وطرائقِهُمُ الملتوية، بعدَ ما نزلَ عليكَ الوحيُ، وعلمتَ أنَّ دينكَ هوَ الصَّحيح، فقد مِلْتَ عن الهُدَى، ولن يَكونَ اللهُ والياً أمرَك، ولا ناصرَكَ ومؤيِّدَك، ولن يدفعَ عنكَ عقابَه.

وهذا من بابِ التهييجِ والإلهاب، ولا يُتَوَهَّمُ إمكانُ اتِّباعهِ صلى الله عليه وسلم لهم، ولكنَّهُ تنبيهٌ لأمَّتهِ على الحذرِ من أهلِ الكتاب، الذين لا يُفيدهم أيُّ تنازلٍ بالحوارِ وغيرِه، ولن يَرْضَوا إلا بالانضواءِ تحتَ مظلَّةِ دينِهم.

ومثلهُ قولهُ تعالَى: **{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}** (سورة البقرة: ١٤٥).

أي: لو أنَّكَ اتَّبعتَ مرادَهم بعدَ الذي وجَّهكَ اللهُ إليهِ ورضيَهُ لكَ من القِبلة، لكنتَ مُؤثِراً الباطلَ على الحقّ.

وهوَ –أيضًا– على الفَرَضِ والتقدير، وتحذيرٌ للأمَّةِ من أهواءِ أهلِ الكتابِ وأضاليلِهم.

- ومن التنبيهِ والتذكيرِ الواضحِ لرسولنا الكريمِ صلى الله عليه وسلم: **{وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}** [سورة الأنعام: ٣٥]

تفسيرها: وإذا شقَّ عليكَ إعراضُ المشركينَ وعَظُمَ عليكَ مخالفتُهم بما جئتَ بهِ من القرآن، فإنْ قَدَرتَ وتهيَّأَ لكَ أن تطلُبَ سِرْباً في الأرض، أو دَرَجاً ومَرقاةً في السَّماءِ فتَصعدَ فيه، فتأتيَهم منهما بآيةٍ أفضلَ ممّا آتيناهم بهِ ليؤمنوا، فافعل. –وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حريصاً أن يتابِعَهُ جميعُ الناس– ولو شاءَ اللهُ أن يجمعهم على الهُدَى والإيمانِ لفَعل، ولكنَّهم لا يحبُّونَ ذلك، ولا يُريدونَ أن يسمعوا كلامَك، ولا أن يتوجَّهوا إلى الخير، فلا تكنْ بهذا الحرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، ولا تجزعْ في مواطنِ الصَّبر، ولا تكوننَّ من الجاهلينَ بذلك.

ومن ذلك أيضًا قولهُ تعالَى: **{وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً}** (الإسراء: ٧٣–٧٥).

أي: كادَ المشركونَ أن يوقِعُوكَ في الفتنة، ويَصرِفوكَ عمّا أوحيناهُ إليكَ من الأحكام، لِما يراجعونكَ فيهِ ويقترحونَه، ويطلبونَ منكَ أن تَختلقَ على اللهِ غيرَ ما أوحاهُ إليك، ولو وافقتَهم على ذلكَ لاتَّخذوكَ صديقًا ووليًّا لهم.

ولو لم نُثبِّتْكَ على الحقِّ لكِدْتَ أن تَميلَ إليهم شيئًا قليلًا، لشدَّةِ كيدِهم واحتيالِهم.
ولو أنَّكَ مِلتَ إليهم ولو شَيئًا قَليلًا، لأذقناكَ عذابًا مُضاعَفًا في الحياةِ الدُّنيا، وعذابًا مُضاعفًا في الحياةِ الآخِرَة، ثمَّ لا تجدُ مُعينًا يمنعُكَ من عذابِنا.
وقد عصمَ اللهُ رسولَهُ الكريمَ من فِتنَةِ المشركينَ والركونِ إليهم. وهذا درسٌ كبيرٌ للمسلِمينَ بعدمِ التنازلِ لهم عن شيءٍ من أحكامِ دينِهم للكافرين، فهو نظامٌ متكامِلٌ لا يَصلُحُ التَّفريطُ بجزءٍ منه. وفرقٌ بين العزَّةِ بالإسلامِ والفخرِ به، وبين التَّنازلِ عنهُ أو عن بعضِه.

الصراحة مع عباد الله المسلمين

والمسلمونَ يحتاجونَ إلى تذكيرٍ وتنبيه، وتوجيهٍ وتسديد، فإنه يعتريهم من الضعفِ والخطأ ما يعتري غيرهم، ولكن الفرقَ أنهم إذا ذُكِّروا تذكَّروا وآبوا؛ لإيمانهم.

- مما يعتري النفسَ من ضعفٍ إيثارُ الأهلِ والوقوفُ إلى جانبهم ولو كانوا مائلينَ عن الحقّ؛ ولذلك جاء التحذير: **{لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ...}** (سورة المجادلة: ٢٢)

أي: لا تجدُ أحدًا من المؤمنينَ باللهِ واليومِ الآخِرِ –بصدقٍ وإخلاصٍ– يُوالُونَ ويُصادقونَ أعداءَ اللهِ ورسولِه، ولو كانَ هؤلاءِ الأعداءُ آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو قبيلتَهم وعشيرتَهم، أو أيًّا من أقاربِهم، فالعقيدةُ أهمُّ من النَّسب، ومَنْ وَالاهم فهو معهم يومَ القيامة. والذينَ لا يُوادُّونَهم ولو كانوا أقرباءَهم، فأولئكَ الذين أثبتَ اللهُ في قلوبِهمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ لهم، فهم مُوقِنونَ مُخلِصون، وقوَّاهم بروحٍ من عنده، لتحصلَ لهمُ الطُّمأنينةُ والثَّباتُ على الإيمانِ والعملِ الصَّالح، ويُدخِلُهمُ اللهُ جنَّاتٍ عالياتٍ واسعات...

والحقُّ في قولِ المؤمنينَ للكافرين: **{إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}** (سورة الممتحنة: ٤).

ويقولُ ربُّنا جلَّ ذكرهُ في آيةٍ جامعةٍ حولَ هذا الموضوع: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}** [النساء: ١٣٥]

أي: كونُوا عادلينَ في أمورِكمْ دائماً، لا يَصرِفْكم عن العدلِ صارف، وابتَغُوا بذلكَ وجهَ الله، لا غَرَضاً دنيويًّا ومصلحةً شخصيَّة، سواءٌ كان قيامُكم بالعدلِ أو قولُكمُ الحقَّ لصالحِكم أو لغيرِ صالحِكم، فإنْ كانَ الأوَّلُ فذاك، وإنْ كانَ الثاني فقد جعلَ اللهُ لكم مخرَجاً وعوَّضكم خيراً.

وحتَّى لو كانتِ الشهادةُ على الوالدَينِ والقرابة، فإنَّ الحقَّ حقّ، يحكمُ على كلِّ أحد، ويُقَدَّمُ على كلِّ شيء.

ولو كان الذي عليه الحقُّ غنيًّا أو فقيراً، فإنَّ القولَ العدلَ والشَّهادةَ المنصفةَ لا تُراعِي غنيًّاً لماله، ولا تُشفِقُ على فقيرٍ لحالِه، واللهُ يتولَّى شأنَهما وينظرُ في حالِهما بعد ذلك، فكِلوا أمرَهما إلى اللهِ تعالَى.

ولا يَحملنَّكم غَرَضٌ ما في نُفوسِكم إلى الميلانِ نحوَ الباطلِ والعُدولِ عن الحقّ، فإذا حرَّفتمُ الشَّهادة، وأبطَلتمُ الحقَّ في أمورِكم، وتركتُم إقامةَ العدلِ، فإنَّ اللهَ عليمٌ بعملِكمُ الآثمِ هذا، مُطَّلعٌ على ما غيَّرتُموهُ وأبطَلتُموه، وسوفَ يُجازيكم على ذلكَ سوءَ الجزاء.

- ومع أن الله حذَّرَ المسلمينَ من الغيبة، ووصفَ المتلبِّسَ بها بأبشعِ صورة، وهي أكلُ لحمِ الميت، إلا أنها منتشرةٌ بكثرةٍ في المجتمع، وطاعةُ الله واجبةٌ قبلَ كلِّ شيء.

{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (سورة الحجرات: ١٢).

أي: ولا يَذكُرْ بعضُكم بعضًا بما يَكرَه، فهذا من الكبائر، وهوَ يؤدِّي إلى التَّباغضِ والشِّقاقِ في المجتمعِ المؤمن. أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ وهو ميِّت؟ فإنَّكم تكرهونَ ذلكَ وتَعافُونَهُ وتَبغُضونَه، فابغُضوا غِيبَتَهُ كذلك، فإنَّ ذِكْرَ المرءِ أخاهُ الغائبَ عنهُ بسوء، بمنزلةِ أكلِ لحمِهِ وهو ميِّتٌ لا يُحِسُّ به.

واخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، وتُوبوا إليه، فإنَّهُ كثيرُ قبولِ التَّوبة، رحيمٌ بالمؤمنينَ منهم.

- وكذلك التفرقةُ العنصريةُ موجودةٌ ومنتشرةٌ في البلادِ الإسلامية، فترى المسلمَ في غيرِ بلدِهِ (أجنبيًا) عن بقيةِ إخوانِهِ المسلمين، ويتميَّزَ الشخصُ في كلِّ بلدٍ عن الآخرينَ بـ (مواطنيَّتِهِ) وليسَ بدينِهِ وتقواه، ولا مساواةَ بينهما ألبتة! والقرآنُ الكريمُ صريحٌ في هذا الأمر: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** (سورة الحجرات: ١٠)، **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** (سورة الحجرات: ١٣).

أي: إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ في الدِّين، فهم ينتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ في العقيدة، وهيَ أهمُّ شيءٍ في الحياة.

والأكرمُ عندَ اللهِ والأرفعُ منزلةً لديهِ هو الأتقَى، وليسَ الأرفعَ نسَبًا، فإذا تفاخرتُم فتَفاخروا بالتَّقوَى، والنَّسبُ ليسَ مُكتَسبًا بعمَل، فلا يكونَ مَدارًا للثَّوابِ عندَ الله. إنَّ اللهَ عليمٌ بأقوالِكم في مَجالسِكم، خبيرٌ بنيَّاتِكم وأحوالِكم.

- وعاتبَ الله المسلمينَ لمّا تركوا الخُطبةَ واتجهوا نحو قافلةٍ تجارية، والخطيبُ هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** (سورة الجمعة: ١١).

قال جابرٌ رضيَ اللهُ عنه: أقبلتْ عِيرٌ –أي قافلةٌ محمَّلَةٌ بالمتاعِ– يومَ الجمعة، ونحن معَ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فثارَ النَّاسُ إلاّ اثنَي عشرَ رَجُلاً، فأنزلَ الله: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا...} رواهُ البُخاريُّ في صحيحه.

وإذا رأوا تجارةً قادمة، أو تصفيقًا وطَبلاً، أو دُفًّا يُضرَبُ به لاستقبالِ القافلة، تفرَّقوا من عندكَ وقامُوا إلى التِّجارة، وتركوكَ قائمًا تخطبُ على المنبر، قلْ لهم أيُّها الرسُول: إنَّ ما أعدَّهُ اللهُ من الأجرِ والثَّوابِ في الدَّارِ الآخرة، خيرٌ من القيامِ إلى اللَّهوِ وطلبِ البيعِ والشِّراءِ في هذا الوقت، فإنَّ نفعَ ما عند اللهِ مُحقَّق، ونفعَ اللَّهوِ في الدُّنيا ليسَ بمُحقَّق، بل مُتَوهَّم، ونفعَ التِّجارةِ ليسَ بمخلَّد. واللهُ خيرُ من رزقَ وأثاب، وهو مُوجِدُ الأموالِ والأرزاق، فاسعَوا إليه، واطلبوا منه الرِّزقَ في وقتهِ كما أمركم.

ويعني هذا أن السلبياتِ في المجتمعِ تُذكَرُ ولا تُكتم، ولكنْ بحكمة، ومع معالجتها والتحذيرِ منها، حتى لا تستشريَ الأمراضُ النفسيةُ والاجتماعيةُ في المجتمعِ الإسلامي.

تصريح بأمور واضحة

وفي القرآنِ الكريمِ تصريحٌ بحقائقَ وبدائهَ يغفلُ عنها كثيرٌ من الناس، مع أنها واضحةٌ، مثاله: **{مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}** (الأحزاب: ٤).

أي: ما جعلَ اللهُ للشَّخصِ الواحدِ قلبَينِ في جوفِه، وكما لا يكونُ هذا، كذلكَ لا تصيرُ زوجةُ الشَّخصِ أُمًّا له إذا قال لها: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، كما كانَ الأمرُ في الجاهليَّة. وكذلكَ لا يصيرُ أدعياؤكم أبناءً لكم إذا تبنَّيتُموهم، كما كان الأمرُ في الجاهليَّةِ أيضًا. فهذا الظِّهارُ والتبنِّي قولٌ بأفواهكم من غيرِ أنْ يكونَ له أساسٌ من الصِّدقِ والحقيقَة، فإنَّ زوجاتِكم أُمَّهاتٌ لأولادِكم، وأدعياؤكم أولادٌ لغَيرِكم. واللهُ يُثْبِتُ الحقَّ كما هو، ويُرشِدُكمْ إلى طريقِ الحقِّ فاتَّبِعوه.

والظِّهارُ محرَّم، والتبنِّي كذلك، ولكنِ لا تكادُ تخلو دولةٌ منها!

منافع من حرام!

قد يحرجُ المسلمُ أن يذكرَ منافعَ لأشياءَ حرَّمها الإسلام، بقصدِ أن الإسلامَ لا يحرِّمُ إلا ضارًّا. والحقُّ أنه قد يوجدُ في بعضها نفع، ولكن ما نسبتهُ إلى الضررِ الذي فيه؟ قليلٌ جدًّا قد لا يتجاوزُ الواحدَ والخمسةَ والعشرة بالمئة! وحتى هذه النسبةَ القليلة لا تنفعُ المسلم، لأنها جاءتْ من شيءٍ محرَّم.

مثالهُ قولهُ تعالَى في مرحلةٍ من مراحلِ تحريمِ الخمرِ والميسر: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}** (سورة البقرة:٢١٩).

أي: يسألونكَ عن حُكمِ الخمرِ والقمار، فقل: في تعاطيهما ذنبٌ كبيرٌ ومَفْسَدةٌ كبيرة، مع شيءٍ من المنافع، ففيهما ذهابُ العقلِ والمالِ والدِّين، والمخاصمةُ والمشاجرةُ والمعاداة، وفيهما منافعُ جسميَّةٌ ونفسيَّةٌ مؤقَّتة، كالهضمِ والطرب، وربَّما ربحٍ في المقامرة، لكنَّ إثمَهما والخسارةَ فيهما أكثرُ بكثيرٍ من منافعِهما.

وكانَ هذا أوَّلَ خَطوةٍ في تحريمِهما، بأسلوبٍ تربويٍّ ربانيٍّ حكيم، ثمَّ نزلَ التحريمُ الشاملُ في قولهِ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة المائدة: ٩٠].

الجهاد

والجهادُ له شأنٌ كبيرٌ في دينِ الإسلام، وورَدَ في فضلهِ وفضلِ الاستشهادِ في سبيلِ الله أحاديثُ جليلة، ولكن مع ذلك صرَّحَ القرآنُ الكريمُ أن الناسَ لا يحبُّونَ القتال، وقد فُرِضَ على المسلمينَ رغمَ كرههم له!

قال الله جلَّ ذكره: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** (سورة البقرة:٢١٦)

أي: فرضَ اللهُ عليكمُ الجهادَ وهو شاقٌّ عليكم، تَكرهُهُ النفوسُ وتَستثقلُه، ولكنْ ربَّما كَرِهتُم شيئاً وفيه خيرٌ لكم، فإنَّ نتيجتَهُ –إنْ شاءَ اللهُ– النصرُ على الأعداءِ وفتحُ بلادِ الكفر، ورفعُ

رايةِ الإسلام، أو الشهادةُ التي يَدخلُ بها المرءُ الجنَّة. وعسَى أن تحبُّوا شَيئاً وفيهِ شرٌّ لكم، فإنَّ القُعودَ عن الجهادِ والركونَ إلى الكسلِ والرفاهيةِ يُعطي نتيجةً عَكسيَّة، فيَستولي الأعداءُ على البلاد، وينهزمُ المسلمون، ويتحكَّمُ الكفّارُ في شؤونِهم.

فالجهادُ سببٌ لحصولِ النصرِ والأمن.

واللهُ أعلمُ منكم بمآلِ الأمور، وأخبَرُ بما فيه صلاحُكم في دنياكم وآخرتِكم، فالتزموا جانبَ الجهادِ والقوَّة.

وقد قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم: "**مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ بهِ نفسَهُ، ماتَ على شُعْبةٍ مِنْ نِفاق**".

- وفي القرآنِ الكريمِ تصريحٌ باللومِ لمن آثرَ السلمَ والراحةَ على الجهاد: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}** [سورة النساء:٧٧]

ألا تنظرُ أيُّها النبيُّ إلى بعضِ المسلمينَ الذينَ طُلِبُ منهم أنْ يَكفُّوا عن قتالِ المشركينَ ويَعفوا عنهم عندما كانوا ضعفاءَ بمكَّة، وقيلَ لهم وقتَها: قُومُوا بواجبِكم في الطَّاعةِ وجهادِ النَّفس، فأقيموا الصَّلاةَ بخُشوع، وأعطُوا الزكاةَ لتواسُوا بها الفقراءَ والمساكين، لكنَّهم كانوا يطلبونَ منكَ أن تأذنَ لهم بقتالِ المشركين؛ لِما يَلقَونَ منهم من الأذَى.

ولما قَوُوا وفُرِضَ عليهمُ الجِهاد، وطُلِبَ منهم مقاتلةُ الكفّار، إذا فريقٌ منهم يَخشَونَهم كما يَخشَونَ من اللهِ أن يُنْزِلَ بهم بأسه، أو أكثَر، وذلكَ لِما أصابَهم من خوفٍ وجَزَع –والمسلمونَ مُتفاوِتونَ في قوَّةِ الإيمان، وفي لقاءِ الأعداء– وقالَ أولئكَ الخائفون: ربَّنا لمَ فرضتَ علينا القتالَ

الآن، فلو أخَّرتَ فَرْضَهُ إلى وقتٍ آخرَ لكانَ أفضل، ففيهِ سفكٌ للدِّماء، ويُتمٌ للأبناء، وتأيُّمٌ للنِّساء...

قلْ لهم أيُّها النبيّ: إنَّ جميعَ ما يُستَمتَعُ بهِ في الدُّنيا هوَ قليلٌ جدّاً بالنسبةِ إلى الثَّوابِ المتَرتِّبِ على الأعمالِ الطيِّبةِ في الآخرة، ومنها الجهادُ في سبيلِ الله، فالآخرةُ لمن جاهدَ واتَّقى خيرٌ من الدُّنيا ومتاعِها القليل.

- وفي الآيات (٥-٨) من سورةِ الأنفالِ صورةٌ أخرَى من قلقِ فئةٍ من المسلمينَ تجاهَ مقاتلةِ الكفار: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}

تفسيرها: وكما كَرِهَ بعضُ المؤمنينَ تسويةَ الغَنائم، فقد كَرِهَ فريقٌ منهم أيضاً إخراجَكَ من بيتِكَ بالمدينةِ بوحيٍ وتدبيرٍ من عندِ اللهِ لمقاتلةِ المشركين.

وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد خرجَ مع ثلاثمئةٍ وبضعةَ عشرَ رجلاً من أصحابهِ يطلبونَ قافلةً كبيرةً لأبي سفيان، مُحَمَّلةً بأطعمةٍ وأموالٍ جزيلةٍ لقريش، قادمةً من الشَّام، فسمعَ أبو سفيانَ بخروجِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فبعثَ إلى مكَّةَ يستنجدُ بمشركي قريش، فخرجَ منهم نحوُ ألفِ مُحارِب. وقد نَجتِ القافلة، ثمَّ شاورَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ في الحرب، فوافَقوه، وكَرِهَ بعضُهم ذلك.

ويجادلُكَ هؤلاءِ الكارِهونَ في القتالِ بعدما تبيَّنَ لهم أنَّكَ ستُنفِّذُ أمرَ اللهِ وتُقاتل، ويقولون: ما كان خروجُنا إلاّ للقافلة، ولم نستعدَّ للحرب. ولشدَّةِ كراهيتِهم لذلك، كانت حالُهم كأنَّما يُساقُونَ إلى الموتِ وهم يشاهدونَ علاماتِه!

واذكُروا مع ما بكم من الجزعِ وقلَّةِ العدد، أنْ وعدكمُ اللهُ الفوزَ بإحدَى الغنيمتَين: إمّا قافلةَ أبي سفيان، وإمّا النصرَ على جيشِ المشركين. وأنتم تحبُّونَ التي لا قوَّةَ فيها ولا قتال، وهي القافلة. بينما يريدُ اللهُ أن يُظهِرَ دينَه، ويَرفعَ رايةَ الحقّ، ويُهلِكَ الكافِرين، حتىَّ لا يُبقي منهم أحداً. ولذلكَ أمركم بقتالِهم.

ليُثبِتَ الإسلامَ بذلكَ ويجعلَهُ غالِباً على الأديانِ، ويَمحَقَ الكُفر، ولو كَرِهَ المشركون.

وفي غزوةِ الأحزاب: **{إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}** (سورة الأحزاب: ١٠).

واذكروا كيفَ جاءكم المقاتلةُ المشركونَ من أعلَى الوادي من قِبَلِ المشرِق، ومن بطنِ الوادي من قِبَلِ المغرِب، وقد مالَتِ العيونُ وشخَصَتْ من الحيرةِ والرُّعب، وخافتِ القلوبُ وفَزِعتْ فزعًا عظيمًا، وتظنُّونَ باللهِ الظُّنونَ المختلفة، فمن مخلِصٍ ثابتِ الإيمانِ يؤمنُ بنصرِ الله، ومن خائفٍ لا يتحمَّلُ ما يرَى، وظنَّ المنافقونَ أن الأحزابَ سيقضونَ على المسلمين.

ويُقالُ هنا: إن أحوالَ المسلمينَ تُذكَرُ ولو كان فيها سلبيات، ويعني أن المجتمعَ الإسلاميَّ يُذكرُ بإيجابياتِه وسلبياته، ولكنْ بحكمة، حتى لا يظنَّ أو ينغرسَ في نفوسِ المسلمينَ وغيرِهم أن المجتمعَ الإسلاميَّ مثاليٌّ ملائكيّ، بل تجدُ فيه الصالحَ والطالح، ولكنه يكونُ مجتمعًا متكاملاً ورائعًا آمنًا ومتكافلاً كلما كان قريبًا من دينِ الله ومطبِّقًا للأحكامَ الشرعية. وهذا يعني عدمَ توقُّفِ جهودِ العلماءِ والدعاةِ والقضاةِ والمصلحين في الدعوةِ والعملِ الإسلامي ومعالجةِ القضايا التي تهمُّ المسلمينَ أجمعين. فالحذرُ مطلوب، وإعدادُ القوةِ واجب، ومحاربةُ الفسادِ ومعاقبةُ المجرمينَ مستمرَّة...

كلٌّ يتمنَّى ما يريد، ويتخيَّلُ مكانهُ في الجنةِ كما يشاء، ويتصوَّرُ نفسَهُ مع الحورِ العين، على الأرائك وفي ثيابٍ جميلةٍ من حرير... ولكنَّ الحقَّ أن الأمرَ ليسَ بالتمنّي، إنما هو بالإيمانِ الصحيحِ والعملِ الصالحِ والإخلاصِ في ذلك كلّه. وهذه صراحةُ القرآنِ مع المسلمينَ وأهلِ الكتابِ أجمعين. يقولُ الله تعالَى: **{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}** [سورة النساء: ١٢٣].

في حديثٍ مُرسَلٍ بإسنادٍ صحيح، أنَّهُ احتجَّ المسلمونَ وأهلُ الكتاب، فقالَ المسلمون: نحنُ أهدَى منكم، وقالَ أهلُ الكتاب: نحنُ أهدَى منكم. فأنزلَ اللهُ الآية.

ليسَ الأمرُ كما تمنَّيتُم أيُّها المسلِمون، ولا كما تصوَّرتُمْ يا أهلَ الكتاب، فإنَّ كلَّ من يعملُ ذَنْباً سوفَ يُحاسَبُ عليه، إنْ عاجلاً أو آجلاً، فالعِبرةُ بالطَّاعةِ والعَمل، لا بالتحلّي والتمَنّي. وإنَّ الذي يعملُ السُّوءَ متجاوزاً بذلكَ الحدودَ التي وضعها الله، فلن يجدَ مَنْ يدافعُ عنه، أو يُنجيهِ من عذابِهِ إذا حلَّ به.

والمقصودُ ما كان كلُّ دينٍ في وقتِه، أمّا بعدَ بعثةِ رسولِ اللهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فلا دينَ سوَى الإسلام.

وفي تتمَّةِ الحديثِ السابقِ مِنْ سببِ النزول، أنَّ المسلمينَ غَلبوا أهلَ الكتابِ في حُجَّتهم، بالآيةِ التالية: **{وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً}**.

والعمومُ في الآيةِ السابقةِ مخصَّصٌ بالتوبة، وبِمَنْ يتفضَّلُ اللهُ بالعفوِ عنه.

آدابٌ اجتماعية

من الآدابِ الاجتماعيةُ التي سنَّها الإسلامُ وحسمَها لصالحِ الحقّ، وقد يتحرَّجُ منها المسلمُ ومازال، موضوعُ أدبٍ في الاستئذان، كما في قوله تعالى: **{فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** (سورة النور: ٢٨).

والمقصودُ حالةُ الرجوع، فإذا طلبَ منكَ صاحبُ الدارِ عدمَ الدخولِ فارجعْ طيبةً نفسُك!.

وتفسيرها: إذا طُلِبَ منكمُ الرُّجوعُ فارجِعوا ولا تُلِحُّوا في الدُّخول، فإنَّهُ أطهَرُ لقلوبكم وأنفَعُ لدينِكم ودنياكُم. واللهُ عليمٌ بما تأتونَ وما تتركونَ ممّا كلَّفكم به، ومنه الدُّخولُ بإذنٍ أو بغيرِ إذن.

والله لا يستحيي من تبيينِ الحقّ، فهو الربُّ الذي يأمرُ بالحقّ، وما فيه صالحُ العباد، ويربّي المسلمينَ على آدابِ دينه.

يقولُ سبحانهُ وتعالَى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}** (سورة الأحزاب: ٥٣).

أيُّها المؤمنون، لا تَدخُلوا منازلَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنْ تُدْعَوا إلى طعامٍ فيُؤذَنَ لكم لتأكلوه، غيرَ مُنتظرينَ نُضْجَهُ واستِواءَه، ولكن إذا دُعِيتُم فادخلوا وكلُوا، فإذا أكلتُم فتَفرَّقوا واخرجوا من منزله، ولا تجلسوا لتستأنِسوا بالحديث، فإنَّ ذلكَ يشقُّ على النبيّ لأُمورٍ

تخصُّهُ وأهلَه، وهو يستَحيي أن يطلبَ منكم الانصراف، واللهُ لا يتركُ تأديبَكم وبيانَ الحَقِّ حياءً.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ملاحظة: تفسيرُ الآياتِ من (الواضح في التفسير) للكاتب.

فهرس الجزء الثالث

الموضوع — الصفحة

الباب الثاني
العلوم الإسلامية

أولًا: متفرقات في الإسلام

ثانيًا: علوم القرآن